قراءة في الحضارة الإسلامية

دراسة في معانيها وآثارها المعنوية والمادية

بسم الله الرحمن الرحيم

قراءة في ....

الحضارة الإسلامية

دراسة في معانيها وآثارها المعنوية والمادية

الأستاذ الدكتور/ محمد موسى محمد أحمد البر

الأستاذ الدكتور/ محمد نور موسى علي



الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى

الكتاب : قراءة في الحضارة الإسلامية
دراسة في معانيها وآثارها المعنوية والمادية
المؤلف : الأستاذ الدكتور محمد موسى محمد أحمد البر
الأستاذ الدكتور/ محمد نور موسى علي

رقم الطبعة : الأولى
تاريخ الإصدار : ٢٠١٧ م
حقوق الطبع : محفوظة للناشر

الناشر : الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى
العنوان : ٨٢ شارع وادى النيل المهندسين ، القاهرة ، مصر
تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ٠١٢٢/١٧٣٤٥٩٣
البريد الإليكترونى: m.academyfub@yahoo.com

رقم الإيداع : ١٧٢٠٦ / ٢٠١٦
الترقيم الدولى : 2 - 92 – 6149 – 977 – 978

المقدمة

هذا الكتاب عن الحضارة الإسلامية يجئ في منظومة الكتب الكثيرة التي خطتها أقلام العلماء المسلمين قديماً وحديثاً ولا ندعي أننا قد جئنا بجديد، وحسبنا أننا أدلينا بدلونا مع أفذاذ كتبوا عن الحضارة الإسلامية من المسلمين وغير المسلمين، ونقول الفضل ما شهدت به الأعداء، وفي هذا السياق كتابين من غربيين أنصفوا الحضارة الاسلامية وهما د. جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) الذي نقله إلى العربية الاستاذ عادل زعيتر ود. زيغريد هونكة الألمانية في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو كذلك مترجم الى العربية، وهي كتب سمت الحضارة بإسم العرب لكن ماهو معروف (حضارة إسلامية)، وقد انتصر لهذا المفكر الإسلامي سيد قطب. وقد كتب العديد من الكتّاب عن هذه الحضارة وكتبت كتباً عديدة في نواحيها المختلفة منها رسائل جامعية ماجستير ودكتوراه، وفي هذا الإطار نذكر رسالة الدكتوراه للدكتور توفيق يوسف محمد الواعي بعنوان (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية) وغيرها من الكتب التي كان لها أثر كبير في إبراز وجه الحضارة الإسلامية وتقرير انها ليست عربية وإنما هي حضارة عقيدة الإسلام، وهذا الكتاب (قراءة في الحضارة الإسلامية) كانت مراجعنا فيه إلى الكتب العربية والإسلامية وغير العربية المترجمة وبعض المقالات والبحوث عن الحضارة الإسلامية وجاء الكتاب في فصول عدة كما يلي:

الفصل الأول: تعريف الحضارة لغةً واصطلاحاً.

الفصل الثاني: علاقة الحضارة بكل من الثقافة والمدنية والعلم.

الفصل الثالث: مفهوم الحضارة الإسلامية وأهمية دراستها.

الفصل الرابع: موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى.

الفصل الخامس: خصائص الحضارة الإسلامية.

الفصل السادس: مصادر الحضارة الإسلامية.

الفصل السابع: معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى.

الفصل الثامن: نماذج لأثر الحضارة الإسلامية على أوروبا (الحياة العلمية الأوربية في الأندلس).

الفصل التاسع: إسهامات المسلمين في الحركة العلمية .

الفصل العاشر: الإسلام وحماية البيئة (من مقومات الحضارة الإسلامية).

الفصل الحادي عشر: حضارة الأندلس (إسبانيا).

الفصل الثاني عشر: حضارة بغداد.

الفصل الثالث عشر: أزمة الحضارة المعاصرة .

بين يدي قارئ الكتاب نأمل أن يستفيد من قراءته وأن يستدرك على من كتب ويدعو له بصالح الدعوات كما نرجو أن يكتب لنا أجره **﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾** [سورة الشعراء].

المؤلف

الفصل الأول

تعريف الحضارة لغةً واصطلاحاً

تعريف الحضارة :

الحضارة في اللغة العربية من الفعل (حضر) على وزن فعل يقال حضر الغائب حضوراً قدم من غيبته وحضرت الصلاة فهي حاضرة، والأصل حضر وقت الصلاة والحَضَر بفتحتين خلاف البدو والنسبة إليه (حضري) أقام بالحضر (والحضارة) بفتح وكسرها، سكون الحضر والحَضَر والحَضْرة والحضارة البادية وهي المدن والقرى والريف وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[1].

واستعملها الشاعر القطامى مفتخراً لبداوة قومه ومستخفاً بساكنى القرى والمدن :

فمن تكن الحضارة أعجبته   فأي رجال بادية ترانا

قال ابن خلدون: الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفة وتتفاوت الأمم مع القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر[2] ثم بين ابن خلدون [3] أن الحضارة لا تظهر إلا في المدن والقرى وأنها غاية العمران وأنها تتصل بالتفنن في الترف واستجارة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه.

هناك مصطلحات لها علاقة بالحضارة نذكر منها:

الوبر والمدر:

وهذا يعني الصوف والطين، والصوف رمزاً للبداوة، والمدر الطين نبني منه المنازل. وإذا قيل أهل المدر كان معناه أهل الحواضر والقرى والمدن ومثل كلمة الوبر والمدر كلمة (الحدر والحجر).

---

(١) المصباح المنير ولسان العرب مادة(حضر).

(٢) المقدمة ابن خلدون، ص١٦٨ المطبعة التجارية، القاهرة.

(٣) المرجع نفسه ص١٦٨.

الحدر تشير إلى أهل البادية حيث لا بناء على الأرض والحجر يشير إلى المدن حيث البناء والساكن [1] .

ويمكن تحليل معنى الحضارة:

الحضارة تعني في أصل اللغة الإقامة إذا كانت إقامة مجموعة من الناس في الحضر، أي مواطن العمران سواء كانت مدناً أو حضراً أو قرى فإن معناها قد توسع عند المؤرخين والباحثين الاجتماعيين حتى صار شاملاً لجميع أنواع التقدم والرقي الإنسانيين لأنهما لايزدهران إلا عند المستقرين في مواطن العمران وبإحصاء صور التقدم والرقي عند الإنسان نستطيع تحليلها إلى الأصناف الثلاثة الآتية:

الصنف الأول: ما يخدم الجسد ويمتعه من وسائل العيش وأسباب الرفاهية والنعيم ومعطيات اللذة للحس أو النفس، ويدخل في هذا الصنف أنواع الترقي والتقدم العمراني والزراعي والصناعي والصحي والأدبي والفني والتقدم في الإنتاج الحيواني واستخراج كنوز الأرض والاستفادة من الطاقات المنبعثة فيها وما شابه ذلك.

الصنف الثاني: ما يخدم المجتمع الإنساني ويكون من الوسائل التي تمنحه سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة والرخاء، وتمنحه سيادة النظام والعدل والحق وانتشار أنواع الخير والفضائل الجماعية، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الاجتماعي الشامل للنظم الإدارية والحقوقية والمالية والأموال الشخصية، والشامل للأخلاق والتقاليد والعادات الفاضلة وسائر طرق معاملة الناس بعضهم البعض في علاقاتهم المختلفة.

الصنف الثالث: ما يأخذ بيد الإنسان فرداً كان أو جماعة إلى السعادة الخالدة تبدأ من فترة إدراك الإنسان ذاته والكون من حوله، وتستمر مع روحه إلى ما لا نهاية في الوجود الأبدي الذي ينتقل من حياة جسدية مادية

---

(١) انظر بتوسع، توفيق محمد يوسف الواعي،الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط٢، الكويت، مكتبة المنارة الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص٢٣.

يكـون فيهـا الابـتلاء إلى روحيـة برزخيـة ثـم إلى معـاد يكـون فيـه كامـل الجزاء[1].

وللحضارة والثقافة والمدنية معاني عند الأوربيين أوردها الأستاذ الدكتور توفيق الواعي في كتابة (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية).

في أصل كلمة حضارة وإذا انتقلنا من العربية إلى اللغات الغربية لنرى أصل الكلمة عندهم ومأخذها ومدلولها وجدنا ثمة لفظتين رئيسيين تستعملان للدلالة على معنى الحضارة civilization و culture ولكل منها تاريخ طويل متشعب وألوان مختلفة من الدلالة، ونلاحظ أن أصل كلمة culture مأخوذة من اللاتينية culture من فعل colere بمعنى حرث أو نمى، وقد كانت هذه الكلمة في العصور القديمة والوسطى تطلق على تنمية الأرض ومحصولاتها، ومع أن شيشارون استعملها بالمعنى المجازي ومراعياً الفلسفة culture mertis أي فلاحة العقل (تنميته) فإن هذا المعنى ظل نادراً في اللغة اللاتينية وفي أوائل العصور الحديثة بدأت تستعمل في الإنجليزية والفرنسية بمدلولها المادي والعقلي مع إضافة الشيء المقصود تنميته la culture du ble – la culure des arts ومثلها في الإنجليزية، فلما كان القرن الثامن عشر أخذ الكتاب الفرنسيون كفولتير وأقرانه يطلقون هذه اللفظة إجمالاً وبدون أداة تعريف أو إضافة إلى شئ معين وغدت culture بهذا المعنى المطلق يقصد بها تنمية العقل والذوق ثم انتقلت إلى حصيلة هذه العملية أي المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التي نعبر عنها بالعربية بلفظ الثقافة، أما في الإنجليزية فإن أول نص نستعمل فيه هذه الكلمة بما يشبه هذا المعنى يعود حسب معجم أكسفورد إلى عام ١٨٠٥م، ولا يزال هذا المعنى هو أحد معانيها والسائدة في اللغة الغربية، وقد انتقلت هذه اللفظة إلى الألمانية من الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر بشكل culture ثم kulture وانتقل معها معناها الأخير (أي الإنماء العقلي والأدبي وحصيلة هذا الإنماء) ثم أخذ معناها يتطور عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين ويتجلى عن دلالات

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، بدون بلد بدون دار نشر، ١٣-١٩، ص١١-١٢.

الإنماء أو التحسين الفردي، ويتحول إلى الأكوان بمجموعها وبرز هذا المعنى الأخير في أواساط القرن التاسع عشر عند المؤرخ والعالم الألماني (جستان كلمن) الذي يعتبر علم الأنثروبولوجيا هو العلم الذي تهتم دراسته بالأجناس البشرية سواء الموجود منها الآن أو التي اختفت مع العناية بالدراسة التحليلية المقارنة للشعوب البدائية كذلك.

والخلاصة: هو علم الإنسان الذي يدرس نواحي النوع الإنساني وكل الظواهر من حيث تعلقها بالإنسان وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- الطبيعية وتدرس تطور الإنسان والحفريات .

٢- الاجتماعية وتدرس النظم الاجتماعية المختلفة.

٣- الثقافية وتدرس ثقافة الإنسان وغدت هذه اللفظة تطلق على مجموعة عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات، وهذا هو أصل المعنى الاصطلاحى الذى تحويه كلمة culture اليوم عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، وانتقل هذا المعنى من kelemrn إلى العالم الأنثروبولوجي الإنجليزي E.B.2 Tylar الذي كان أول من استعمله باللغة الإنجليزية عام ١٨٧١م ومنه تسرب للأوساط العلمية الأنجلوسكسونية ثم انتشرت بصفة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وغدا هذا المعنى الاصطلاحي مفهوماً أساسياً في هوية العلمين في ألمانيا وأمريكا ولكنه لم يصادف مثل هذا الرواج في انجلترا وفرنسا، ومهما يكن من أمر فإنه يرتكز بعد ارتكازه الأخير ولم ينف عن كلمة culture معانيها السابقة [(١)] .

أما الثقافة فقد أورد المرجع نفسه استخدم الغربيون في التعبير عن كلمة ثقافة لفظة culture المستعمل في الحضارة، ولاتزال تستعمل هذه الكلمة في الفرنسية والإنجليزية ولغات أخرى بمعنى الثقافة والثقافة بوجه عام بل عاد إليها في العلوم الطبية والتطبيقات الصناعية معناها الأصلى أي عملية إنما الأشياء المادية كالجراثيم واللاتي بالزرع والتصنيع ومنهم من يذهب إلى أن كلمة الحضارة ينبغي أن تكون ترجمة لكلمة civilization، والثقافة

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٥-٢٧.

كمــا اســتعمل الأوربيــون كلمــة civilisation أو civilization culture الإنجليزية في المدينة، وقد اشتقتا من sivis أي المدينة أو المواطن في المدينة ثم أخذت تستعمل مجازاً.

وقد عنيت في بادى الأمر شأن مرادفتها culure لا بصيغة المصدر للدلالة على ذاتها لا على النتيجة الحاصلة منها ثم تطورت لتعبر عن هذه النتيجة أي عن حالة الرقي والتقدم في الأفراد والمجتمعات، وكان استعمالها بهذا المعنى أقدم في الفرنسية منه في الإنجليزية، ومالبثت هذه الكلمة أن انتشرت في اللغات الأوربية إلى اليوم حيث تستعمل بمعنى الحضارة أو الكيان الحضاري.

وقد حاول وول ديورانت أن يربط بين أصل كلمة المدنية civilization وعلاقتها بالتهذيب ودقة المعاملة civility وعنده أن ذلك ضرب من السلوك المهذب الذي هو رأي أهل المدن وهم الذين صاغوا حكمة المدنية وذلك أنه يجتمع في المدنية وما ينتجه الريف من ثراء ونوابغ العقول، وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة في المدينة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ، ويتلاقى فيها التجار والصناع يتبادلون السلع والأفكار فتتلاقح العقول، وبرهان الزكاء وتستثار فيه قوته على الخلق والإبداع [1].

السؤال: هل الحضارة عربية أم إسلامية ؟

ناقش هذه القضية د. عبد الحميد حسين أحمد السامرائي: كثيراً ما تجري محاورات فكرية حول تسمية الحضارة ويقف الدارسون امام تسميتين: الحضارة العربية والحضارة الإسلامية، وتبعاً لذلك أصبح حتماً على كل مؤلف في هذا المجال أن يختار التسمية التي يراها.

يميل كثير من الباحثين إلى التسمية الحضارة العربية على أساس دور العرب واللغة العربية لغة القرآن الكريم **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [2].

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية، د. عفت الشرقاوى، دار النهضة، ص١٧.

(٢) سورة يوسف، الاية ٢.

وكذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣)﴾ [١].

كما فعل جوستاف لوبون الذي سمي كتابه (حضارة العرب) كما فعلت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه التي سمت كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوروبا)، وكذلك فعل جاك ويسلر سمى كتابه (الحضارة العربية).

وقد توسط في ذلك مصطفي الرافعي فسمى كتابه (حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة)، فجمع بين الاصطلاحين لا كما فعلت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه .

وكذلك فعل جاك ويسلر حين سمى كتابه الحضارة العربية أما سبنجلر فقد ذهب إلى أكثر مما ذهب إليه الآخرون حين استخدم الحضارة العربية للدلالة على حضارة منطقة واسعة فشمل شعوب الشرقين الأدني والأوسط كلها بما في ذلك الشعب الفارسي وإنما سماها بالعربية لدور العرب فيها [٢].

لابد من التنويه بإعجاب الفيلسوف سبنجلر الذي بلغ إعجابه بالحضارة العربية حداً كبيراً، فهو يرى أن العرب لم يستعمروا البلدان التي فتحوها بل استعادوا بكل بساطة بلادهم وحرروها، وهو يقول في هذا (وهذا وحده كاف لأن يشرح الآن سر الحياة الجبارة التي انطلقت بها الحضارة العربية عندما تحررت من قيود الغنى من الأغلال الأخرى انتشر بظلالها فوق كل الأفكار التي كانت باطناً ملكاً لها قبل قرون وقرون من انطلاقها الجبار[٣].

أما الباحثة زيغريد هونكة فقد وصفت دور العرب في كتابها فقالت في تقويمها:

إن هذا الكتاب يتناول العرب والحضارة العربية ولا أقول الإسلامية؛ ذلك أن كثير من المسيحيين واليهود والمزديين والصابئة قد حملوا مشاعلها أيضاً، أضف إلى ذلك أن كثيراً من صفات هذا العلم الروحي الخاص كان موجوداً في صفات العرب قبل الإسلام، هذا الكتاب يتحدث عن العرب والحضارة

---

(١) سورة طه: الآية ١١٣.

(٢) عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الاسلامية، الطبعة الرابعه، بيروت: دار النهضة العربية١٩٨٥م) ص٢١.

(٣) عبد السيد مهدي الرحيم، تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، طرابلس، ١٩٩٥م، ص٢٩

العربية بالرغم من أن الكثيرين من أبنائها كانوا لا ينتمون إلى الشعب الذي عرفه المؤرخ هيرودوت بأسماء عربية؛ بل كان منهم أيضاً فرس وهنود وسريان ومصريون وبربر وقوط وغربيون، أسهموا جميعاً في رسم معالم تلك الحضارة بدليل إن كل الشعوب التي حكمها العرب اتحدت بفضل اللغة العربية والدين الإسلامي، وذابت بتأثير الشخصية العربية من ناحية وتأثير الروح العربي الفذ من ناحية أخرى في وحدة ثقافية ذات تماسك عظيم[1]، إن هذه التسمية من حيث واقعها التاريخي تحتاج إلى مناقشة؛ ذلك أن دور العرب السياسي في القيادة للدولة الإسلامية لم يلبث أن نافسهم فيه أجناس أخرى فظهرت عناصر تركية مغولية جديدة صارت إليها القيادة في العالم الإسلامي بعد أن تفتت الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة منذ أواخر العصر العباسي، لذلك لا يمكن أن نصف هذه الحضارة بأنها حضارة عربية.

لكن إذا استطاع باحث أن يكشف خصائص ثقافة معينة وملامح حضارية خاصة تسري في مجتمعات هذه المنطقة سواء كانت عربية أم فارسية أم تركية صح له أن يطلق عليها إسم العربية لا بالمعنى العنصري ولكن باعتبار أحد العناصر المؤثرة في هذه الحضارة، والمشكله لتكوينها الوجداني ورؤيتها التاريخية[2]. باعتبار ما يطلق عليه إسم الحضارة العربية لا يقتصر على ما قدمه العرب؛ وإنما يشتمل على ما قدمه كل المفكرين والعلماء في البلاد التي فتحها العرب واعتنقت الإسلام، وتكلمت وتأثرت بالحضارة العربية[3]، ومن المعروف أن الحضارات الدينية بصفة عامة تقوم على التفسير الروحي لألوان النشاط الاجتماعي فمسائل الحكم والسياسة والأخلاق والمعرفة كلها تستمد فلسفتها من التفسير الديني، ولم ينفصل هذا النشاط عن الدين إلا في العصر الحديث[4] خصوصاً إذا علمنا أن العرب الذين اعتنقوا الإسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية بل أسهم فيها الكثيرون من غير العرب .

---

(١) المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٦م، ص١٣-١٤.
(٢) عفت الشرقاوي، مرجع سابق، ص٢٣.
(٣) رمضان عبد العظيم، الصراع بين العرب وأوروبا، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٥.
(٤) عفت الشرقاوي، مرجع سابق، ص٢٣.

فأما القول بأنها حضارة إسلامية كما فعل آدم متز وجرونيارم وجب وغيرهم؛ باعتبار أن هذه الحضارة شارك في صنعها مع المسلمين كثير من النصارى وبعض المجوس واليهود والصابئة؛ بل إن أصحاب هذه الديانات قد أسهموا بصورة أو بأخرى في إبداع هذه الحضارة، ولكن يبقى أن وصف هذه الحضارة بالحضارة الإسلامية هو الوصف الأرجح؛ باعتبار أن الإسلام هو دين الأغلبية وأن الشريعة الإسلامية كانت الرابط الموحد لشعوب الدول الإسلامية طوال العصور الوسطي، وعلى الرغم من أننا نؤمن بحرية الفكر والاجتهاد في نطاق الموضوعية فإننا نترك للقارئ الكريم في آخر المطاف حرية الموافقة على هذه التسمية أو تلك على ضوء مايقرأ من فصول هذا الكتاب وموضوعاته[1]، للمفكر الإسلامي سيد قطب رأي وجيه عن الحضارة الإسلامية كتبه في كتابه (معالم في الطريق).

صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفايتها وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة دائمة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان، لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق العربي والفارسي والشامي والأندونيسي والمصري والمغربي والتركي والصيني والروماني والإغريقي والأفريقي إلى آخر الأقوام والأجناس، وتجمعت خصائص لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما (عربية)، إنما كانت دائماً إسلامية ولم تكن يوماً (قومية) إنما كانت دائماً (عقيدية)[2].

وتستحق الحضارة أن نطلق عليها الحضارة الإسلامية، وهي حضارة لها آثارها المعنوية والمادية؛ تلك الآثار الواضحة في مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) د. عبد الحميد حسين أحمد السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط١، الزاوية، دار شموع الثقافة، ٢٠٠٢م، ص٢٠-٢٣.

(٢) سيد قطب، دار الشروق، معالم في الطريق، ١٩٩٥م، ص٥٨-٥٩.

الفصل الثاني

علاقة الحضارة الإسلامية بكل من الثقافة والمدنية والعلم

لا شك أن العلاقة بين المفردات الثلاث علاقة قوية؛ لأن كل واحدة من هذه المفردات تمت بصلة إلى الأخرى، حتى إن العلماء يرون أن الحضارة مثلاً هي مجموع الثقافة والمدينة؛ حيث إن المدنية هي ما هو ملموس من جوانب الحضارة من علوم طبيعية ومدن وعمران وكل ما هو مادى، ولا تكون حضارة إلا بهذا ، وهذا ينطبق على الحضارة الإسلامية؛ إذ نجد كل المشروعات والبناءات وعلوم الطب والصيدلة وكل فنون الحياة من مراكب وحسن معاش أساس المدنية يمت بصلة قوية للحضارة الإسلامية ، ولا تكون الحضارة الإسلامية بدون أن تضاف المدنية ، فالمدنية أساس للحضارة الإسلامية ، والناظر في كتب الذين كتبوا عن الحضارة الإسلامية يجعلون ثمة روابط قوية بينها وبين المدنية والثقافة والعلم.

أما الثقافة والتي تعريفها إجمالاً هي كل ما هو غير مادي، والثقافة والمدينة كما يقال يكونان الحضارة، وذلك لأن الحضارة ولاسيما الإسلامية لا وجود لها بدون الثقافة والمدنية.

أما العلم فهو العماد الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية في كل جوانبها المعنوية والمادية ولا تخلو دراسة عن الحضارة الإسلامية إلا وتشيد بالعلم، وكيف أن العلم هو الصرح الذي شيدت عليه كل من الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية والمدنية الإسلامية، لذلك نجد علاقة قوية ومتينة بين كل من الحضارة الإسلامية والثقافة المدنية والعلم.

الفصل الثالث

مفهوم الحضارة الإسلامية وأهمية دراستها

الحضارة الإسلامية تلك الحضارة التي شيدها الفكر الإسلامي قوامها الإسلام بشموله؛ أحاطته بالحياة الدنيا وإصلاح هذه الحضارة على منهج الإسلام والقرآن وسنة رسول الله ﷺ، وهي حضارة ربانية إذ أنها تنتمي للعلم الذي جاء به رسول الله ﷺ، والحضارة الإسلامية قرينة التقدم العلمي إذ أنها أشاعت روح التقدم في كل أنحاء العالم، واستفادت الحضارة الإسلامية من كل الحضارات السابقة وتفوقت عليها، ومفهوم الحضارة الإسلامية ساد كل أنحاء الدنيا وأنها حضارة شاملة وإنسانية تعلي من شأن الشورى والحرية والعدل والمساواة كل ما اشتهر بأنه حقوق الإنسان.

عرفت الحضارة الإسلامية حقوق الإنسان التي لم تعرف إلا بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨م؛ تلك الحقوق التي ظلت حبراً على ورق، وفي الحضارة الإسلامية تم تطبيق حقوق الإنسان التي لازالت الحضارة المعاصرة تلهث في طريقها ولم تذق طعمها بعد.

حضارة بهذا المفهوم لابد أن تكون لها أهميتها ولابد أن تتم دراستها، تعد الحضارة الإسلامية أهم حضارة من الحضارات التي سبقتها والحضارات التي جاءت بعدها وإن انتقص من قدرها بعض المتعصبين من مفكري الغرب، غير أن الكثيرين أبرزوا أهمية هذه الحضارة وكتبوا عنها وعن أهميتها نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر صاحب كتاب (حضارة العرب) د. غوستاف لبون نقله إلى العربية عادل زعيتر طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠١٢م، والمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب: دراسة أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا) من منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، نقله إلى العربية كل من فاروق بيضون وكمال دسوقى عام ١٩٨٦م، ومما يدل على أهمية الحضارة الإسلامية أقوال بعض المستشرقين؛ يقول المستشرق جوستاف لوبون: إن العرب

هم الذين خدموا أوروبا في المادة والعقل والخلق ومتي ما درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في العلم يثبت له أنه ما من أمة انتجت مثل ما أنتجوه في هذه المدة القصيرة من ملكهم.

ويقول المستشرق بريس دافن: إنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي وذلك أولاً لكثرة فحول الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم وثانياً لما أحدثته فنونه وعلومه من التقدم العجيب مدة قرون عديدة.

ويقول رجاء جارودي المفكر الفرنسي المعاصر: إن الإسلام أنقذ العالم وأن القرآن عبر تعاليمه قد أعطى للملايين وعياً جديداً وحياة اجتماعية سليمة ونظرة اقتصادية وسياسية متكاملة، وبذلك استطاع المسلمون بأي قياس أن يبنوا أقوى دولة وأرفع حضارة ومدنية عرفتها البشرية حتى اليوم [1].

كل عاقل شرقي كان أو غربي يجعل للحضارة الإسلامية أهمية بالغة عندما امتلك المسلمون ناصية الثقافة في القرون الوسطي ونعموا بحرية الفكر والرأي ونالوا من الحياة الفاضلة الكريمة أوفى نصيب، كان الفقر والتخلف يعم أنحاء أوروبا التي كان يغطي الكثير من ساحاتها الغابات الكثيفة وتنتشر بها المستنقعات المتناثرة في أراضي المدن والتي تنبعث منها الروائح الكريهة والغازات السامة والأبخرة الضارة؛ كما أنها المصدر الأساسي للأوبئة الفتاكة.

وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى بالحجر المنحوت والطين المخلوط بالقش، وهي ضيقة النوافذ غير محكمة الإغلاق وأرضها تغطي بالقش المنثور لأنهم كانوا لايعرفون، وماكانوا يدرون البُسط، ولم يكن الناس في تلك المنازل أحسن مسكناً وأمناً من الحيوانات التي كانوا يؤونها معهم، أو يربونها من أجل الحياة على إنتاجها من لحم ولبن؛ وما تساهم به في الزراعة البدائية، وكان الغربيون في تلك القرون متوحشين جاهلين لا أمن فيهم ولا إدارة ولا حكام يعرفون واجبهم في إقامة العدل وتوطيد الأمن، وهم في كل

---

(١) د. محمد كمال شبانه، الإسلام فكرة وحضارة، القاهرة، دار العالم العربي، ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى، ص٧.

أحـوالهم إلى حيـاة الباديـة أقـرب مـنهم إلى حيـاة المـدن [1]. تظهـر لنـا أهميـة الحضـارة الإسـلامية عنـد دراسـة الحالـة الـتي كانـت عليهـا أوروبـا في ذلـك الزمان، والتي يظهرها ما تقدم من سطور وكيف أن أوروبا كانت موغلة في التخلف. وتظهر أهمية الحضارة الإسلامية لأثرها في الغرب النصراني، وقد كان تأثير العرب المسلمين عظيماً في الغرب، إن تأثير العرب في الغرب عظيم وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها، والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقل منه في الشرق؛ ولكن بمعنى آخر فإن تأثيرهم في الشرق تراه بادياً في أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص، وأما تأثيرهم الديني في الغرب فتراه صفراً، وترى تأثيرهم الفني واللغوي فيه ضعيفاً، وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيه عظيما [2].

فإن قوله: تأثيرهم الديني في الغرب فتراه صفراً جانبه الصواب. ولا يمكن إدراك شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا؛ حينما أدخلوا الحضارة إليها إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب؛ كانت أبراجاً يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من السر فوق ماهو ضروري لنسخ كتب العبادة.

ودامت همجية أوروبا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك عندما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم [3].

من هنا اكتسبت الحضارة الإسلامية أهميتها وأصبحت جديرة بالإهتمام والدراسة والمعرفة؛ لأنها حضارة قادت العالم في المشارق والمغارب للرقي،

---

(١) عبد السلام حمدي اللمعي، صراع الحضارات وحوار الدبابات، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م، ص١٥٣.
(٢) حضارة العرب، د. غوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م، ص٥٦٦.
(٣) المرجع السابق، ص٥٦٦-٥٦٧.

والحضارة الإسلامية لها خصائص تزيد من أهميتها وتجعل دراستها والمعرفة بها مهمة نذكر من هذه الخصائص:

أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي أول حضارة تنادى بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه هو وحده الذي يعبد وهو وحده الذي يقصد إياك نعبد وإياك نستعين، وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنح وما من شئ في السموات والأرض إلا هو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين وتوجيه الأفكار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين، كما كان لهذه العقيدة الأمر الأعظم في ترسيخ التوحيد والوحدة الإسلامية .

الفصل الرابع

موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى

لقد شهد العالم عدة حضارات منها حضارات بائده قد انتهت دون أن تترك أثراً، ولكن هناك حضارات كانت لها آثاراً مختلفة على المحيط الذي ولدت فيه تلك الحضارة، فمن الحضارات التي وجدها الإسلام عند شروق شمسه الحضارات الآتية والتي سوف نرى كيف تعاملت معها الحضارة الإسلامية:

١- الحضارة الرومانية.
٢- الحضارة اليونانية.
٣- الحضارة الهندية.
٤- الحضارة اليابانية والصينية.
٥- الحضارة الفارسية.

لقد ولدت الحضارة الإسلامية مع بزوغ فجر الإسلام حيث كانت البشرية في حاجة ماسة لمن ينقذها من ليلها الحالك، وذلك بعدما أفسدت الحضارة اليونانية بوثنيتها والحضارة الرومانية ببطشها وجهلها أفسدوا كل نور من أنوار الرسالات السماوية.

والحضارة الإسلامية تتمثل في مراحلها التاريخية التي مرت بها وهي :

١- دولة النبوة.
٢- دولة الخلافة الراشدة.
٣- دولة بني أمية.
٤- دولة بني العباس.
٥- الدولة العثمانية.
٦- الدولة القطرية (هذه أضعف المراحل والدولة هنا مقودة وليست قائدة).
٧- دولة الخلافة المتوقعة.

إن الحضارة الإسلامية شاملة لكل مناحي الحياة؛ لأن هذه الحضارة تستمد قوتها من رسالة الإسلام الخالدة. فالإسلام جاء من أجل الإنسان وهو الهدف الأول، والإنسان مكلف بعمارة الأرض، وعمارة الأرض الحقيقية تتم بتنفيذ أوامر الله تعالى خالق هذا الكون والمبدع له بغير مثال سابق.

فالحضارة الإسلامية هي حضارة القيم والمعاني السامية التي ينبغي للإنسان أن يعرفها ويحيا عليها.

وبما أن الحضارة من أهم أركانها وأسها العقيدة. وما من أمة خلت في الأرض إلا لها عقيدة إما عقيدة صالحة أو فاسدة. لقد أسس الإسلام الدولة الإسلامية الأولى وهي دولة النبوة، فهذه الدولة قامت على أسس قوية ومتينة كلها مبنية على منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وهذه الدولة النبوية إنما بدأت حقيقة بعد الهجرة إلى المدينة؛ لأن الدعوة كانت مكتومة النفس والأنفاس في حصار من كفار قريش، ولكن بعد الهجرة وجدت الدعوة المجال الرحب والواسع، وقد انطلقت الفتوحات الأولى، وقد تمثلت في الغزوات والسرايا التي تخرج بتوجيهات النبي ﷺ.

فخلال ثلاث وعشرين عاماً كان جهد النبي ﷺ مركزاً على التعليم والجهاد، ولم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ما تم فتح الجزيرة العربية.

إن من أهم أسس دولة المدينة التي قامت عليها:

١. بناء مسجده الشريف الذي أصبح منارة للعلم وملتقي لأصحاب النبي ﷺ ومكاناً عاماً تناقش فيه جميع قضايا الأمة، بل حتي التدريب كما حدث من الجيش من لعبهم بالحراب والدروق يوم العيد، وذلك في حياة النبي ﷺ وحضوره لهذا.

٢. المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين والانصار. وقد وصلت هذه المؤاخاة إلى غايات بعيدة. حيث كان الرجل يقول لصاحبه إن كانت له زوجتان ولم تكن له زوجه أنظر أي الزوجتين تريد فأطلقها لتتزوجها فما

كان رده إلا أن يقول له بارك اللّه لك في أهلك. وهذا غاية الإيثار ويبين مدى ما وصلت له هذه الاخوة من المعاني الجميلة الراقية، علماً بأن الناس كانت بينهم عدوات وثارات فسبحان مقلب القلوب.

٣. وثيقة المدينة وهي وثيقة جاءت لتنظيم علاقة المسلمين وغيرهم من أهل المدينة خاصة اليهود. ولولا أن اليهود خرقوا ما في هزة الوثيقة من العهود لما خرجوا من المدينة، ولكن اليهود بفطرتهم المنحرفة واعتقادهم أنهم شعب اللّه المختار، بدأوا المكر والخداع والخيانة فكان مصيرهم الطرد والقتل وهذه لمحة سريعة عن دولة النبوة والاسس التي قامت عليها.

بعد دولة النبوة جاءت دولة الخلافة الراشدة التي بدأت بخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وانتهت بخلافة على رضي الله عنه. وقد سارت هذه الدولة على منهج دولة النبوة، وإن كانت قد أصابتها هزة عنيفة بمقتل عثمان رضي الله عنه، وكذلك ما حدث من خلاف بين علي رضي الله عنه عند مبايعتة للخلافة ومعاوية رضي الله عنه.

ثم جاءت بعد ذلك دولة بني أمية التي بدأ بها الملك فكان أول ملك للمسلمين معاوية رضي الله عنه.

كانت الحضارة الإسلامية متسامحة جداً مع الحضارات التي سبقتها مع أنها وجدت مقاومة من تلك الحضارات التي فُتحت مواطنها كالحضارة الرومانية والفارسية.

إن ما وجدته الحضارة الإسلامية من موروث سابق لتلك الحضارات، نظرت إليه من ناحية انسجامه مع قيم الحضارة الإسلامية.

إن الفتوحات الإسلامية كانت طوق نجاة لكل الفئات المضطهدة خاصة إذا علمنا أن الإسلام غرس مبدأ حرية الاعتقاد فإن الناس تُرك لهم حرية الاعتقاد، فمن أسلم كان له ما للمسلمين ومن لم يسلم فعليه أن يدفع الجزية مقابل حمايته والدفاع عنه من قبل الدولة المسلمة، قال تعالى: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾**[1] .

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

وقد مثل الإسلام خلاصاً للكثير من المضطهدين من قبل الكنيسة لآرائهم المخالفة لتوجيهات الكنيسة (لأول مرة يتحرر أصحاب المسيحية كالنساطرة القائلين بطبيعة واحدة للمسيح من اضطهاد من قبل كنيسة الدولة فتنتشر مذاهبهم بحرية ويسر)[1].

لقد طورت الحضارة الإسلامية كل مناحى الحياة في البلاد التي فتحها الإسلام، وقد تمثل هذا التطور الهائل في علم الفلك والطب والهندسة والزراعة وفن العمارة وكذلك أصبحت اللغة العربية هي اللغة الأولى في تلك البلدان.

لقد تغلغلت الحضارة الإسلامية إلى العمق الأوربي والأسيوي على السواء، وتأثرت هذه البلاد المفتوحة بكل ماهو عربي إسلامي، والواقع أنه كان للشرق حينئذ تجارة واسعة المدى مترامية الأطراف تكاد تختفي البلاد المسيحية في ظلها. تجارة تمتد عبر بحر الخزر والفولجا إلى الشمال، شاملة كل الشواطئ وجزر البلطيق، وقد لقطت أرض تلك البلدان آلافاً بل ملايين من العملة العربية، من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر وإن في هذا دليلاً على مدى انتعاش الحضارة العربية، ومدى انتشار تجارة لم تقف أحكام دينية متحيزة في وجهها[2].

ومن العطاء الثري للحضارة الإسلامية أن طورت صناعة الورق الذي يحتاجه كل أصحاب الأقلام من مؤسسات حكومية وغيرها. وسار موكب صناعة الورق المنتصر هذا مطوفاً بسورية حيث ترك وراءه في دمشق وطرابلس قواعده أي مصانعه ماراً بفلسطين ومصر لينطلق منها إلى الغرب إلى تونس إلى مراكش وإسبانيا ومن غرب صقلية والأندلس. تعرفت بلاد الغرب على هذه المادة كثيرة النفع التي هي في الحقيقة إحدى دعائم الثقافة والحياة الروحية. أجل لقد فتح ورق الغرب هذا عصراً جديداً لم يعد العلم فيه وقفاً على طبقة معينة من الناس بل غدا مشاعاً للجميع ودعوة لكل العقول لأن تعمل وتفكر[3].

---

(١) زيغرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٦٦، دار الافاق، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ط٢.
(٢) زيغرد هونكه، ص٢٧، مرجع سابق.
(٣) زيغرد هونكه، ص٤٦، مرجع سابق.

أثرت الحضارة الإسلامية في الطب بصورة لافتة تتبين من خلال الخدمة والمراقبة التي تقدم للمريض، فهذه الكاتبة زيغرد تورد هذا الحوار الذي جرى بين مريض وأهله لتسألني إن كنت بحاجة إلى نقود! فأخبرك بأني عندما أخرج من المستشفي سأحصل على لباس جديد وخمس قطع ذهبية حتى لا أضطر إلى العمل حال رجوعي مباشرة فلست في حاجة إذن إلى ان تلقاني هنا. إني الآن في قسم (د. الأرنوبادي) بقرب قاعة الجراحة، وعندما تدخل من البوابة الكبيرة، تعبر القاعة الخارجية الجنوبية وهي مركز (البولبكلينيك) حيث أخذوني بعد سقوطي وحيث يذهب كل مريض أول مايذهب لكي يعاينه الأطباء المساعدون وطلاب الطب. ومن لا يحتاج منهم لمعالجة دائمة في المستشفي تعطى له وصفته فيحصل بموجبها على الدواء من صيدلية الدار. وأما أنا فقد سجلوا اسمي هناك بعد المعاينة وعرضوني على رئيس الأطباء، ثم حملني ممرض إلى قسم الرجال، فحمني حماماً ساخناً وألبسني ثياباً نظيفة من المستشفي.

وحينما تصل ترى إلى يسارك مكتبة ضخمة وقاعة كبيرة حيث يحاضر الرئيس في الطلاب، وإذا ما نظرت وراءك يقع نظرك على ممر يؤدي إلى قسم النساء..] كل شئ هنا جميل للغاية ونظيف جداً: الأسِّرة وثيرة وأغطيتها من الدِقمس الأبيض والملاءة بغاية النعومة والبياض كالحرير، في غرفة من غرف المستشفي تجد الماء جارياً فيها على أشهى ما يكون. وفي الليالي القارسة تدفئ كل الغرف. وأما الطعام فحدث عنه ولا حرج! فهناك الدجاج أو لحم الماشية يقدم يومياً لكل من يوسعه أن يهضمه.

إن الأوضاع التي يحدثنا عنها هذا الكتاب تشبه إلى حد بعيد ما نراه في القرن العشرين العظيم. وبالفعل فإن هذا الكتاب يصف لنا أحد المستشفيات التي كانت تبنى قبل ألف سنة، في كل المدن العربية الكبيرة الواقعة ما بين جبال الهملايا وجبال البيرينيه. فقد كان في مدينة قرطبة وحدها خمسون مستشفي في أواسط القرن العاشر[1].

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٤٨٨، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ترجمة عادل زعتير.

عدد المؤلفين من أطباء العرب كبير للغاية، وخصص ابن أبي أصبيعة مجلداً من كتابه لتراجم أطباءالعرب. والرازي هو من أشهر اطباء العرب، وولد الرازي سنة ٨٥٠م وتوفي ٩٣٢م بعد أن زاول الطب في بغداد خمسين سنة[١].

لقد قابلت الحضارة الإسلامية الحضارات الأخرى بسماحة غير معهودة، شهد بذلك القاصي والداني ولعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم حتى أن الملك الفارسي كيروس قال: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين فيما يدعيه بعضهم من اتهامات بالتعصب والوحشية، إن هذا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة.

والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عدداً ضئيلاً من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب، وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف والحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة [٢].

لقد تجلت سماحة الحضارة الإسلامية أنها لم تحجر على الشعوب المغلوبة أن تمارس كل ما تراه مهم بالنسبة لها، سواء في المعتقدات أو المعاملات فهذه إسبانيا التي فتحها العرب وأقاموا على أرضها دولة الاندلس التي استمرت لثمانية قرون يشهد التاريخ على سماحة تلك الحضارة، واستطاع العرب ان يحولوا إسبانيا مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا على هذين الأمرين، بل آثر في أخلاق الناس أيضاً، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت قلت حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حلم عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر اشبيلية النصراني الذي عقد سنة ٧٨٢م

---

(١) نفس المرجع، ص٤٩٠.

(٢).زيغردهونكه، ص٣٥٨، مرجع سابق.

ومـؤتمر قرطبـة النصـراني الـذي عقـد سـنة ٨٥٢م، وتعـد كنـائس النصـاري الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم الكثير من النصاري، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولـة، وكانت إسبانيا العربية بلد أوروبا الوحيد الـذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثير جداً [(١)].

وقد أدى التسامح والتعامل الراقي إلى كسب قلوب الشعوب الـتي فتحت بلادها حتى الناس أصبحوا يتكلمون اللغة العربية، ويقلدون العـرب (وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف النـاس، حتى من بقى على دينه إلى السادة الفاتحين يقلدونهم في طرق معيشتهم وسلوكهم ويتمثلون بأخلاقهم، ويأخذون عنهم لغتهم ويسمون أولادهـم بتسـميات عربيـة، وبمرور الوقت يصير ملبسهم ومعيشتهم وسلوكهم عربياً. حتى أن الطبيب من بعلبـك، والتـاجر مـن الموصـل، وطالـب الفلسـفة مـن غرناطـة، يلتقـون في سـوق القاهرة أبناء شعب واحد لا يستطيع أحد ان يفرق بينهم [(٢)].

لقـد أخـذت اللغـة العربيـة المكـان الـذي تسـتحقه فأصـبحت لغـة الإدارة والسياسـة والقـانون بـل لغـة للتجـارة والمعـاملات وجمهـور النـاس. ومـن ذا الـذي يريـد أن يخـرج عـن لغـة الجماعـة؟ وكيـف يقـاوم جمـال هـذه اللغـة ومنطقهـا السـليم وسـحرها الفريـد، فجـيران العـرب أنفسـهم في البلـدان الـتي فتحوهـا سقطوا صرعى تلك اللغة، حسبما كان يشكو أساقفة إسبانيا بمرارة. فقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتعلمون اللغة العربية بشغف، حتى أن اللغـة القبطيـة مثلاً ماتت تماماً، بل أن اللغـة الآرميـة لغـة المسيح قد تخلت عن مركزها إلى الأبد، لتحتل مكانة لغة محمد ﷺ. كما أنه وجب ترجمة بيانات البابا وقرارات المؤتمرات المسيحية في القرن التاسع إلى العربية للأقليـة المسـيحية في الأنـدلس الـتي لم تعـد تفهـم اللغـة اللاتينيـة، وهكـذا

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٢٦٧– ٢٧٧، مرجع سابق.
(٢) زيغرد هونكه، ص٣٦٦، مرجع سابق.

تحولت لغة قبلية في مائة عام إلى لغة عالمية. لبست اللغة ثوباً ترتديه اليوم لتخلعه غداً، لقد وجدت اللغة العربية تجاوباً من الجماعات وامتزجت بهم وطبعتهم بطباعها. فكونت تفكيرهم وشكلت قيمهم وثقافتهم [(١)].

وإذا كانت سماحة الحضارة الإسلامية وتعاملها الراقي مع الشعوب التي فتحت بلدانها قد أكسبها ود هذه الشعوب حتى أصبحت لغة الحضارة الإسلامية هي اللغة السائدة. فلنقلب صفحات التاريخ لنقف كيف تعامل النصاري مع المسلمين حينما أفلت دولة الإسلام في الأندلس.

وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة ولكن سنة ١٤٩٩م لم تكن حتى تحل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قروناً والذي لم ينته إلا بطرد العرب من إسبانيا، وكان تعميد العرب كرهاً فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كردينال طليطلة التقيٌ الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءاً وشيوخاً وولداناً، ولم ير الراهب الدومينيكي بليداً الكفاية في ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ومن بقي على دينه منهم، وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب، فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخري ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم...... [(٢)].

هذا طرف من ممارسات الصليبين الذين أوغلوا في التشفي والانتقام ولم يقابلوا سماحة الإسلام بما يستحق، وهذا يدل على البون الشاسع بين سلوك العرب الفاتحين وسلوك الصليبين. هناك نظرية يطرحها الاستعمار من خلال منطق الاستعلاء باللون أو الجنس تقول هذه النظرية: إن هناك حضارة عالمية واحدة وإن العرب والمسلمين كانوا حلقة من حلقات هذه الحضارة التي ظهرت

---

(١) زيغرد هونكه، ص٣٦٧– ٣٦٨، مرجع سابق.

(٢) غوستاف لوبون،، ص٢٧١ –٢٧٢، مرجع سابق.

على شواطئ البحر الأبيض، قوامها اليونان والرومان ثم الغرب في العصر الحديث. ويردد هذه النظرية بعض كتاب الغرب ومن بينهم جورج ساركون في كتابه:

والواقع أن الحضارة الإسلامية بالرغم من أنها أخذت الخيوط الأولى لما كان معروفاً في العالم القديم من علوم، فإنها أبدعت حضارة جيدة لها ذاتيها الخاصة وطابعها المميز، وإن الإسلام قد قدم مفهوماً جيداً (للتحضر) يختلف عن مفهوم (المدنية) المادي المرتبط بالعمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا، وذلك الذي قدمه الإسلام إنما هو بمثابة الوعاء الذي تصاغ فيه المدنية من بعد، وتصهر فيه العلوم، ذلك هو التوحيد والإيمان بأن الله تبارك وتعالى هو الخالق الرازق والصانع، وهو القائم بقدرته من وراء الكون كله ساعة بعد ساعة ولحظة بعد لحظة، وأنه هو الذي أنشأ هذا الكون من العدم وأنه أقام له قوانين ونواميس يتحرك من خلالها لأجله المحتوم، وقد أطلع الله تبارك وتعالى البشرية على هذه القوانين والنواميس حين جاءت رسالة الإسلام بالقرآن تضع هذه المفاهيم بين يدى الإنسان لينتفع بها في سعيه إلى استكانة الكون واستخراج ثروات الأرض. وإن هذه الدعوة وجهت إلى البشرية بالنظر إلى السموات والأرض والتفكر فيهما كانت منطلق (التجريب) الذي عرفه المسلمون وحاكموا إليه كل الفكر القديم الذي عرفته حضارات بابل وفارس والفراعنة واليونان والرومان، والفراعنة أخطأوا ورُفضت ما كان منه قائماً على السحر والخرافة وحولت خلاصة هذا التراث القديم إلى مادة خام صنعت منها (المنهج العلمي التجريبي) الذي قدمه العلماء المسلمون للبشرية.

هذا في جانب العلم، وأما في جانب الحياة فقد قدم الإسلام مفهوم المساواة والإخاء الإنساني ووحدة البشرية كلها لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوي، وبذلك شجب النزعة العنصرية وقضي على مفهوم العبودية الذي قامت عليه حضارات الفراعنة واليونان والفرس والرومان [1].

---

(١) الجندي، الحضارة، ص١٦٠-١٦١، المكتب الإسلامي، بيروت.

إن الحضارة الإسلامية أخرجت أوروبا خاصة من عهد الظلام والخرافة إلى عهد النور والضياء وكل ما شهدته أوروبا من نهضة، إنما يعود إلى الحضارة الإسلامية.

إننا نختم هذه المقطوعة بما شهد به أهل ذلك الزمان وقبل ذلك بمائة عام تقريباً كتب ألفارو أسقف قرطبة حينئذ: كثيرون من أبناء ديني يقرأون أشعار العرب وأساطيرهم ويدرسون ما كتبه علماء الدين وفلاسفة المسلمين، لا يخرجوا عن دينهم وإنما ليتعلموا كيف يكتبون اللغة العربية مستخدمين الأساليب البلاغية. أين نجد اليوم مسيحياً عادياً يقرأ النصوص المقدسة باللاتينية؟ من منكم يدرس اليوم الكتاب المقدس أو ما قالته الرسل؟ إن كل الشباب النابه منصرف الآن إلى تعلم اللغة والأدب العربيين فهم يقرأون ويدرسون بحماسة بالغة الكتب العربية ويدفعون أموالهم في اقتناء المكتبات ويتحدثون في كل مكان بأن الأدب العربي جدير بالدراسة والاهتمام، وإذا حدثهم أحد عن الكتب المسيحية أجابوه بلا اكتراث: أن هذه الكتب تافهة لا تستحق اهتمامهم، يا للهول لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية بينما تجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم [1]. لقد بنت الحضارة الإسلامية مدناً عالمية شع منها نور العلم إلى أقطار العالم جميعاً منها بغداد وقرطبة، والنهضة الأوروبية وغيرها مدينة لهاتين العاصمتين العالميتين في ذلك الزمان.

---

(١) زيغرد هونكه، ص٥٢٨- ٣٦٨، مرجع سابق.

الفصل الخامس

خصائص الحضارة الإسلامية

الربانيـة: إن الخصيصة الأولى من خصائص الحضارة الإسلامية هي: الربانية، وهي كما يقول علماء اللغة[1]– مصدر صناعي منسوب إلى الرب زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس ومعناه: الانتساب إلى الرب، أي الله سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه (رباني) إذا كان وثيق الصلة بالله، عالماً بدينه وكتابه، معلما له. وفي القرآن الكريم: **﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾**[2].

١- تُبصرنا هذه الخصيصة بأن هناك حقيقتين أساسيتين[3] ملازمتين للحياة وللنفس البشرية على كل حال وفي كل زمان:

الحقيقة الأولى: إن هذا الإنسان بفطرته لا يمكن أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرةً تائهة مفلتة ضائعة. فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقر فيه. فلابد له إذن من عقيدة تفسر ما حوله وتفسر له مكانه فيما حوله فهي كما أسلفنا ضرورة فطرية شعورية حتى يعيش على هُدى ويتحرك على بصيرة.

والحقيقة الأخرى: أن هناك تلازماً وثيقاً بين طبيعة التصور الاعتقادي وطبيعة النظام الاجتماعي .. تلازماً لا ينفصل ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة. بل أن هناك ما هو أكثر من التلازم؛ هناك الانبثاق الذاتي فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ولمركز الإنسان فيه ووظيفته[4]، وغاية وجوده الإنساني.. وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير، هو نظام مصطنع لن يعيش.. وإذاعاش فترة شقي به (الإنسان)

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٧٩.
(٣) خصائص التطور الإسلامي ومقوماته، ص٢٥ ومابعدها، بتصرف.
(٤) من كتاب الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى، دولة الكويت، ١٩٨٩م، من ص٦٧-١١٠ بتصرف.

ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتماً.. فهي ضرورة تنظيمية كما أنها ضرورة شعورية[1].

٢- وتبصرنا بأن الرسل عليهم صلوات الله وتسليماته قد بينوا ذلك للناس وعرفوهم بالله تبارك وتعالى تعريفاً صحيحاً، وأوضحوا لهم مركز (الإنسان) في الكون وغاية وجوده، ولكن الانحرافات عن هذا المنهج تحت ضغط الظروف العديدة، كانت قد غشت هذه الضرورة وأضلت البشرية عنها، وأهالت عليها ركاماً هائلاً ثقيلاً.. يصعب رفعه بغير رسالة خاتمة شاملة كاملة عالمية؛ ممتدة ترفع هذا الركام الهائل الثقيل وتبدد هذا الظلام المتراكم الكثيف وتنير هذا التيه المتلاطم المتخبط وتقرر التصور الاعتقادي على أساس من الحق الخالص وتُقيم الحياة الإنسانية على أساس مستقر من ذلك التصور الصحيح. وما كان يمكن أن ينصرف أصحاب التصورات المنحرفة في الأرض كلها وأن ينفكوا عما هم فيه إلا بهذه الرسالة الخاتمة الشاملة الكاملة العالمية الممتدة (الإسلام)، وإلا بهذا الرسول (محمد بن عبد الله) ﷺ: **﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾**[2].

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة والتصور الإسلامي للحياة.

٣- وتبصرنا بأن الدين القيم قد جاء وهذا ما يستحق الانتباه والتأمل تصحيحاً كاملاً واضحاً شاملاً لجميع أنواع البلبلة التي وقعت فيها الديانات المنحرفة والفلسفات الخابطة في الظلام.. ورداً على جميع الانحرافات والأخطاء التي وقعت فيها.

٤- الديانات المنحرفة والفلسفات الهابطة سواء ما كان منها قبل الإسلام وما جد بعده كذلك.. فكانت هذه الظاهرة العجيبة إحدى الدلائل على مصدر هذا الدين..

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: الإسلام في عصر العلم، د. الغمراوي، ص١٩-٨٨.

(٢) سورة البينة، الآيات ١-٣.

المصدر الذي يحيط بكل ما هجس في خاطر البشرية وكل ما يهجس ثم يتناوله بالتصحيح والتنقيح.

٥- وتبصرنا بأن الذي يراجع ذلك المنهج الرباني في بيان علاقة المخلوق بالخالق وعلاقته بالحياة ودوره المنوط بها وتقرير كلمة الفصل في هذه العلاقة، يدرك عظمة الدور الذي جاءت به هذه العقيدة الربانية لتؤديه في تحرير الضمير البشري وإعتاقه وفي تحرير الفكر البشري وإطلاقه وفي إقامة الحياة).

٦- وتبصرنا بأن التصور الإسلامي هو التصور الوحيد الباقي بأصله الرباني وحقيقته الربانية: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[1].

٧- وننظر اليوم من وراء القرون إلى هذا الوعد، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب إلى جانب غيرها من الشواهد الكثير[2]، ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب من خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصوناً لا تتبدل فيه كلمة ولا تحرف فيه جملة لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل وتصونه من العبث والتحريف.

ولم تزل الأجيال تتوارثه وتتعبد بتلاوته وترتيله وحفظه وكتابته، ولا عجب أن ظل كما كان مكتوباً في المصاحف متلواً بالألسنة محفوظاً في الصدور مكتوباً في السطور منقولاً إلينا بالتواتر اليقين نقلاً حرفياً بنفس طريقة كتابته وبنفس طريقة تلاوته.

وتبصرنا بأن موضع الرسول ﷺ في هذا المنهج الإلهي هو أنه الداعي إلى الله المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) انظر: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص١٩ومابعدها، وانظر: في ظلال القرآن، ٢١٢٧/٤-٢١٢٩.

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣)﴾ [١].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٢].

ومن هنا وجبت طاعة الرسول ﷺ[٣]. **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾**[٤] **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** [٥].

وتبصرنا بضرورة التلازم بين الخلق والأمر، وتلك حقيقة كبرى أولية من حقائق التصور الإسلامي والثقافة الإسلامية تفيدنا تحديد كلمة الفصل في القضية الأساسية للحاكمية والتشريع والتعبد: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [٦].

هذه السبحات في ملكوت الله عز وجل.. يعرضها القرآن الكريم ليرد البشر الى ربهم الذي خلق هذا الكون وسخره والذي يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره والذي له الخلق والامر والحكم والتشريع والتعبد الخالص: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[٧] **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** [٨]. **﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾**[٩]

٨- وتبصرنا بطريقة العصمة من التناقض والتطرف والاختلاف الذي تعانيه المناهج والأنظمة البشرية والمحرفة؛ لأن البشر – بطبيعتهم [١٠]

---

(١) سورة الشورى: الآيتان ٥٢-٥٣.
(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٣) سبق تفصيل ذلك في بحث: السنة النبوية.
(٤) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٥) سورة الحشر: الأية ٧
(٦) سورة الأعراف: الآية ٥٤.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.
(٨) سورة يوسف: الآية ٤٠.
(٩) سورة الاعراف: الآية ٣.
(١٠) الخصائص العامة للإسلام، ص٤٦ وما بعدها، بتصرف.

ويختلفون من عصر إلى عصر، بل في العصر الواحد من وقت إلى آخر ومن قطر إلى قطر بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر، وفي الاقليم الواحد من بيئة إلى أخرى وفي الأمة من شعب لآخر وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى، وفي الفئة الواحدة من فرد لآخر بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى ومن وقت إلى آخر.

وهذا واضح من موقفها من الروحية والمادية والفردية والجماعية والواقعية والمثالية والثابت والمتطور وغيرها من المتقابلات التي وقف كل مذهب أو نظام عند طرف منها مغفلا الآخر أو جائزاً عليه.

وإذا كانت تلك هي طبيعة العقل البشري في الاختلاف فكيف نتصور براءته من التناقض والاختلاف فيما يضعه من مناهج للحياة سواء أكانت مناهج للتصور والاعتقاد ام للعمل والسلوك ؟!

إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازمه لا ريب وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾** [1].

وظاهرة التناسق المطلق الشامل.. وعدم الاختلاف لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن) [2].

٩- وتبصرنا بطريقة البراءة من التحيز والهوى مما لايسلم منه الا المعصوم: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾** [3].

وقد قال الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾**[4]. وسبيل الله هو سبيل الحق والعدل المنزه عن التحيز والجور والانحراف، ومن ثم اعتبر القرآن الكريم ماعدا شريعة الله وحكمه (أهواء) يجب الحذر منها ومن أصحابها.

---

(١) سورة النساء: الآية٨٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٢/ ٧٢٢ –٧٢٣.

(٣) سورة القصص: الآية٥٠.

(٤) سورة ص: الآية ٢٦.

يقول الله تعالى لخاتم رسله محمد ﷺ: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**(١).

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾(٢).

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير وهذا الحسم في التقرير وهذا التوجيه الرباني بكل معطياته.. يقف الإنسان أمام هذا كله ليبصر الطريق المستقيم المبرأ من التحيز والهوى والحكم بما أنزل الله عز وجل(٣).

١٠- وتبصرنا بضرورة الاحترام وسهولة الانقياد والرضا بكل تعاليم المنهج الرباني وأحكامه وتقبله بقبول حسن مع انشراح الصدر وإقناع العقل وطمأنينة القلب فهذا من موجبات الإيمان بالله ورسوله: **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾**(٤). وينشأ عن ذلك: السمع والطاعة في المنشط والمكروه والالتزام والمسارعة إلى التنفيذ مما يطول الحديث فيه.

١١- وتبصرنا بضرورة التحرر من عبودية الإنسان للإنسان ذلك أن العبودية من أنواع وألوان وأن من أشدها خطراً وأبعدها أثراً خضوع الإنسان لإنسان مثله يحل له ماشاء متي شاء ويحرم عليه ماشاء كيف شاء.. والحق كما أسلفنا أن الذي يملك ذلك هو الله وحده ولا غرو إن أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب تنازلهم عن حريتهم التي ولدوا عليها ورضاهم بالعبودية لأحبارهم ورهبانهم الذين أصبحوا يملكون سلطة التشريع لهم أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً دون أن يكون لأحد حق في اعتراض أو نقد أو مراجعة: **﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**(٥).

---

(١) سورة الجاثية: الأية ١٨.
(٢) سورة المائدة: الأية٤٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ٢/٨٩٢- ٩٠٥.
(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.
(٥) سورة التوبة: الآية ٣١.

ولما كانت دعوة الإسلام دعوة تحرير شامل للإنسان من العبودية لغير الله وجدنا القرآن الكريم يوجه نداءه إلى أهل الكتاب كافة أن يتحرروا من هذه العبودية لغير الله وأن يفردوا الله وحده بالعبادة والخضوع وذلك في قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[1].

١٢- وتبصرنا بضرورة سلامة النفس من التمزق والضياع والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات ولقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى وركز همومه في هم واحد هو العمل على مايرضيه سبحانه[2]. ولا يريح النفس الإنسانية شئ كما يريحها وحدة غاياتها ووجهتها في الحياة فتعرف من أين تبدأ وإلى أين تسير ومع من تسير، ولا يشقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته وتباين اتجاهاته وتضارب نزعاته فهو حيناً يشرق وحيناً يغرب، وتارة يتجه إلى اليمين وطوراً يتجه إلى الشمال ومرة يرضى زيداً فيغضب عمراً ومرة يرضي عمراً فيغضب زيداً، وهو في كل الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك.

ومن الناس من يرضى كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد ؟! وعقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقيناً بأن لا رب إلا الله يخاف ويرجى ولا إله إلا الله يجتنب سخطه ويلتمس رضاه، وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته وحطم كل الأصناف المادية والمعنوية من قبله ورضى بالله وحده رباً عليه يتوكل وإليه ينيب، وفي فضله يطمع ومن قوته يستمد وله يتودد وإليه يحتكم وبه يعتصم: **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**[3].

فإن هذا المشرك بالله الذي تعددت أربابه وتضاربت وجهاته وقد مثله القرآن الكريم بعبد له أكثر من سيد وهم فيه شركاء متشاكسون غير

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٢) الخصائص العامة للإسلام، ص١٥، بتصرف.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠١.

متوافقين؛ كل يأمره بضد ما يأمره به الآخر ويريد منه غير ما يريده؛ فهمَّه متفرق وقلبه مشتت؛ يقول تعالى: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾**[1].

وتأتي العبادات ويأتي كل ما يتصل بالشريعة؛ يأتي لسلامة النفس البشرية من التمزق والضياع حتى تسعد في الحياة.

١٣- وتبصرنا بأن الثقافة الإسلامية كما أسلفنا تسع الحياة كلها، وتجعل المسلم مذعناً للمنهج الرباني في هذه الحياة؛ مدركاً ما لهذا التصور الإسلامي في تفسير شامل للوجود ومعرفة كاملة بحقيقة الإنسان ودوره في هذا الوجود، ومن ثم يعتصم الإنسان من التناقض والتطرف، ويبرأ من التحيز والهوى، ويتحرر من العبودية لغير اللّه، ويسلم من التمزق والضياع، ويسعد في الآخرة، ولن يكون هذا إلا إذا قامت الثقافة الإسلامية على تلك الحقائق اليقينية الهادية الهادفة.. تلك الحقائق اليقينية المنبثقة من أنها: إلهية المصدر والمنهج، ربانية الغاية والوجهة.. وهكذا كان عطاء هذه الخصيصة الأولى من خصائص الثقافة الإسلامية، عطاءً يؤكد لنا معالم المنهج الرباني ويعطينا قيمه الكثيرة وضرورته للإنسان منفرداً ومجتمعاً، ويبصرنا بغاية الحياة كما يجب أن تكون.. ومن ثم كانت الخصيصة الأولى التي تنبثق منها الخصائص التالية: الثبات والتطور.

الخصيصة الثانية من خصائص الحضارة الاسلامية هي:

الثبات والتطور:

١. تصور لنا (مادة هذا الكون ثابتة الماهية.. لكنها تتحرك فتتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحور والتطور[2]. والذرة ذات نواة ثابتة تدور حولها الالكترونات في مدار ثابت وكل كوكب وكل نجم له مداره يتحرك فيه حول محوره حركة منتظمة محكومة بنظام خاص.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٩.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص٨٤ ومابعدها، بتصرف.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1] ، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[2] ، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾[3].

والحديث في هذا يطول[4].

٢. وتصور لنا إنسانية هذا الإنسان المستمدة من كونه مخلوقاً فيه نفخة من روح الله اكتسب بها إنسانيته المتميزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله (إنسانية ثابتة .. وقد بدأت الداروينية الحديثة تصحيح الداروينية القديمة فتقرر إن الإنسان مخلوق فريد من الناحية البيولوجية ومن النواحى العقلية والنفسية، كذلك وإن يتميز تميزاً تاماً عن جميع الحيوانات، وبين هذا القول وبين القول بأن إنسانية الإنسان خاصة ثابتة فيه منذ البدء خطوة وإن كان لا يزال يعز على الداروينيين أن يخطوها ! ولكن هذا النسان يمر بأطوار جنينية من النطفة إلى الشيخوخة ويمر بأطوار اجتماعية ذلك خلق الله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[5] ، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِيخَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ (٨)﴾[6].

ولكن هذه الأطوار وتلك لا تخرجه من حقيقة إنسانيته الثابتة ونوازعها وطاقاتها واستعداداتها المنبثقة من تلك الحقيقة[7].

---

(١) سورة النمل: الآية٨٨.
(٢) سورة فاطر: الآية ١٣.
(٣) سورة يس: الايات ٣٨ ، ٤٠.
(٤) انظر تفصيل ذلك في: الإسلام في عصر العلم، ص٢٦٦ ومابعدها.
(٥) سورة المؤمنون: الآيات ١٢-١٤.
(٦) سورة الانفطار: الآيات ٦-٨.
(٧) انظر منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص٤٨-٦٥.

٣. وتصور لنا نزوع الإنسان إلى الحركة لتغيير الواقع الأرضى وتطويره حقيقة ثابتة منبثقة أولاً من الطبيعة الكونية العامة الممثلة في حركة المادة الكونية الأولى وحركة سائر الأجرام في الكون، ومنبثقة ثانياً من فطرة هذا الإنسان وهي مقتضى وظيفته في خلافة الأرض، فهذه الخلافة تقتضي الحركة لتطوير الواقع الأرضي وترقيته.

أما أشكال هذه الحركة فتتنوع وتتغير وتتطور وتصور لنا ضرورة ضبط الحركة البشرية بناء على ما أدركناه من الخصيصة الأولى، فإن قيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم وهي ضبط الحركة البشرية والتطور والحيوية فلا تمشي شاردة على غير هدى، كما وقع في الحياة العادية المادية البحتة عندما انفلتت من عروة العقيدة.. فانتهت إلى تلك النهاية البائسة ذات البريق الخادع والآلاء الكاذب الذي يخفى في طياته الشقوة والحيرة والنكسة والارتكاس، وقيمته هي وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات وبكل ما يجد في حياته من ملابسات وظروف وارتباطات؛ فيزنها بهذا الميزان الثابت ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب، ومن ثم يظل دائماً في الدائرة المأمونة ولا يشرد في التيه الذي لا دليل عليه من نجم ثاقب ولا من معالم هادية في الطريق، وقيمته هي وجود (مقوم) للفكر الإنساني منضبط بذاته يمكن أن يضبط الفكر الإنساني فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات.

وإلا فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة وهي لاترجع إلى ضابط ثابت يمسك بهذا الفكر الدوار ؟ أو بهذا الواقع البشري الدوار ؟ إنها ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية والحياة البشرية أن تتحرك داخل إطار ثابت، وأن تدور حول محور لا يدور !.. إنها ضرورة لا تظهر كما تظهر اليوم. وقد تركت البشرية هذا الأصل الثابت، وأفلت زمامُها من كل ما يشدها إلى محور وأصبحت أشبه بجرم فلكي خرج من مداره وفارق محوره الذي يدور

عليه في هذا المدار ويوشك أن يصطدم فيدمر نفسه، ويصيب الكون كله بالدمار: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [1].

٤. وتصور لنا ضرورة نبذ المذاهب الهدامة المعارضة للحقائق الثابتة السابقة التي صورتها لنا هذه الخصيصة من خصائص الثقافة الإسلامية والمذهب الماركسي هو أشد المذاهب الهدامة الوضعية معارضة لحقيقة (الحركة داخل إطار ثابت)؛ لأن الاعتراف بهذه الحقيقة البارزة في طبيعة الكون المادي ذاته كما أسلفنا يفقد المذهب الماركسي ركيزته الأولى التي يقوم عليها ويحطم دعواه في (التقدمية) كما يفهمها [2].

٥. وتصور لنا الثبات والمرونة في مصادر الإسلام وأحكامه، ولهذه الحقيقة مظاهر ودلائل شتي ويتجلى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع[3]. من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسول الله ﷺ.

وتتجلى المرونة في (المصادر الاجتهادية) التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق ومقل ومكثر مثل: الإجماع، والقياس، والاستحسان والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد وطرائق الاستنباط.

وفي أحكام الشريعة[4] نجدها تنقسم قسمين: قسم يمثل الثبات والخلود وقسم يمثل المرونة والتطور.

نجد الثبات يتمثل في العقائد الأساسية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفي الأركان من الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وفي المحرمات اليقينية من السحر وقتل النفس والزنى وأكل الربا وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي: د. محمد البهي، ص٣١١ –٣١٥، وكتاب الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام، عباس محمود العقاد، وسيأتي تفصيل في بحث: الماركسية والدين.

(٣) الخصائص العامة للإسلام، ص٢٠٧ ومابعدها، بتصرف.

(٤) الخصائص العامة للإسلام، ص٢٠٧ مابعدها، بتصرف.

المؤمنات، والتولى يوم الزحف والسرقة والغيبة والنميمة مما يثبت بقطعي القرآن والسنة، وفي أمهات الفضائل من الصدق والأمانة والعفة والصبر والوفاء بالعهد والحياء وغيرها من مكارم الأخلاق التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان، وفي شرائع الإسلام القطعية في شؤون الزواج والطلاق والميراث والحدود والقصاص ونحوها من نظم الإسلام التي تثبت بنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة فهذه أمور ثابتة، ونجد في مقابل ذلك القسم الآخر الذي تتمثل فيه المرونة وهو ما يتعلق بجزيئات الأحكام وفروعها العلمية وخصوصاً في مجال السياسة الشرعية. يقول ابن القيم: الأحكام نوعان:

نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها بحسب الأزمنة والأمكنة ولا اجتهاد الأئمة؛ كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة.

ضرب لذلك عدة أمثلة من سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين ثم قال: وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجوداً وعدماً [(١)].

٦. وتصور لنا الثبات والمرونة في هدي القرآن الكريم... ويتمثل الثبات في مثل قول الله تعالى في وصف المؤمنين: **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾**[(٢)]، وفى قوله جل شأنه لرسوله ﷺ: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾**[(٣)].

فلا يجوز لحاكم ولا لمجتمع أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية ولا يحل لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون بالتسلط والجبروت.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي ١/٣٣٠– ٣٣٣.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

وتتمثل المرونة في عدم تحديد شكل معين للشورى يلتزم به الناس في كل زمان ومكان فيتضرر المجتمع بهذا التقليد الأبدي إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأمصار أو الأحوال.. ويستطيع المؤمنون في كل عصر أن ينفذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب أحوالهم وأوضاعهم، وتلائم موقفهم من التطور دون أي قيد يلزمهم بشكل جامد..

ولو حاولنا الحديث عن الثبات والمرونة في الهدي النبوي وهدي الصحابة والفقه الإسلامي لطال لنا الحديث[1].

٧. وتصور لنا المجتمع الإسلامي متوازناً اجتمعت فيه المتقابلات..[2] وأخذ كل منها مكانه بالعدل.. وهذا هو وضعه بين الثبات والتطور والثبات على الأصول والأهداف والتطور في الفرعيات والأساليب مجتمع ثابت متحرك في آن واحد.

إنه أشبه بالنهر الجارى المتدفق الذي لا يقف عن الحركة والتجدد والجريان ولكن في مجرى مرسوم واتجاه معلوم ولغاية معروفة.

٨. وتصور لنا الحكمة في ذلك لأن المجتمع الإسلامي إذا اتخذ الثبات المطلق مبدأ له في كل الأمور: الدينية والدنيوية.. المعنوية والمادية.. الكلية والجزئية.. الأصلية والفرعية، وثبت على الوسائل ثباته على الأهداف تجمدت الحياة وتحجرت ولم يستفد الناس من الملاحظة والتجربة التي هى أساس العلم الكوني، وهي أمر واقعي حتمي في حياتهم، وهذا ضد قوانين الكون وضد قوانين الفطرة.

كما أنه لو اتخذ المرونة مبدأ له وشعاراً لحياته لتطور على طول الزمن إلى مجتمع بلا قيم ولا ضوابط وأفلت زمامه من التصور الإسلامي، أو يصبح التطور الإسلامي خاضعاً لظروفه وتابعاً لحياته يستقيم إذا استقامت وينحرف إذا انحرفت، والمفروض كما أسلفنا أن يحكم الدين الحياة لا أن تحكمه لمثله ومبادئه لا أن تخضعه لواقعتها وهبوطها.

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، ص٢١٠ ومابعدها.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٢-٢٤٤ بتصرف.

ولولا أن المجتمع المسلم في أفكاره ومفاهيمه وأخلاقه ومثله وتقاليده وشرائعه للتطور المطلق وفقاً لبيئة العصر والأحوال الطارئة؛ لفقد هذا المجتمع وحدته وأصبح في كل قطر مجتمع مغاير للمجتمعات المنتسبة إلى الإسلام في أقطار أخرى، فلا توجد الأمة الواحدة التى أرادها الله؛ وإنما توجد أمم ومجتمعات متناقضة متباينة كما يريد أعداء الإسلام.

٩. وتصور لنا نعمة الله على المجتمع الإسلامي الذي حفظ له الإسلام توازنه بين الثبات والتطور، حين ننظر إلى مجتمعات أخرى كالمجتمعات الغربية اليوم كيف فتحت الباب على مصراعيه للتطور المطلق في كل شئ، فلم يبق في حياتها شئ ثابت تستند إليه وترتكز عليه، فلا عقيدة ولا فضيلة ولا تشريع ولا أي قيمة من القيم العليا التي ورثتها الإنسانية من كتب السماء وتعلمتها على أيدي الهداة من رسل الله، وورثتهم بحق وكانت ثمرة هذا التطرف اضطراب الحياة كلها: من قلق نفسي.. إلى تخبط فكري.. إلى تحلل خلقي.. إلى تفسخ أسري.. إلى تفكك اجتماعي، وقد قابل هذا التطرف تطرف مضاد يتمثل في أولئك الشباب الذين رفضوا تطور مجتمعهم إلى ما صار إليه من مادية؛ فاختاروا حياة غربية شاذة هي حياة (الهيبين) ومن على شاكلتهم والتطرف لا ينتج إلا تطرفاً مثله.

١٠. وتحذرنا من خطر محدق.. حين نجمد ما من شأنه التغير والتطور والحركة فتصاب الحياة بالعقم والجمود وتصبح كالماء الراكد الآسن الذي يجعله الركود مرتعاً للجراثيم والميكروبات، وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هدي الإسلام الصحيح، فرأينا كيف توقف الاجتهاد في الفقه وتوقف الإبداع في العلم، وتوقفت الأصالة في الأدب، وتوقف الابتكار وتوقف الافتنان في الحرب، وضربت الحياة بالخمود والتقليد في كل شئ، وأصبح المثل الذي يعبر عن وجهة النظر السائدة (ما ترك الأوائل للأواخر شيئاً) على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة، التي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي والثقافة الإسلامية، تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تنمو وتتقدم ثم تزحف غازية مستعمرة والمسلمون في غمرة ساهون.

١١.وتحذرنا كذلك من خطر محدق آخر وهو أن يخضع المجتمع الإسلامي للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث أن فئة من ابناء المسلمين يريدون خلع الأمة من دينها وعزلها من تراثها كله باسم التطور.. !.

يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة والانسلاخ من الشريعة والتحلل من الفضيلة! كل ذلك باسم الصنم الجديد (التطور)، إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب من عقائد وأفكار وقيم وموازين وأنظمة وتقاليد ومثل وأخلاق، وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبها.. لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا، أما أن يصبح الدين خاضعاً لمتطلبات الحياة وظروفها يستقيم إذا استقامت ويعوج إذا اعوجت فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان.

إن الإصطلاح الحقيقي هو أن نتفهم جيداً ما يجب أن يتطور من شئون الحياة؛ فنبذل جهدنا لتطويره وتحسينه، بمنطق الحكماء الشجعان، لا الأغرار المقلدين.

كما نعرف ما يجب أن يبقي ثابتاً راسياً، من القيم والأفكار والعقائد والأخلاق والآداب والشرائع، التي تزول الجبال الشم ولا هي تزول.. بهذا الموقف الحكيم نواجه التطور ونوجهه فنفوز بالحسنيين ونربح الدنيا ولا نخسر، ونظفر برضوان الله وإعجاب العقلاء من الناس.

الخصيصة الثالثة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

الشمول :

١. تصور لنا شمول العقيدة من أي جانب نظرنا إليها.. باعتبار إنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود... القضايا التي شغلت الفكر الإنساني ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال.. وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل

المتضاربة قديماً وحديثاً .. قضية الألوهية.. قضية الكون... قضية الإنسان... قضية النبوة .. قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تعني بقضية الإنسان دون قضية الألوهية، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح[1] .

وإن العقيدة في نظام الإسلام كما يتجلى ذلك في القرآن والسنة النبوية[2] تتصل بجميع أجزاء النظام، فهي الأساس الذي تبني عليه نظرته أو نظامه الخلقي، وهي التي تكون الأساس الفكري لعقلية المسلم، والأساس النفسي لسلوكه، ومنها كذلك تنبثق نظرته إلى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية وعلى أساس فلسفتها يبنى نظامها.

وخلاصة الأمر إن مضمون العقيدة له تأثير كبير في الحياة الإسلامية سواء الفردية أم الجماعية. ويلاحظ أنها تتخلل جميع سور القرآن بلا استثناء وأنها تتخلل جميع أحكامه الأخلاقية والتشريعية فلا تستطيع أن تعزل قواعد التنظيم الحقوقي الاجتماعي الموجودة في القرآن عن هذا العنصر الإيماني الذي يتخللها ويحيط بها.

نعم إنه يمكنك أن تجرد هذه القواعد الحقوقية لكنك تكون قد عطلت الجهاز المتحرك عن حركته، وأفقدته روحه وحيويته وقطعت شرايينه وأعصابه، وأصبح قطعة مفصولة عن أصلها للتحليل والتشريح لا آلة فعالة من جهاز كبير يعمل.

على أساس هذه النظرية نضع العقيدة في موضعها من نظام الإسلام وهي اللبنة الأساسية في بنائه، وهي التي تمد ما في أجزائه بالحياة وتحدد اتجاهاتها ومعالمها وتتضمن العقيدة الحقائق الكبرى التي دعا القرآن إلى الإيمان بها، أو

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد، ص١٠٣، والمرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨ ومنهج الفن الإسلامي: ص١٦٤-١٦٧.

(٢) نظام الإسلام: العقيدة والعبادة: محمد المبارك، ص١٨، بتصرف.

التي وجه الإنسان وأرشده إليها، وهي تصور الوجود، وجود الله الخالق ووجود الكون والإنسان، والصلة بين الله والكون والإنسان، وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى، أو المصير والجزاء والنبوة التي هي طريق معرفة هذه الحقائق الكبرى.

٢. وتصور لنا شمول العبادة من أي جانب نظرنا إليها: حتى تستوعب الكيان البشري كله، لا يعبد إلا الله بلسانه فحسب أو ببدنه فقط أو بقلبه لا غير أو بعقله مجرداً أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها: بلسانه ذاكراً داعياً تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً راجياً محباً متوكلاً، وبعقله متفكراً متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه، ومن ثم تتسع للحياة كلها فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد الناس[1].

٣. وتصور لنا أثر شمول العقيدة والعبادة في النفس البشرية بما يمنح العقل راحة والقلب طمأنينة والنفس أُنساً والروح سعادة، ومن ثم يكون الاتصال بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود كما هي في عالم الحقيقة والواقع[2]، فضلاً عن العنصر الأخلاقي الذي ينشئه هذا التصور ويثبته في القلب البشري وفي الحياة البشرية، ومن ثم تتكون من مجموعة الحقائق التي يتناولها هذا التصور ويثبته في القلب البشري وفي الحياة البشرية، ومن ثم تتكون من مجموعة من الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شمول وسعة وتفصيل صورة كاملة شاملة.. ويتكون تفسير جامع مفصل لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر، ومن ثم ينبثق من هذه الحقائق شمول في مخاطبة الكينونة البشرية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها حتى ترد إلى جهة واحدة تتعامل معها في كل ما يتصل بشئونها وأحوالها.

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، ص١٠٩-١١١.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١١٣ ومابعدها، بتصرف.

والكينونة الإنسانية حين تكون في الوضع الذي يطابق (الحقيقة) في كل مجالاتها تكون في أوج قوتها الذاتية، وفي أوج تناسقها كذلك مع (حقيقة) هذا الكون الذي تعيش فيه وتتعامل معه ومع (حقيقة) كل شئ في هذا الوجود مما تؤثر فيه وتتأثر بها، وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار، وأن تؤدي أعظم الأدوار.

٤. وتصور لنا واقع هذا التصور حياً في دنيا الناس حينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل، صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني، وفي كيان التاريخ الإنساني؛ حتى تسير الأمة على خطى هذه المجموعة المختارة، وهذا أمر لابد كائن بإذن الله.. مهما يكن في الطريق من العراقيل ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم؛ لأنها من صميم قوة هذا الكون وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون، وحتى يصبح النشاط الإنساني حركة واحدة متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني العبادة.. العبادة التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شئون الحياة..

٥. وتصور لنا التجمع النفسي والحركي ميزة كبرى من مميزات التصور الإسلامي؛ بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التي تواجه النفس البشرية في الكون كله، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني، ففي الإسلام وحده يملك الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض وفي تدبير أمر الرزق، ولا يطلب منه هذا إلا أمراً واحداً هو أن يخلص العبودية لله في الشعائر التعبدية وفي الحركة العملية على سواء، وأن يتوجه إلى الله بكل حركة وكل خلجة وكل عمل وكل نية وكل نشاط وكل اتجاه؛ مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة التي تشمل كل طيبات الحياة، والله خلق الإنسان بكل طاقته لتنشط كلها وتعمل وتؤدي دورها، ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة يحقق الإنسان

غاية وجوده في راحة ويسر وفي طمأنينة وسلام وفي حرية كاملة منشؤها العبودية للّه وحده.

٦. وتصور لنا الدين القيم منهجاً شاملاً متكاملاً.. يشمل الاعتقاد في الضمير والتنظيم في الحياة بدون تعارض بينهما، بل في ترابط وتداخل يعز فصله بحال.. لأنه تجمع تظله الوحدة في كل مايتصل به كما أسلفنا؛ ولأن فصله أيضاً هو تمزيق وإفساد لهذا الدين القيم.

ويطيب لنا أن نذكر ما قاله الأستاذ محمد أسد (ليو بولد فايس) في الفرق بين التصور الإسلامي والتصورات الأخرى في هذا الشأن، وأثر ذلك التصور في الشعور بجدية الحياة وأهمية كل حركة فيها، باعتباره الوسيلة الوحيدة لبلوغ الإنسان أقصي درجات الكمال الإنساني في هذه الحياة الدنيا، في فصل بعنوان (سبيل الإسلام)[1]، (يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في دين آخر.. إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً، وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم (عبادة اللّه) فليزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموعة مظاهرها كلها على أنها تبعية أدبية متعددة النواحي، وهكذا يجب أن تأتي أعمالنا كلها حتى تلك التي تظهر تافهة على أنها عبادات وأن نأتيها بوعي، وعلى أن تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج الشامل الذي أبدعه اللّه .. تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد.. ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تحقق المثل العليا في الوجود الواقع ؟

موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل.. إنه يعلمنا أولاً أن عبادة اللّه الدائمة والممثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة؛ جميعها هي معنى الحياة نفسها.. ويعلمنا ثانياً أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الروحية.. وحياتنا المادية، يجب أن تقترن هاتان

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٢١ –٢٣ بتصرف.

الحياتان في وعينا وفي أعمالنا لتكون (كلاً) واحداً متسقاً .. إن فكرتنا عن وحدانية اللّه يجب أن تتجلى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.. هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة، ذلك إن الاسلام على أنه تعليم لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضاً بمثل هذا التوكيد على الأقل للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية.

إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدفة عادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للآخرة التي هي آتية لا ريب فيها، من غير أن تكون منطوية على معني ما. ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها، والحق (وحدة) لا في جوهره فحسب بل في الغاية أيضاً، من أجل ذلك كان خلقه (وحدة) في الغاية بكل تأكيد، وعبادة اللّه في أوسع معانيها كما شرحنا آنفا تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية.

هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا..

إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات (الجسدية)، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة كما هو الحال في الهندوكية، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقتهما الشعورية من العالم.. كلا، إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية.. وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته هو.

٧. وتصور لنا عالمية الإسلام، وأنه رسالة الزمن كله وأن الأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام ونادوا بالتوحيد واجتناب الطاغوت: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن**

رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[2]. وكل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون ودعوا إلى الإسلام. فنوح عليه السلام قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[4]. ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب عليهما السلام فقالا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[5]، يوسف عليه السلام دعا ربه فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[6]، وموسي عليه السلام قال: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[7]، وسحرة فرعون حين آمنوا قالوا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[8]، وسليمان عليه السلام بعث لبلقيس: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[9]، والحواريون قالوا لعيسي عليه السلام: ﴿آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[10]. إنها إذن في جوهرها رسالة كله ورسالة العالم كله؛ إنها الرسالة الشاملة الكاملة العامة الخالدة تخاطب كل الأمم وكل الأجناس وكل الشعوب وكل الطبقات، وخاصة الشعب الذي يزعم أنه وحده شعب الله المختار، وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[11]. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[12].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.
(٢) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٣) سورة يونس: الآية ٧٢.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٨.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٦) سورة يوسف: الآية ١٠١.
(٧) سورة يونس: الآية ٨٤.
(٨) سورة الأعراف: الآية ١٢٦.
(٩) سورة النمل: الآية ٣١.
(١٠) سورة آل عمران: الآية ٥٢.
(١١) سورة الفرقان: الآية ١.
(١٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

إنها هداية رب الناس لكل الناس[1]، وفي تقرير وحدة الثقافة الإسلامية المترابطة المتناسقة وإقامتها والنهي عن تمزيقها نقرأ: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[2].

وهنا نرى الموكب الطهور ينتظم في القرآن الكريم، ويتلاحق في قطرة كقطرات الماء الزاخرة في البحر الطهور، ونرى الرحمة الشاملة التي آخت بين بني الإنسان، ونحن نبصر عالمية الرسالة وإن الناس في حاجة ماسة إلى دعوة عالمية شاملة كاملة؛ تحترم قيمة الإنسان وتقدر كرامته وتحوطه بسياج اليقين وتطبعه على البر والرحمة؛ في حاجة ماسة إلى دعوة عالمية تبدد ظلام الخوف وتحقيق أسباب السلم وتقيم دعائم الأخوة؛ في حاجة ماسة إلى دعوة عالمية تأخذ بيد الإنسان إلى مدارج الكمال والرقي؛ ليحيا منفعلاً بحقائق الكون وأسرار الوجود، إن ميراث الرسالة العالمية الشاملة الكاملة ملك الناس جميعا على سواء، وحق القيام على تبليغ هذه الدعوة - واجب الدعوة- واجب على كل من تبلغه: **﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾** وإذا افتخرت أمة من الأمم بأن نبياً منها فلتفتخر الأمم كلها بأن خاتم النبيين لها: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾**[3].

وفي تقرير وحدة الثقافة الإسلامية المترابطة المتناسقة، وإقامتها والنهي عن تمزيقها نقرأ: **﴿شَرَعَ لَكُم من الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾**[4].

وفي كشف دعاة التفرق والتمزيق وفضح نواياهم الخبيثة الحاقدة وأساليبهم التي تحركها أهواؤهم الفاسدة نقرأ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾**[5]، **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ**

---

(١) انظر: كتاب الدعوة الإسلامية دعوة عالمية: محمد الرواي.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٤) سورة الشورى: الآية ١٣.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥٩.

كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

٨. وتصور لنا شمول الثقافة الإسلامية (لأطوار حياة الإنسان كلها.. أنى اتجه وأنى سار .. تصحبه طفلاً ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يسعده.

وهنا نبصر أحكاماً وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده؛ مثل الآذان في أذنه واختيار اسم حسن له وذبح عقيقة عنه شكرا للّه، وغير ذلك مما ضمنه الإمام ابن القيم كتاباً مستقلاً سماه (تحفة المودود في أحكام المولود).

وتبصر أحكاماً تتعلق بأوضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه، ومن يرضعه وعلى من تكون نفقة المرضع أو أجرتها؛ وخصوصاً عند الطلاق وانفصال أم الرضيع عن أبيه؛ فهنا ينزل القرآن موضحاً مفصلاً كل ذلك فيقول: **﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[2].

وبعد ذلك نجد أحكاماً تتعلق بالإنسان صبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً، فلا توجد مرحلة من حياته دون أن يكون للإسلام فيها توجيه وتشريع، وأكثر من ذلك إنها تعني بالإنسان قبل أن يولد وبالإنسان بعد مماته، ولا غرو أن وجدنا في الإسلام أحكاماً تتعلق بالجنين وأخرى ما يشمله كتاب الجنائز.

٩. وتصور لنا شمول الأخلاق في الإسلام لكل جوانب الحياة روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية عقلية أو عاطفية فردية أو اجتماعية؛ حيث رسمت المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، وأوضحت العلاقة بين الإنسان والكون كما

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

أسلفنا، وقبل ذلك كله وفوقه ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد فهو وحده الحقيق بأن يحمد، أن يعبد ويستعان وأن تطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم، ومن هنا كان على المسلم أن يردد الفاتحة سبع عشرة مرة على الحد الأدنى في كل يوم وليلة، وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن.

وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية من حيث موضوعها ومحتواها، ولكن الشمول في الأخلاق الإسلامية يبدو كذلك إذا نظر إلى فلسفتها ومصدر الإلزام بها.

لقد شاء اللّه للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة؛ فهو هداية اللّه للناس كافة من كل الأمم وكل الطبقات وكل الأفراد وكل الأجيال.

والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم ودرجات اهتمامهم، ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية في الإسلام ما فرقته الطوائف الدينية والمذاهب الفلسفية، مثالية وواقعية في نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلقي، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلاً كما لم يكن كله حقاً، إنما كان عيب كل نظرية في قضية ما نظراً يستوعب كل الأزمنة والأمكنة وكل الأجناس والأشخاص وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله حكيم، فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام جامعة محيطة مستوعبة لأنها ليست نظرية بشر، بل هي وحي من أحاط بكل شئ علماً وأحصى كل شئ عدداً.

لهذا أودع اللّه في هذا الدين ما يشبع كل نهمة (معتدلة) وما يقنع كل ذي وجهة (معتدلة) ويلائم كل تطور (معتدل)، فمن كان مثالياً ينزع إلى الخير لذات الخير وجد في أخلاقيات الإسلام ما يرضي مثاليته، ومن كان يؤمن بمقياس السعادة وجد في الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة فردية أو اجتماعية وجد الإسلام ما يرضي نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقي إلى الكمال وجد ما يحقق طلبته.. ومن كان همه التكيف مع المجتمع وجد ما يلائم اجتماعيته حتى الذي يؤمن

بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة من نعيم مادي ومتاع حسي.

وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التي تحبها، وتجد كل نفس الأمنية التي تهفو إليها وفق المنهج الرباني الذي يصلح الحياة وغني عن البيان شمول التشريع وشمول الالتزام.

الخصيصة الرابعة من خصائص الحضارة الإسلامية هي الإيجابية:

١- تصور لنا الإيجابية التي ينشئها شمول العقيدة والعبادة في النفس البشرية وفق ما سبق[١]، واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الإنسان وفي حياته[٢] يتوقف عليه كل شئ في أمر العقيدة، كما أنه هو الذي يمد الحياة البشرية بكافة المشاعر الأخلاقية بواعثها وموازينها والسلطان القائم عليها.

إن هذه الإيجابية هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة والعقيدة الصورية السلبية، وشمول هذه الإيجابية وتوحدها هو مفرق الطريق كذلك بين التجمع في الكينونة الإنسانية والنشاط الإنساني والتمزق في هذه الكينونة ونشاطها الحيوى[٣]، والقرآن كله معرض هذه (الإيجابية) وهي أساس التصور الإسلامي بعد التوحيد، وهي التي تتجلى فيها حقيقة التوحيد فالتوحيد الإسلامي يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير[٤].

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الجماعة المسلمة الأولى هو الذى أنشأ هذه المجموعة الفريدة الممتازة في تاريخ البشرية كله على الإطلاق وبدون استثناء، فقد عاشوا هذه الحقيقة؛ عاشوها حية في نفوسهم؛ عاشوها ليل نهار وصباح ومساء؛ عاشوها كما يعيشون حياتهم اليومية الواقعية؛ عاشوها مع الله يحسون وجوده في نفوسهم وفي حياتهم أعمق من حس اللمس والرؤية؛ عاشوا في كنفه وفي رعايته؛ وعاشوا في طاعته وفي رقابته؛ والتمسوا قدرته

(١) انظر رقم (٣) في الخصيصة الثالثة (الشمول).
(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١٧٥-١٨٢ بتصرف.
(٣) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص٤٠-٤١.
(٤) انظر: الله، عباس محمود العقاد، ص١٨٨.

تتدخل تدخلاً مباشراً في الصغير والكبير من أمورهم، وتتقل خطاهم وترقبها وترشدهم وتعقب عليهم في الصغيرة وفي الكبيرة، ومن ثم كانوا هذا الذي كانوا من الحساسية والطمأنينة معاً، ومن اليقظة والراحة معاً، ومن الخضوع لله والاستعلاء على أعداء الله معاً، ومن ثم صنع الله بهم في هذه الأرض ما صنع من الصلاح والعمارة ومن الرفعة والطهارة مما لم يسبق ولم يلحق في تاريخ بني الإنسان.

بهذه العقيدة الشاملة الإيجابية[1] غلب المسلمون أقوياء الأرض ثم صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين.

وهذه العقيدة الشاملة الإيجابية هي التي أفردت الإسلام بمزية لم تعهد في دين آخر من الأديان الكتابية، فإن تاريخ التحول إلى هذه الأديان لم يسجل قط تحولاً إجماعياً إليها من دين كتابي آخر بمحض الرضى والاقتناع إذ، كان المتحولون إلى المسيحية أو إلى اليهودية قبلها في أول نشأتها أمماً وثنية لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الإله الخالق المحيط بكل شئ، ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها للتحول إلى دين كتابي غير الإسلام؛ وإنما تفرد الإسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية فتحولت إليه الشعوب فيما بين النهرين وفي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وفارس، وتحول إليه أناس من أهل الأندلس وصقلية كما تحول إليه أناس من أهل النوبة الذين عبروا على المسيحية أكثر من مائتي سنة ورغبهم الأقوام والأوطان، ويحقق المصدر الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع. وإبراز هذه المزية (مزية العقيدة الإسلامية) التي أعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود هو الذي نستعين به على النظر في مصير الإسلام بين هاتين الحالتين، ونريد بها حالة القوي الغالب وحالة الضعيف الذي لم يسلبه الضعف قوة الصمود للأقوياء إلى أن يحين الحين وتتبدل بين حالتي الغالب

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص٤٣-٤٤ بتصرف.

والمغلوب حالته التي يرجوها لغده المأمول، ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين في مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الإنسانية في جملتها وللعالم الإنساني في جملته ليكونن المصير في الغد المأمول أكرم ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول.

٢- وتصور لنا الإيجابية في علاقة المؤمن بالله ورسوله وعقيدته والمؤمنين مما يطول الحديث فيه، وحسبنا أن نبصر الحب مظلة تظل المجتمع الإسلامي حب الله ورسوله وحب الإيمان وحب المؤمنين.

يروى الشيخان عن أنس ﵁ ان رسول الله ﷺ قال: [**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**].

وفي رواية: [**لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**].

وفي أخرى: [**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**][1].

ونبصر الترابط والتآلف والتعاون بين المؤمن وأخيه المؤمن.

يروي أحمد بسند صحيح عن سهل بن سعد ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

[**المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس**].

ويروي الدارقطني في الإفراد والضياء بسندٍ حسنٍ عن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: [**المؤمن يألفُ ويُؤلفُ ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس انفعهم للناس**][2].

ومن ثم نبصر المسلمين كرجل واحد، فيما يرويه مسلم عن النعمان بن بشير ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٩-١٠.

(٢) الجامع الصغير، ٢/٥٧٠.

[المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله][1].

ونبصر المؤمن مرآة المؤمن وأخاً له وفياً متعاوناً معه فيما يرويه البخاري في الأدب وأبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **[المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه]**[2].

والحديث عن الحب الإيجابي بهذه الصورة ذو شجون وشؤون يطول الحديث فيها، وتغمرنا نشوة يعجز البيان عن تصويرها ونحن في هذه الرحاب، إن الذي يستطيع أن يحب هذا الحب الإيجابي صنف واحد من بني الإنسان؛ إنه الصنف الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، والإيمان وحده ينبوع الحب الإيجابي المصفى الخالد، والمؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يحب هذا الحب الكبير، إن الحب معنى أخض من الرضا، وأعمق أثراً. فقد يرضى الإنسان بالشئ أو يرضى عن الشخص، ولا يفضى ذلك إلى حب وتعلق القلب به فإن ذلك شأن الحب لا شأن الرضا، الحب هو روح الوجود وأكسير القلوب وصمام الأمان لبني الإنسان، إذا كان قانون الجاذبية يمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذي يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق وتستحيل إلى دماء، هذا هو الحب الذي عرف الناس قيمته في القديم والحديث[3]، هذا هو الحب في صورته الإيجابية.

٣- وتصور لنا الإيجابية في مواجهة المنكر، ومخالطة الناس والصبر على أذاهم، وهذا تصحيح لما ترامى ويترامي إلى وهم البعض أن مواجهة المنكر ومخالطة الناس والصبر على أذاهم أمور لا قبل لهم بها ولا عليهم ما داموا كما يقولون صالحين في أنفسهم منعزلين عن الناس، وأنهم بهذا يستندون إلى قول الحق تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[4].

---

(١) صحيح مسلم، ٢٠٠٠/٤

(٢) صحيح الجامع الصغير، ٦/٦.

(٣) انظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الندوى، ص٢٨٦ ومابعدها، والإيمان والحياة: د. القرضاوى، ص١٧٠-١٩١.

(٤) سورة المائدة: الآية١٠٥.

وهذا فهم خاطئ استند إليه هؤلاء الضعاف ليعفيهم من تبعة الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنته وبلائه! ولقد صحح الخليفة الأول هذا الفهم الخاطئ فيما رواه ابن ماجه والترمزى وصححه عن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا أيها الناس! إنكم تقرءون هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

[إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه] وفي رواية أبي داود: **(إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)** وفي أخرى: **(ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب)**[1].

وهكذا صحح الخليفة الأول رضى الله عنه هذا الفهم الخاطئ عند هؤلاء الذين يضعون هذا الآية على غير موضعها وما أكثرهم في كل زمان ومكان، وقد[2] فاتهم أن الإيجابية المتفاعلة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، من سمات التصور الإسلامي الصحيح يروي أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **[من رآى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان]**[3].

ويروي أحمد والبخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **[المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم]**[4].

٤- وتصور لنا الإيجابية في العلاقات الدولية التي تجعل حالة السلم هي الحالة الثابتة التي (لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده أو خوف[5] الخيانة بعد المعاهدة وهي تهديد بالاعتداء أو الوقوف بالقوة في وجه حرية

(١) مشكاة المصابيح: الخطيب التبريزي، ١٤٢٢/٣ وسنده صحيح.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ١٠٩/٢، والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع مختصر شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي، ١٣٤/١٨.
(٣) الجامع الصغير، ٥٢٠/٢.
(٤) المرجع السابق، ٥٧١.
(٥) في ظلال القرآن، ٢٥٤٥/٦ بتصرف.

الدعوة وحرية الاعتقاد وهو كذلك اعتداء، وفيما عدا هذا فالسلم والمودة والعدل للناس أجمعين: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ❁إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**.

إن هذه الإيجابية هي القاعدة التي تنبثق من التصور الإسلامي؛ الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هي قضية هذه العقيدة دون غيرها، ويجعل القيمة التي يقاتل دونها المؤمن هي قضية هذه العقيدة وحدها، فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد وتحقيق منهج الله في الأرض وإعلاء كلمة الله، إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله، فلا خصومة على مصلحة ولا جهاد في عصبية، أي عصبية من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب؛ إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ولتكون عقيدته هي المنهج المطبق في الحياة. والإسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ولا يأذن به لغاية أكبر من المهادنة والموادعة.. إن السلام هو غاية الإسلام كما تقرر في آيات أخرى كثيرة في القرآن ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغي ولا عدوان) [1].

٥- وتصور لنا معالم الطريق إلى تحقيق هذه الإيجابية في واقع الحياة عسى أن تدب الحياة من جديد في جسد هذه الأمة انطلاقاً من أن التصور الإسلامي ليس تصوراً سلبياً يعيش في عالم الضمير[2] قانعاً بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية أو روحانية، إنما هو (تصميم) لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم، وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته إلا باعتباره حافزاً لا يهدأ لتحقيق ذاته. هذا ما يثيره التصور الإسلامي فى شعور المسلم.. ومن ثم يجد دائماً هاتفاً مُلحاً في أعماقه يهيب به إلى تحقيق هذا

---

(١) المرجع السابق، ٢٤٢٦/٤ انظر كتاب: السلام العالمي والإسلام، سيد قطب.
(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١٨٣، بتصرف.

التصور في دنيا الواقع، ويؤرقه حتى يهب للعمل ويفرغ طاقته الإيمانية كلها في هذا العمل الإيجابي البناء، وفي إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس.. وحيثما ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمنون ذكر العمل الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان[1]، فليس الأمر مجرد مشاعر إنما هو مشاعر تفرغ في حركة لإنشاء واقع وفق (التصميم) الإسلامي للحياة أو وفق التصور الإسلامي للحياة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2].

ومن ثم يستشعر المسلم أن وجوده على الأرض ليس فلتة عابرة إنما[3] هو قدر مقدور مرسوم له طريقه ووجهته وغاية وجوده، وأن وجوده على الأرض يقتضيه حركة وعملاً إيجابياً في ذات نفسه، وفي الآخرين من حوله وفي هذه الأرض التي هو مستخلف فيها، وفي هذا الكون المحسوب حسابه في تصميمه وأنه لا يبلغ شكر نعمة الله عليه بالوجود ونعمة الله عليه بالإيمان، ولا يطمع في النجاة من حساب الله وعذابه إلا بأن يؤدي دوره الإيجابي في خلافة الأرض، وفي شرع الله ومنهجه وتطبيق هذا المنهج في حياته وفي حياة غيره والجهاد لدفع الفساد عن هذه الأرض، والفساد في الأرض إنما ينشأ عن عدم تطبيق منهج الله في عالم الواقع ودنيا الناس وحياة الجماعات، وأن وزر هذا الفساد حين يقع واقع على عاتقه هو ما لم يؤد الشهادة لله في نفسه وفي غيره وفي الأرض كلها من حوله، وتصور المسلم للأمر على هذا النحو لا جرم يرفع من قيمته في نظر نفسه، كما يرفع اهتمامه بقدر ما يشعره بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه وبثقل العبء الذي يحمل ويكدح فيه حتى يلاقي الله ربه وقد أدى الأمانة وأدى الشهادة ووفى بحق النعمة فيما يملك من الطاقة وطمع في النجاة من عذاب الله وزحزح عن النار.

---

(١) انظر: العمل والعمل بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة، ص٢٥ ومابعدها.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٥.

(٣) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١٨٩، بتصرف.

الخصيصة الخامسة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

التوازن:

١- تصور لنا (التوازن) بين الجانب الذي تتلقاه الكينونة الإنسانية لتدركه وتسلم به[١] وينتهي عملها فيه عند التسليم[٢]، والجانب الذي تتلقاه لتدركه وتبحث حججه وبراهينه وتحاول معرفة علله وغاياته وتفكر في مقتضاياته العملية، وتطبقها في حياتها الواقعية والفطرة الإنسانية تستريح لهذا ولهذا؛ لأن كليهما يلبي فيها جانباً أصيلاً مودعاً فيها من غيب لا تحيط به الأفهام ولا تراه الأبصار، ومكشوف تجول فيه العقول وتتدبره القلوب، ومن مجال أوسع من إدراكها تستشعر إزاء جلال الخالق الكبير.. ومجال يعمل فيه إدراكها وتستشعر إزاءه قيمة الإنسان في الكون وكرامته وتتوازن الكينونة الإنسانية بهذا وذاك في يقين وخضوع وإيمان وخشوع.

٢- وتصور لنا التوازن في الكون كله[٣]، الليل والنهار والظلام والنور والحرارة والبرودة والماء واليابس، والمقابلات كلها بقدر وميزان وحساب لا يطغي شئ منها على مقابله، ولا يخرج من حده المقدر له، وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح كل منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه دون أن يصدم غيره أو يخرج عن دائرته:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٤].

﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[٥].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٦]. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[٧]

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١]

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٤ –١٣٧ بتصرف وانظر مقدمة المنقذ من الضلال، الغزالي، تحقيق د. عبد الحليم محمود.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، ٣٩/١ – ٤٠.

(٣) الخصائص العامة للإسلام، ص١٢٠.

(٤) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٥) سورة الملك: الآية ٣.

(٦) سورة الفرقان: الأية ٢.

(٧) سورة السجدة: الآية ٧.

(١) سورة النمل: الآية ٨٨.

إن تركيب هذا الكون وتركيب كل شئ فيه يظهر التدقيق الذى يعجز البشر عن تتبع مظاهره. في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير. وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لهذه الحقيقة يقول (كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) والذي عرف بعد الترجمة باسم (العلم يدعو إلى الإيمان)[1] .

ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل بالغاً هذه الدقة الفائقة؛ لأنه لو كانت قشرة الأرض اسمك مما هي عليه بمقدر بضعة أقدام لامتص أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية. وكان في إمكانها أن تشعل كل شئ قابل للاحتراق ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة، أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً إرباً من مجرد حرارة مروره. إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائى التي يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر ومعظمها سام، فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء أي المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنبات وأخيراً الإنسان نفسه[1] .

---

(١) ترجمة محمود صالح الفكي.

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥/٢٥٤٨ – ٢٥٥٠، وانظر التعادلية: توفيق الحكيم، ص١٠-١١، وانظر: الخصائص العامة للإسلام، ص١٢٠-١٢١، وانظر: الله والعلم الحديث، عبد الرازق نوفل، ص ٤٦- ١٠٢.

٣- وتصور لنا التوازن بين الروحية والمادية بين الدين والدنيا فقد وجدت في التاريخ جماعات ووجد أفراد[1] كل همهم إشباع الجانب المادي في الإنسان وعمارة الجانب المادي في الحياة دون التفات إلى الجوانب الأخرى: **﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾**[2].

وهذه النزعة المغالية في المادية وفي قيمة الدنيا، جديرة بأن تولد الترف والطغيان والتكالب على متاع الحياة والغرور والاستكبار عند النعمة واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحاً فيما قصه الله علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالاً ولا للآخرة حساباً ولا للروح مكاناً.

فهذا صاحب الجنتين يفخر على صاحبه منتفخاً بثروته ومختالاً بجنته قائلا: **﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾**[3].

فارسل الله على جنته حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً وأصبح ماؤها غوراً، وهذا قارون الذي أتاه الله من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة بغى على قومه واغتر بماله ونسب الفضل فيه إلى نفسه: قال تعالى: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾**[4]، فخسف الله به وبداره الأرض وهذا فرعون الذي قال: **﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾**[1]. فكانت النهاية في البحر، وغير هؤلاء من الأمم التي اترفت في الحياة الدنيا فقتلها الترف ودمرها التحلل وحقت عليها كلمة العذاب وحرمت نصر الله وعونه: **﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، ص١٣٢-١٣٦، بتصرف.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٩.
(٣) سورة الكهف: الآيات ٣٤-٣٦.
(٤) سورة القصص: الآية ٧٨.
(١) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾[1].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[2]

وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها وجد آخرون من الأفراد والجماعات؛ نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة فحرموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها وعطلوا قواهم من عمارتها والإسهام في تنميتها واكتشاف ما اودع الله فيها، عرف ذلك في برهمية الهند ومانوية فارس وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى فعزلوا جماهير غفيرة عن الحياة والتمتع بها والانتاج فيها.

وأصبح الشائع في مفهوم الناس عن الدين والتدين الحق هو الانقطاع عن العالم والتفرغ للعبادة، وأن المتدين الحق هو الذي يتبطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم ونهاره صائم، يده من الدنيا صفر وحظه من الحياة خبز الشعير ولبس المرقع واتخاذ الفلوات سكناً.

وبين هاتين النزعتين قام الإسلام يدعوا إلى التوازن والاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان وعن حقيقة الحياة كما أسلفنا، وبين إن الحياة ليست سجناً عوقب الإنسان به، ولا عبئاً فرض عليه حمله إنما هي نعمة يجب أن تشكر ورسالة يجب أن تؤدي ومزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى، يجب ألا تشغل عنها ولا تحيف عليها، والقرآن الكريم يدعو إلى العمل في الحياة والضرب في الأرض والسعي في مناكبها والاستمتاع بطيباتها بجوار الحث على الاستعداد للآخرة والتزود ليوم الحساب، وذلك بالإيمان والعبادة وحسن الصلة بالله ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٦٤-٦٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات ١١-١٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢).

ولو سأل عن الليل والنهار لكان الجواب:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (٣)

ولو سأل عن الأرض وما فيها لكان الجواب:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (٤).

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥).

ومن دعاء النبي ﷺ نقرأ ما رواه مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: **[اللهم أصلح لى ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح آخرتى التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر]**.

وفي روايه أخرى له والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **[اللهم اني اسالك الهدي والتقى والعفاف والغني]**.

وفي رواية لمسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول:(١) ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٢).

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٨٧- ٨٨.
(٢) سورة القصص : الآية ٧٧.
(٣) سورة النبأ: الآيات ١٠-١١.
(٤) سورة الملك: الآية ١٥.
(٥) سورة الجمعة: الآية ١٠.
(١) صحيح مسلم، ٢٠٧١/٤، وانظر: فتح الباري، ٤٤٧/١٣، طبعة الحلبي.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

وأخيراً نقرأ ما رواه البخاري عن أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنب وما تأخر.

فقال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: **(أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)**[1].

وأخيرا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾[2].

٤- وهكذا يكون التوازن بين الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة تتوازن فيها مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة وتتكأفا فيها الحقوق والواجبات وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاط المستقيم[3]، لقد تخبطت الفلسفات والمذاهب من قديم في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما، وقد جاء الدين المنزل من عند الله ليقيم التوازن في الحياة والقسط بين الناس كما قرر القرآن الكريم: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾**[1].

والرسالة في جوهرها واحدة[2]، ولكن اتباعها سرعان ما حرفوا وبدلوا كلمات الله ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة، حين فقدت مزيتها الأولى التي

---

(١) فتح البارى، ١١/٤-٥.
(٢) سورة الأعراف: الآيات ٣١-٣٢.
(٣) الخصائص العامة للإسلام، ص١٢٩ -١٤٤ بتصرف.
(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/٣٤٩٤

تحدثنا عنها في مقدمة هذه الخصائص وهي (الربانية)، لهذا لم نجد قبل الإسلام حلاً لهذه المشكلة فقد كان اليهود الذين تفرقوا في الأرض يؤيدون الفردية بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية: **﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾**[1].

وجاءت المسيحية تهتم بنجاة الفرد قبل كل شئ تاركه شأن المجتمع لقيصر أو على الأقل هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح عليه السلام حين قال: **أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله!**

وإذا طوينا كتاب التاريخ تأملنا صفحات الواقع فماذا نرى؟ نرى عالمنا يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي والمذهب الجماعي، نرى الرأسمالية تقوم على تقديس الفردية واعتبار الفرد هو المحور الأساسي فهي تدلّله بإعطاء حرية التملك وحرية القول وحرية التصرف وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه وإضرار غيره ما دام يستخدم (حريته الشخصية)، ومن ثم فهو يمتلك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين، ولا سلطان لأحد عليه لأنه (هو حر).

والمذاهب الاشتراكية وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حريته والإكثار من واجباته واعتبار المجتمع هو الغاية، وهو الأصل وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك (الآلة) الجبارة التي هي المجتمع، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم وإن شئت قلت: هي اللجنة العليا للحزب، وربما كانت هي زعيم الحزب فحسب هي الدكتاتور !.

إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة والمنقولات، وليس له حق المعارضة ولا حق التوجيه لسياسة بلده أو أمته، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلني أو الخفي فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد!.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦١.

ذلك هو شأن فلسفات البشر ومذاهب البشر، والجهالات التي وقع فيها البشر وموقفها من الفردية والجماعية، وهنا نتساءل: ما هو موقف الإسلام؟

لسنا في حاجة إلى أن نشير إلى إيجابية خصائص الثقافة الإسلامية التي عرضنا لها من قبل في التوازن بين الفردية والجماعية، ولا إلى تقرير حرمة الدم وحرمة العرض وحرمة المال وحرمة البيت وحرية الاعتقاد وحرية النقد وحرية الفكر وفق المنهج القويم الذي لا يتعارض مع الأصول الثابتة، فهذه حقائق يطول فيها الحديث، وحسبنا أن نشير إلى تقرير المسؤولية الفردية وتأكيدها في قول الحق جل شأنه:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]، **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**[2]، **﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾**[3].

وهذه المسؤولية تطبق على الإنسان في الدنيا والآخرة فهو في الحالتين لا يحمل وزر غيره[4]، بينما نرى التناقض واضحاً فيما يعرف بعقيدة الخطيئة الموروثة[5].

ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد[6] فقد فرض على المجتمع واجبات تكافئها، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعية وألا تكون فيها مضرة للغير وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد وغيره بسند حسن عن ابن عباس – رضى الله عنهما: **[لا ضرر ولا ضرار]**[1]، أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضار غيره، كما أن حق الفرد إذا تعارض مع حقوق الجماعة فإن الجماعة أولى بالتقديم.

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.
(٣) سورة الإسراء: الآية ١٥.
(٤) نظر: دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، ومراجعة د. السيد محمد بدوي، ص١٣٥-٢٤٢.
(٥) انظر: الإسلام على مفترق الطريق، ص٢٨، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص٧٧، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص٦٩.
(٦) الخصائص العامة للإسلام، ص١٤٤-١٤٨، بتصرف.
(١) انظر: الأحاديث الصحيحة، رقم ٢٥٠.

الخصيصة السادسة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

الصبغة الأخلاقية:

١- تصور لنا الأخلاق سمة بارزة من سمات الإسلام الذي جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، والذي اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه، وابتعاداً عنه فليست الأخلاق من السمات التي يمكن الاستغناء عنها بل هي من أصول الحياة التي يرتضيها الدين القيم ويحترم ذويها.

وحسبنا أن نبصر دائرة البعثة المحمدية ممثلة في مكارم الأخلاق وصالحها يروي البخاري في الأدب المفرد وابن سعد والحاكم وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **[إنما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق]**، وفي رواية: **(صالح الأخلاق)** [1].

٢- وتصور لنا الأخلاق سمة بارزة من سمات المسلم في الدنيا والآخرة، يروي الطبراني في الصغير بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **[أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف]** [1].

ويروي الترمزي وغيره بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خيارهم لنسائهم)**.

ويروي الترمزي وغيره بسند حسن عن جابر رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **[إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون**

---

(١) الأدب المفرد، رقم ٢٧٣، وابن سعد في الطبقات، ١/١٩٢، والحاكم ٢/٦١٣، وأحمد ٢/٣١٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق، ٦/٢٦٧/٢، وابن وهب في الجامع، ص٧٥، عن زيد بن أسلم مرفوعاً به، ومالك، ٢/٦٠٤/٨ بلاغاً، وقال ابن عبد البر: هو حديث متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

(١) الطبراني في معجمه الصغير، ص١٢٥، ومن طريقه ابو نعيم في اخبار أصبهان، ٢/٦٧.

والمتفيقهون، قالوا: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيقهون قال: المتكبرون] [1].

٣- وتصور لنا مكانة الأخلاق ونحن نقرأ وصف الحق تبارك وتعالى لخاتم النبيين وسيد الخلق أجمعين رسول الله ﷺ:﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [2]، ويعجز القلم ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب[3] الوجود وهي شهادة من الله في ميزان الله لخير خلق الله ومدلول الخلق العظيم هو ما عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين، ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواحي شتي: تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال يسجلها ضمير الكون، لمن جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها وهو يعلم من ربه هذه الكلمة ؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين، والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها.

يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ومطابقة القول للفعل ومطابقتها معاً للنية والضمير، والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات، والإعراض وإشاعة الفاحشة بأيه صورة من الصور والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء. إن هذه الأخلاق ليست فضائل مفردة إنما هي منهج متكامل تتعاون فيه التربية والتهذيبية مع الشرائع التنظيمية وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعاً.

---

(١) الترمزي، ٣٦٣/١، والخطيب في التاريخ ٦٣/٤.

(٢) سورة القلم: الآية ٤.

(٣) في ظلال القرآن، ٣٦/٥٦ –٣٦٥٧ بتصرف.

٤- وتصور لنا الصبغة الأخلاقية صبغة الحق التي شاء الحق تبارك وتعالى لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر، لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق لا تعصب فيها ولا حقد ولا أجناس ولا ألوان كما أسلفنا في حديثنا عن عالمية الرسالة، وصدق اللّه العظيم:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾[1]

الخصيصة السابعة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

الواقعية:

١. تصور لنا مراعاة واقع الكون[2] من هو حيث حقيقة واقعية ووجود مشاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ووجود أسبق وأبقى من وجوده، وجود اللّه الذي خلق كل شئ فقدره تقديراً كما سبق في حديثنا عن الربانية، وكما سيأتي فى هذا الحديث عن العقيدة الإسلامية ومصادرها، ومراعاة واقع الحياة من حيث هو مرحلة حافلة تنتهي بالموت وتمهد لحياة أخرى توفى فيها كل نفس ما كسبت، ومراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق فيه العنصر الروحي والعنصر الأرضي، كما سبق في حديثنا عن الربانية أيضاً، ومن حيث هو ذكر أو أنثي لكل منهما تكونه ونزعاته ووظيفته، ومن حيث هو عضو في مجتمع لا يستطيع أن يعيش وحده ولا أن يفني تماماً في المجتمع، من هنا لم يهمل الإسلام في توجيهاته الفكرية وفي تعليماته الأخلاقية وفي تشريعاته القانونية واقع الكون وواقع الحياة وواقع الإنسان بكل ظروفه وملابساته؛ لأن الذي يشرع للإنسان ويوجهه ويعلمه كما سبق في حديثنا عن ضرورة التلازم بين الخلق والأمر هو الذي خلق الإنسان فهو أعلم بما يصلحه وما يفسده وما يرقي به إلى درجة الكمال وما يهبط به إلى أسفل سافلين.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٢) الخصائص العام للإسلام، ص١٤٩-١٥١، بتصرف.

الفصل السادس

مصادر الحضارة الإسلامية

أولاً: مصادر الحضارة الإسلامية [*]:

١. **القرآن الكريم:** هو المصدر الأول لدراسة النظم الإسلامية والحضارة الإسلامية؛ فالقرآن الكريم هو التنزيل المحكم الذي انتظمت فيه القوانين وقدرت فيه القواعد التي انضبط بها المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية جميعاً، وفق تلك القوانين والقواعد سير المسلمون حضارتهم وفي إطارها قامت وتطورت نظمهم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

قال تعالى: **﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾** [1]، وقال تعالى: **﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾** [2].

وفيه وجد المسلمون كل ما يحتاجونه في تنظيم جوانب حياتهم؛ فالإسلام يحترم عقل الإنسان ويكرم الجانب الروحي فيه، كما يهتم بجوانب الحياة البشرية ويسمو بمبادئها تأكيداً لنص الآية الكريمة: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾** [3].

لقد هيأ الله للعقلية الإسلامية المناخ الحر للتفكير والخلق والإبداع، ومن هنا كان علماء المسلمين عربهم وأعجمهم أسودهم وأبيضهم يدعون فيما أنتجوا من فكر وأدب وسياسة واجتماع واقتصاد وفلسفة وأخلاق وفنون وفقه وأصول.

والإسلام يقصد للقوانين التي تضبط سلوك الجماعة ووقف الحرب سواء ويضمن العدالة لكل من يحيا في ظل هذا الدين مسلماً كان أو ذمياً كما

(*) انظر: كتاب الثقافة الإسلامية، دولة الكويت، ١٩٩٨م، ص٦٧-١١٠.

(١) سورة البقرة: الآيات ١-٤.

(٢) سورة الإنعام: الآية ٣٨.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

ينظم القرآن الكريم أصول المعاملات وآدابها ليظل دائماً النبع الذي يستمد منه المسلمون أساليب حياتهم وأصول نظمهم وحضاراتهم.

والإسلام كما حددت أصوله وأسسه وقواعده في القرآن الكريم، وكما ظهر تطبيقاً في سنة النبي ﷺ وصحابته والتابعين دين ودولة بلغ الرسولﷺ الرسالة كما أوحى إليه لم يكتم منها شيئاً، وعلى هديها أقام المسلمون دولة الإسلام في المدينة، ومن القرآن الكريم انبثقت كل الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي عرفتها دولة الإسلام الشابة في المدينة المنورة، فيها ولدت وترعرعت وتطورت وبذرت بذور الحضارة الإسلامية الأولى ثم عاشت على مر العصور والأجيال تشع نور الحضارة الإسلامية في كافة الآفاق.

وطبق المسلمون نظريات القرآن الكريم في الحكم والسياسية، كما طبقوها فيما يتعلق بالإدارة وتنظيمها، وانتظمت هذه الأسس وتلك القوانين والنظريات لينتقل التطبيق الإسلامي إلى خارج شبة الجزيرة العربية لتتأكد بذلك صلاحية تلك النظم والقوانين لكل زمان ومكان.

وتنفرد الحضارة الإسلامية بين كل الحضارات باستيفاء نظمها وقوانيها من القرآن الكريم، الكتاب السماوي الأوحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي سيظل دائماً المنبع الذي تنهل منه الحضارة الإسلامية حيويتها، وتجدد بالعودة إليه شبابها وقوتها كلما أحست بحاجة أو عنت لها قضية أو مسألة من قضايا ومسائل الدين والدنيا، وفي هذا يقول الرضي أن مرجع الناس في أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن اشتبه عليهم أمر من الأمور رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة، واستخاروا الله واستظهروا باجتهادهم رأياً وعملوا به، وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبي ﷺ وفتاوى الصحابة؛ خشية أن يجرهم الاعتماد على الكتب وإهمال حفظ القرآن الكريم والسنة، ولأن الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتحريف، ولما تعددت المذاهب وكثرة الأقوال والفتاوى والرجوع فيها إلى الرجال والرؤساء،

ومات أكثر الصحابة خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله فدونوا الحديث[1]، القرآن الكريم على هذا هو الأصل والمصدر تشرحه السنة النبوية الشريفة، وتوضح ما يصعب على المسلمين فهمه ومن ثم كانت السنة هي المصدر الثاني من مصادر الحضارة الإسلامية، وما قدمته من نظم فقد كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وقاضيهم وقائدهم ومعلمهم ومربيهم، وفوق هذا وذاك كان نبيهم الذى بلغهم رسالة ربه كما أوحى بها إليه.

٢- والسنة الشريفة توضح للإنسان المسلم والأمة الإسلامية جميعاً دين الإسلام، وتعمق فهم المسلمين للأصول والأسس التي وضعها الإسلام وجاء بها القرآن الكريم، لقد علم النبي ﷺ المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم، وكانت أقواله وأفعاله تطبيقاً عملياً للإسلام كما أراد لهم أن يتعلموه ويطبقوه، وكان يربي جيلاً وينشئ أمة لتعى الإسلام وتعمل به وتحافظ عليه. والرسول ﷺ كما عاش بين المسلمين كان قدوة وعلى هديه ووفق سنته سار المسلمون الأولون وتبعهم التابعون والمسلمون من بعدهم، كان قدوة في حياته الخاصة والعامة فكان في بيته الأب الرحيم والزوج المخلص، علم أهل بيته آداب الدنيا وطبقوها كما كان ينبغي لهم أن يفعلوا، وكانت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن يسهمن في تعليم المسلمين، وعلى يدي عائشة رضى الله عنها تعلم رواة الحديث في المدينة وعلموه من بعد ذلك للأجيال من أبناء الأمة الإسلامية، لقد كانت أم المؤمنين رضى الله عنها المرجع الأول في الحديث والسنة وعنها أخذ المسلمون نصف دينهم، وفيها قال الإمام الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلم جميع الناس لكان علم عائشة أفضل، وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: إن عائشة رضى الله عنها تركت أعمق الأثر في الحياة الفقهية والسياسية للمسلمين[2].

(١) انظر: محمد علي كرد، الإسلام والحضارة العربية، ج٢، ص٥.
(٢) عائشة عبد الرحمن، نساء النبي ﷺ، ص١٠٣.

وكان سلوكه ﷺ بين أصحابه وأهله تعليماً للمسلمين، فقد كان مسجده في المدينة المدرسة التي يتعلم فيها المسلمون أصول الدين وأسس الحكم والسياسة ونظريات المعاملات والاقتصاد والحرب وقواعده واستراتيجيته كما تعلموا فنون السلم والمسالمة.

وقد نص القرآن الكريم على ضرورة اتباع الرسول ﷺ وطاعته: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾**[1]، ومن هنا كانت أهمية السنة النبوية الشريفة بالنسبة للمسلمين، وبالنسبة لدورها ازدهار الحضارة الإسلامية وإلى الرسول ﷺ يلجأ المسلمون فيما ينشب بينهم من خلاف: **﴿فَلاَوَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾**[3].

وكما يعتبر الفقهاء السنة النبوية الشريفة مصدراً أصلياً من مصادر التشريع فإن المؤرخين يتخذونها مصدراً أولياً من مصادر الحضارة الإسلامية، فقد أقام رسول الله ﷺ الدولة في المدينة المنورة واضعاً اللبنات الأولى لنظم الحكم والإدارة والاقتصاد والحرب في الإسلام، فقد انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة عام ١ هـ/٦٢٢ ليؤسس الدولة الإسلامية، وليتخذ منها عاصمة للدولة الناشئه في شبه الجزيرة العربية، ومن هنا كانت مدينة رسول الله ﷺ المركز الأول للحضارة الإسلامية، فيه ولدت ونمت واكتملت وصقلت ثم خرجت مع المسلمين الفاتحين لتبث نورها في الآفاق، ولتؤثر في كل مكان وصلت إليه بمفاهيمها وقيمها الجديدة.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٥.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

ومدينة رسول الله ﷺ كانت العاصمة التي شهدت مولد الأمة الإسلامية التى خرجت مجاهدة في سبيل الله، حاملة راية الإسلام وبين يديها الحضارة الإسلامية مطبقة في سلوك الأمة وآدابها ومعاملاتها وسلمها وحربها، وفيها تعلم المسلمون من النبي ﷺ وما علموه للأجيال من بعدهم، فقد تعلموا دقائق العقيدة وتفصيلاتها، كما تعلموا أصول الحكم والسياسة، وكان على الجيل الأول من المسلمين مسؤولية إيصال هذه الرسالة والحضارة التي إخضر عودها في المدينة، وقد أوفوا وصدقوا فيما ائتمنوا عليه، وقد أثبت هذا الجيل من الأمة الإسلامية قوة عود الدين الجديد الذي استطاع أن يفرض سيادته الحضارية فكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً في حركة مد جارفة انحسرت أمامها كل المفاهيم والقيم القديمة، وعلى أكتاف هؤلاء القادة قراء ومفسرين ولغويين وفقهاء ومجاهدين ارتفعت كلمة الإسلام بهم، ومنهم استمدت الدولة عناصرها من القوة والشباب والحيوية.

ولما كانت الحضارة الإسلامية ترتبط بالرخاء والاستقرار؛ فقد نتج عن ذلك استقرار المسلمين في المدينة أن تألف مجتمع جديد متناسق أذاب الرسولﷺ كل خلافاته، وعاش المهاجرون والأنصار يعملون معا ليصلوا بالحضارة الإسلامية في مهدها الأول إلى مستوى من التفوق سجله المؤرخون والكتاب إن الحضارة الإسلامية بمظهرها الجديد التي عرفها العالم لأول مرة استطاعت في ظل الإسلام أن تثبت قدرة أبناء الأمة الإسلامية على الابتكار والإبداع والاستمرارية، وقد سار الخلفاء الراشدون على النهج الذي رسمه رسول الله ﷺ يطبقون القوانين والأحكام التي احتواها كتاب الله، ويحيون سنة رسول الله ﷺ، ويعمقون المفاهيم الإسلامية ويواجهون مطالب الأمة، ومع انتشار الإسلام مع حركة الفتح الإسلامي دخلت عناصر بشرية جديدة أسهمت في إثراء الحضارة الإسلامية وساعدت في تطويرها، وسواء كانت هذه العناصر مشرقية أو مغربية إغريقية أو أسيوية؛ فقد ظلت الحضارة الإسلامية حافظة لأصولها الأولى التي ميزتها عن غيرها من حضارات الدنيا،

ومع أن الحضارة الإسلامية تنفرد بين الحضارات الإنسانية باستفاء أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ فهى تتفق معها في كثير من المصادر المتفق عليها بين المؤرخين كأصول لدراسة الحضارة بشكل عام.

٢- المصادر المكتوبة:

المصادر المكتوبة كثيرة ومتنوعة منها الكتب المدونة والمخطوطات والوثائق الرسمية التي تحويهاالأرشيفات الرسمية والرسائل المتبادلة بين الأفراد والحكام والخلفاء والاتفاقات والمعاهدات ومنها أيضاً أوراق البردي.

وتعد المصادر المكتوبة وخاصة الوثائق والاتفاقات وأوراق البردي من الأصول الأولى لدراسة التاريخ الإداري والاقتصادي للدولة الاسلامية على امتداد أطرافها، إلا أن بعض هذه المصادر مع الأسف قليلة ونادرة وضاع معظمها وفقد خلال الفترات التاريخية المتعاقبة وخاصة في أطراف الدولة الإسلامية، كما أن معظم تلك الوثائق تعرض للحرق أو الإتلاف حين تعرضت بعض دواوين الدولة الإسلامية للحريق؛ فقد تعرض ديوان الكوفة وديوان الفسطاط للحريق مما أدى إلى ضياع ما كان بها من وثائق هامة [١] .

وتتزايد أهمية الوثائق البردية لما تحتويه من معلومات هامة تختص بالنظم الإدارية والاجتماعية في الدولة الإسلامية بصفة عامة والنظم الإدارية والمالية والاجتماعية في مصر بصفة خاصة.

وقد اهتم المستشرقون بشكل خاص بالبرديات العربية كمصدر من مصادر دراسة النظم الإسلامية وأولوها عناية فائقة ومن أهمها جروهمان Gro الذي صنف البرديات العربية بدار الكتاب، وظهر البرديات يجيب على التساؤل الذي ظل مطروحاً بين المستشرقين عن وجود أرشيفيات في الدولة الإسلامية، كما أن هذه البرديات وخاصة ما وجد منها في مصر تقدم معلومات تفيد في كتابة تاريخ المجتمع الإسلامي؛ خاصة وأن المعلومات الخاصة بالطبقات الدنيا في المجتمع قليلة نادرة بالمقارنة مع ما يوجد من

(١) د. عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب.

معلومات عن الحكام والأمراء والقواد والعلماء الذين يمثلون الطبقات العليا في نفس المجتمع.

والبرديات العربية كثيرة ومنتشرة في مكتبات الدنيا، وما هو جدير بالإشارة أن أكبر المجموعات البردية العربية توجد في مكتبات النمسا التي تحتفظ وحدها بما يقدر بعشرة آلاف بردية عربية [1] .

وتمثل المصادر المكتوبة فكر المسلمين في عصوره المختلفة، فلم يتركوا مجالاً من مجالات العلم إلا وطرقوه وألفوا فيه وقدموا دراسات وافيه أصلية تعتبر الأصول الأولى للعلوم والمعرفة الإنسانية، كتب المسلمون في الفقه والتفسير واللغة والتصوف، كما ألفوا في العلوم والكيمياء والطب وكتبوا في الموسيقي والغناء والشعر والنثر والجغرافيا، وجادلوا وردوا وعارضوا وردوا الشبهات عن الإسلام، وأسسوا علم الاجتماع كما سجلوا الأحداث ودونوا الأخبار، وكان علم التاريخ والكتب التاريخية كثيرة تعتبر أم المكتبات وتنقسم إلى فروع عديدة منها الكتب الموسوعية ومنها الكتب المتخصصة ومنها ما يعالج النظم والقوانين، وأهم التفريعات التي يضمها التاريخ كما كتبه المسلمون، التاريخ العام ويمثله في المؤرخين المسلمين بشكل عام الطبري وابن الأثير، والتاريخ المحلي وكتب فيه كثيرون من بينهم ابن الفلانسي وابن الشحنة وابن القديم، أما كتب النظم والقوانين فمن أشهرهم كتابات إبن سلام وأبي جعفر والماوردي والأسعد إبن محاني والقلقشندي.

والكتابة التاريخية تعتبر أم الكتابات؛ ذلك أن الدارس يستطيع الحصول على معلومات قيمة وأساسية من مطالعتها والإفادة منها، وقد أكد كثيرون من الكتاب على أهمية الكتابة التاريخية للعلماء فيقول القلقشندي: أعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه ما بين مختصر ومبسوط ومقتصر على فن ومستوعب لفنون، وفي خلال تلك المصنفات نوادر غريبة ولطائف عجيبة لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة، كما لا يقع الظفر بالجوهرة في المعدن إلا بعد عمل

(١) د. عبد المنعم ماجد الزين علي، مقدمة دراسة التاريخ الإسلامي، ص٤٥.

كثير يحصل في خلالها بغيته، فإذا التقطت الجواهر في المعدن سهل تناولها لمريدها[1]. وللمسلمين أعمال هامة في السير والتراجم اشتهر منها كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ووفيات الأعيان لابن خلكان، وكذلك كتابات القوطي والكتبي والصفدي وغيرهم، كما كانت المعاجم الجغرافية والمعاجم الأدبية وتقاويم البلدان وكتب الرحلات دائماً مصادر أساسية في دراسة الحضارة الإسلامية وأنظمتها.

ومن المصادر الأساسية أيضاً في دراسة الحضارة الإسلامية ما سجله الرحالة المسلمون من مشاهدات ومعلومات، جمعوها خلال أسفارهم وترحالهم في بلاد الإسلام ودار الحرب ما يقدم مادة علمية قيمة تفيد في دراسة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

إن ما كتب البلاذري والاصطغري والمقدسي وابن خرذابة والبلخي وابن حوقل والمسعودي واليعقوبي وابن بطوطة وابن جبير؛ صوراً صادقة ومختلفة الأبعاد والانطباعات عن أحوال الناس وطرق معيشتهم ونظمهم السياسية وأوضاعهم الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية؛ كلها يكمل بعضها بعضاً، فيذكر اليعقوبي أنه طاف الممالك الإسلامية كلها؛ فنزل أرمينية وورد خراسان ومصر والمغرب وسافر إلى الهند، وكلما لقى رجلاً سأله عن وطنه ومصره وعن زرعه ما هو وساكنيه من هم عرب أو عجم وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم؛ ثم يثبت ذلك ويدونه، وهذا يوضح حرص الرحالة والجغرافيين المسلمين في تدوين الأخبار وتسجيل الأحداث.

ولكتب الأدب والشعر مكانة هامة كمصدر من مصادر دراسة حضارة الأمم، فإن آداب الأمم كما يصورها شعراً نبض شعرائها ونخراً أحاسيس كتابها؛ تحوى سجلاً هائلاً للمعلومات التي تفيد الدارسين، والأدب العربي ثرى غاية الثراء بإنتاج أدبائه عبر كل العصور مما يتيح للدارسين مادة علمية وفيرة تثري أبحاثهم غاية الثراء في حياة الأمم وتاريخها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٤١٢.

لقد سجل المسلمون كما فعل غيرهم من الأمم تخليداً للأحداث الهامة في حياتهم وتغنوا شعراً بانتصاراتهم، من ذلك كان فتوحات الشام على يدي صلاح الدين الأيوبي وجيوش مصر الذي ألهب قريحه الشعراء والأدباء المسلمين خلدوا هذا النصر شعراً تزدان به كتب المعاصرين لتلك الفترة التاريخية.

٣- المصادر الأثرية:

تشمل المصادر الأثرية كل ما ترك المسلمون من آثار تتمثل في مساجدهم ومكتباتهم وخاناتهم وربطهم ومدنهم وأسوارها وقلاعها والعملة على اختلاف أنواعها والطراز والأسلحة بكافة أشكالها ومختلف أنواعها، إلى غير ذلك مما تحفل به متاحف الدنيا من آثار ومخلفات تركتها يد الفنان المسلم.

وتعتبر الآثار الإسلامية من المصادر المعينة لدراسة الحضارة الإسلامية، وللمسلمين آثار مبنية تنتشر في قارات الدنيا فمن الأندلس غرباً إلى شبة القارة الهندية شرقاً تقف الآثار الإسلامية شامخة تقدم الدليل الحي على سمو حضارة الإسلام وارتقائها. والمسجد هو نقطة البدء في دراسة الآثار الإسلامية فهو المصدر الذي استقت منه العمارة الإسلامية أصولها، ومن المسجد امتد العمران لتقام العواصم الإسلامية بمنشآتها ومؤسساتها المختلفة، وتعكس العمارة الإسلامية مستويات حضارية مختلفة تعبر عن العصور التي تمثلها.

والمساجد الإسلامية هي المراكز الحضارية الأولى التي انبعثت منها إشعاعات الدين وإشعاعات الحضارة؛ فحول المسجد الأول في مصر أقيمت العاصمة الإسلامية الأولى الفسطاط، والمساجد تحولت مدن كبيرة مثل الأسكندرية ودمشق إلى مدن إسلامية، وفي المسجد كان المسلمون يناقشون أمورهم الدينية والدنيوية، ومع المسجد أقيمت المدارس التي كان لها دور هام في التعليم الإسلامي، وهي تمثل مصدراً من المصادر الهامة لدراسة الحضارة الإسلامية، وجدير بالإشارة أن أوروبا أقامت جامعاتها ومعاهدها العلمية على غرار المدرسة في الإسلام.

ومن الآثار الهامة لدراسة الحضارة الإسلامية تتصدر المدن التي شيدها المسلمون بطرزها المعمارية المختلفة سواء ما أقيم منها أصلا كمدينة إسلامية أو ما تحول منها؛ بإقامة المساجد فيها إلى مدن إسلامية بعد الفتح، وذلك أن المدن بأسوارها وقلاعها ومكتباتها وأسواقها وحماماتها وربطها وخاناتها وفنادقها وبيمارستاناتها ووكالاتها وحدائقها تعين على فهم المستويات الحضارية المختلفة والمرتبطة بالعصور التاريخية المتعاقبة تقدماً وانحطاطاً تطوراً أو ركوداً، فالقاهرة تمثل الطرز المعمارية الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية، والأزهر الذي أسسه الفاطميون لمسجد ثم تحول إلى مدرسة ومركز الفكر الشيعي وجامعة للعلوم والآداب يؤرخ لمصر ويحكي قصة تطورها الحضاري، فقد كان ولا يزال شاهد عيان للأحداث التي تعيشها مصر فقد تابع أحداث تاريخها وعصور ازدهارها وأوقات محنها وأزماتها وعاصر صمودها وكفاحها وانتصاراتها وأعيادها.

والمنشآت المعمارية كلها تمثلت في القلاع أو في الأسوار أو في الأسواق أو غيرها؛ تقدم معيناً لا ينضب من المعلومات والبيانات الأدلة التي تقدمها نقوشها وكتاباتها مما لا يتستغني عنه دارس لتاريخ الحضارة والنظم الإسلامية.

والعملة والمسكوكات والنقود والمصادر الأثرية الأصلية في دراسة نظم وحضارة الإسلام، وقد زادت أهميتها حتى أصبحت علماً بذاته علم النيمات Numismatic، والعملة تعكس المستوى الاقتصادي للدولة التي أصدرتها، وللعصر الذي تمثله، كما أن النقوش المضروبة عليها تتضمن ألقاب الملوك والخلفاء والسلاطين وتاريخ إصدارها، وهي بهذا تقدم سجلاً لحكم أولئك الحكام، وفي بعض الأحيان تعكس المذهب الديني الذي يمثله الحاكم[1].

وتعين السكة على تصحيح بعض المعلومات أو تأكيد الصحيح منها، كما تبين مدى التوسع الاقتصادي والانتشار التجاري في عصر من العصور، فحين اكتشفت عملة إسلامية في شبه الجزيرة العربية الاسكندنافية أكد الباحثون بناء على ذلك الكشف وصول تجارة المسلمين في العصور الوسطى إلى تلك البقاع.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون المسلمون، ص١٥٧.

عـرف المسـلمون النقـود والعملـة منـذ عصـر الخلفـاء الراشـدين فيـذكـر المقريزي أن الفاروق رضي الله عنه ضرب الدراهم على نقش الكرورية[١].

وكان العصر الأموى هو العصر الذي شهد تعريب الدواوين الإسلامية، وذلك على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي ضرب عملة عربية كانت من الفضة الخالصة وذلك عام ٧٧هـ - ٦٩٦هـ[٢].

وفي هذا يذكر القلقشندي أن الناس كانوا قبل ذلك يتعاملون بدراهم الروم والفرس، ولما ضربها عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك الضرب فضرب عليها الدراهم ونقش عليها: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾**[٣].

فسميت بالدراهم الأحدية وكرهها الناس لنقش القرآن عليها؛ مع أنه قد يحملها المحدث فسميت بالدراهم المكروهة، وإصدار العملة الإسلامية يوضح مدى حرص الدولة الإسلامية على استغلال اقتصادها، وقد اهتم المسلمون بنقاء العملة فحرص أحمد بن طولون على خلوص الذهب بل كان على ما يذكر القلقشندي أول من شدد في خلوص الذهب، كما حرص المسلمون على دقة عيار العملة، وكان أول من شدد في العيار يوسف بن إبراهيم؛ وكان ينزل أشد أنواع العقاب بمن ينتقص الوزن في الدراهم المضروبة، وتختلف عبرة الدنانير من عصر إلى عصر، كما أنها تتأثر بالأوضاع الاقتصادية للدولة؛ فيقول القلقشندي إن مصر شهدت في عصر السلطان برقوق نوعين من المسكوكات الأول ما كان يضرب بالديار المصرية حيث دار الضرب بالأسكندرية، والتي كان يضرب بها الدنانير والفلوس، والثاني يأتي إليها من الممالك ويقصد بها الدوكات، وهذا الاصطلاح في الحقيقة لا يطلق إلا على العملة المضروبة في البندقية[1]، وذكر أن الذهب كان يتعامل به والعبرة في وزن الدنانير، ووزنها بالمثاقيل وضابطها أن كل سبعة مثاقيل

---

(١) المقريزي، إغاثة الأمة، ط٥.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ص٤٢٥، ج١.
(٣) سورة الإخلاص.
(1) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٣٧.

زنتها عشرة دراهم، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً وقدرها بثنتين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط باتفاق العلماء خلافاً لابن حزم، فإنه قدرها بأربع وثمانين حبة على أن المثقال لم يتغير وزنه في جاهلية ولا إسلام(2).

ويمكن للدارس أن يستخلص من دراسة العملة والمسكوكات استقلال الإقليم أو لتبعيته، كما يستطيع أن يرسم الملامح الاقتصادية للعصر الذي تمثله هذه العملة أو تلك، يخبرنا الفلفشندي أن نائب السلطنة بالأسكندرية في عهد الدولة الأشرقية ضرب دنانير زنة كل دينار منها مثقال على أحد الوجهين منه (محمد صلى الله) وعلى الوجه الآخر ضرب الأسكندرية في الدولة الأشرقية شعبان بن حسين عز نصرة ثم أمسك في ذلك فلم تكثر هذه الدنانير.

وفي عهد السلطان فرج بن برقوق ضرب الأمير يلبوا السالمي استدار العالية في الدولة الناصرية دنانير زنة كل واحد منها مثقال في وسط سكنه دائرة مكتوب عليها فرج.

كما ضربت في عهدة أيضاً دنانير على زنة الدنانير الأخرنتيه في الوجهين لا إله الا الله، وفي الأخرى اسم السلطان، وعرفت هذه الدنانير بالناصرية، وكثر التعامل بها ومن ثم انتشر تداولها، ولتقي الدين العزيزي آراء كثيرة حول العملة التي يذكر مدى جودتها في عصور الرخاء الاقتصادي ومستوى رداءتها في عصور المحنة والاضطراب، وهو ما يوضح أن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول، وكانت الفلوس نقداً رديئاً بالنسبة للدينار أو الدرهم فطردتها من السوق.

وقد أدرك المقريزي الدراهم الكمالية ليتعامل بها الناس، وكانت ثلثاها من الفضة والثلث من النحاس؛ يضاف على المائة من الفضة الخالصة خمسون درهماً من النحاس(١).

---

(2) القلقشندي، صبح الأعشي، ج٣، ص٤٣٦ – المقريزي، إغاثة الأمة، ص٥٠.
(١) المصدر نفسه، ص٦٦.

ومن المفيد أن يشير إلى الدينار الجيشي الذي يستعله أهل الديوان في الجيش أو ديوان الجيش في عبارة الإقطاعات، وذلك بأن يجعلوا لكل قطاع عبارة دنانير، وقد كان دينار الأجناد من الترك والأكراد والتركمان دينار كامل، والكنانية والعسافلة ومن يجرى مجراهم نصف دينار، والعربان دينارهم ثمن دينار، وفي عرف النحاس ثلاثة عشر درهماً ونصف وهو على أية حال مسمي لا حقيقة له مثلها مثل الدراهم السوداء[٢].

واهتم كثير من المؤرخين والكتاب بالمسكوكات والعملة، من أهمهم أبي يوسف صاحب الخراج وابن سلام صاحب كتاب الأموال والماردوي في الأحكام السلطانية والقلقشندي في موسوعته الكبرى صبح الأعشى والمقريزي في رسالته المتخصصة (إغاثة الأمة بكشف الغمة) وغيرهم، وهذه المؤلفات تؤكد أهمية المسكوكات بكافة أنواعها وأقسامها وعلى مختلف العصور التي أصدرت فيها، وعلى أنها تسهم بدور هام في دراسة النظم الاقتصادية الإسلامية؛ بالإضافة إلى أنها سجلات تؤرخ للأحداث العامة وأحوال المجتمع.

ويعتبر الطراز من المصادر التي تفيد في دراسة الحضارة الإسلامية، ويعني نقش اسم السلطان على ما ينسخ ويرقم من الكسوة، والطرز المختلفة المتخذه من الحرير والذهب بلون مخالف للون القماش، وذلك لتصير الثياب والطرز السلطانية مميزة من غيرها، ويذكر القلقشندي أن ذلك تنوه بقدر لابسها من السلطان أو من يشرفه لبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام، وكان للطراز دار خاصة تعرف بدار الطراز بالأسكندرية.

ومن أنواع الطراز الفاشية والمظلة والرقبة والأعلام والخيام والفساطيط، أما الفاشية فهي غاشية السرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها من الذهب تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب والحفلات، وأما المظلة فهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طير مطلية بالذهب، وهي من بقايا الدولة الفاطمية، وأما الرقبة فهي

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٣٨-٤٣٩.

تجعل على رقبة الفرس وهي من أطلس أصفر ومحلاة بالذهب، وأما الأعلام فهي الرايات التي تحمل ألقاب السلطان واسمه ومنها العصابة والجالبش والسنجاق، ومما يذكر أن أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زنكي أخو السلطان نورالدين محمود، كذلك كانت الخيام والفساطيط تصنع من القطن الشامي الملون بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها، وكانت الخيام تنوب مناب القصور في الإقامة، ويفيد الدارسون من دراسة ما يصل إليهم من[1] الطراز؛ وذلك باستخدام النقوش والكتابات وتفسير العلامات التي يحملها مما يلقي الأضواء على العصر الذي تنتمي إليه، هذه الدراسة عن أصول الحضارة الإسلامية جاءت في كتاب (تاريخ النظم والحضارة الاسلامية)[2].

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٧-٩.
(٢) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، د. فتحية النبراوي، ط٤، جدة، الدار السعودية، ١٩٧٨م، ص١٩-٣٣.

الفصل السابع

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى

نتناول في الصفحات التالية المعابر التي من خلالها انتقلت حضارة الإسلام في العصور الوسطى إلى أوربا في الأندلس وصقلية وجنوبي إيطاليا وبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

والواقع أن دراسة تلك المعابر تفيد تماماً في تفنيد أوهام المتعصبين من أبناء الغرب الذين توهموا أن المسلمين ما قدموا شيئاً لأوروبا، وأن المركزية الأوربية هي صاحبة الفضل الأول والأخير من مرحلة الإبداع الإغريقي إلى إنجازات عصر النهضة وما تلاه حتى عصرنا.

وفي هذا المجال من الممكن الإفادة من شهادات المنصفين والموضوعين من الباحثين الغربيين؛ الذين اعترفوا صراحة بأن أوروبا جلست مجلس التلميذ من أستاذ الشرق الإسلامي صاحب الحضارة الزاهرة.

أما الأندلس فيمكن أن توصف بأنها المعبر الحضاري البارز الذي من خلاله قدم الإسلام نفسه كدين الحضارة لأوروبا العصور الوسطى، خاصة أنها كانت على الأرض الأوربية ذاتها، وقد مكث بها المسلمون ثمانية قرون كاملة، وظهر بها كبار الأعلام في جميع المجالات، ويكفي أن نشير إلى أن مدينة قرطبة في منتصف القرن العاشر الميلادي كانت من الحواضر الكبرى على مستوى العالم، وأضيئت ليلاً في وقت كانت فيه العواصم الأوربية الأخرى لم تصل إلى ذلك المستوى البته.

وقد كان على الأطباء في فرنسا طريقة واحدة في صورة عبور جبال البرانس من أجل التتلمذ على أيدي كبار الأطباء المسلمين في قرطبة وأشبيلية وغيرهما من مدن الأندلس المزدهرة، كذلك وجدت اللغة العربية عشاقاً كثيرين من الأوربيين مع ملاحظة أن اللغة بصفة عامة ما هي إلا وعاء الفكر ولدينا شهادة من جانب الكاتب الإسباني المتعصب الفارو Alvaro الذي قال ما نصه: (لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم، ولن تجد بين الألف منهم واحداً

يستطيع كتابه خطاب باللغة اللاتنية؛ بينما نجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم [1].

ويلاحظ أن شعر الموشحات الأندلسية ترك أثره على شعر التروبادور Trupador الذي وجد في فرنسا، ولا يمكن دراسة الشعر المذكور دون إدراك تأثير الموشحات الأندلسية فيه. من جهة أخرى قام الملك الفونسو العاشر الملقب بالحكيم (1248-1252م Alfonso X El Sabio) برعاية حركة الترجمة من خلال مدرسة طليطلة التي عمل فيها كبار المترجمين وترجمت من خلالها المؤلفات العربية إلى اللاتينية.

ومن كبار المترجمين الذين برزوا في الأندلس نذكر جيرارد الكريموني (١١١٤- ١١٨٧م)، ويقال أنه ترجم (٧١) كتاباً عربياً في مجالات علمية مختلفة ومن أمثلتها:

١. كتاب الخوارزمي: الحساب.
٢. كتاب الفرغاني: الحركات السماوية وجوامع علم النجوم.
٣. كتاب أبي علي خياط: أصل الكواكب.
٤. الكندي: بعض رسائله.
٥. كتاب ابي معشر: المدخل إلى علم هيئة الأفلاك.
٦. كتاب إبن الداية: شرح كتاب بطليموس عن الفلك.
٧. كتاب للبتاني عن الفلك.
٨. كتاب لثابت بن غرة عن الفلك.
٩. كتاب القابسي عن المدخل إلى صناعة أحكام النجوم.
١٠. كتاب مسلمة بن أحمد المجريطي عن الفلك.
١١. كتاب قسطا بن لوقا عن الفصل بين الروح والنفس.
١٢. كتاب الفارابي : إحصاء العلوم.

---

(١) انظر مبحث موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى.

١٣. قسم من كتاب ابن سينا : الشفاء.

١٤. كتاب ابن غبيرول: ينبوع الحياة.

١٥. كتاب الغزالي: مقاصد الفلاسفة.

ولا نغفل كذلك دور بارزا قام به يوحنا الاشبيلي John of Seville (١١٢٦-١١٥١م)، وقد ترجم عدداً من المؤلفات يمكن ذكر أغلبها في الآتي:

١. كتاب الخوارزمي : الحساب.

٢. رسائل مختلفة في الفلك والتنجيم ألفها ما شاء الله (ت٨٠٠م).

٣. كتاب في الحركات السماوية وجوامع علم النجوم للفرغاني.

٤. أبو علي الخياط: رسالة في الفلك هي المسائل في أحكام النجوم.

٥. عدد رسائل الكندى.

٦. مؤلفات أبو معشر في الفلك.

٧. أحكام النجوم لابن الفروخان.

٨. رسالة في التنجيم لأحمد بن يوسف بن الداية.

٩. الزيج للبتاني.

١٠. دلائل الفلك لثابت بن قرة.

١١. كتاب المدخل على صناعة أحكام النجوم ومؤلفات أخرى في نظام الكواكب السيارة للقبيصي.

١٢. الزيج لمسلمة بن أحمد المجريطي

١٣. كتاب إحصاء العلوم للفارابي.

١٤. ترجمة جزء من كتاب الشفاء لابن سيناء.

١٥. مقاصد الفلاسفة للغزالي.

ويلاحظ اشتراك مترجم آخر هو دو مينكو كوديسالفو (١٢م) هو اسباني في الترجمة مع يوحنا الاشبيلي.

وهكذا كانت الأندلس معبراً أساسياً من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، لذا لا عجب إذا وجدنا كاتباً إسبانياً معاصراً يقرر أن العرب لم يغزوها؛ بل قدموا إليها كمنقذين وكرسل حضارة، وذلك هو أجناسيو اولاي فكانت كلمة حق من رجل صادق مع نفسه ومع منطق التاريخ.

أما صقلية Sicily فقد عُدت هي وجنوبي إيطاليا من المعابر الأساسية للحضارة الإسلامية إلى أوروبا، ويلاحظ أنهم مكثوا فيها خلال المرحلة بين عامي (٨٣١- ١٠٩٢م)، وفيما بعد استولى عليها النورمان، ومن أسباب ذلك: تصارع القوى الإسلامية مع بعضها البعض، وهي آفة واضحة المعالم خلال مرحلة العصور الوسطى وحتى بعد ذلك !!

وقد تولى حكم صقلية روجر الأول Roger (١٠٦١- ١١٠١م)، وكان متسامحاً بصفة عامة مع المسلمين، ومن بعده كان روجر الثاني RogerII (١١٠١- ١١٥٤م) وكان منبهراً بالحضارة الإسلامية، وقد وصفه المستشرق الإيطالي البارز أماري Amari بأنه سلطان معمد، واعتقد الكثيرون بالفعل أنه سلطان عربي حمل تاجاً مثل ملوك الإفرنج.

وقد اتخذ لقباً إسلامياً فسمى نفسه المعتز بالله، وقام بسك عملة باللغة العربية إلى جانب العملات المكتوبة باللاتينية واليونانية، كذلك أصدر قراراته باللغات الثلاثة المذكورة، كما وقع في المعاملات الصادرة عن ديوانه بعبارات إسلامية مثل: (الحمد لله حق حمده) (الحمد لله وشكراً لأنعمه)، ولا ريب في أن ذلك تعبير صادق وحي ذكره التاريخ للملك الأوروبي الذي تأثر بالحضارة الإسلامية من رأسه حتى أخمص قدميه.

ويذكر له استقدامه الإدريسي ابن مدينة سبتة المغربية سالفة الذكر من قبل؛ حيث ألَّف في بلاطه كتابه الشهير (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ولا ريب في أنه بدون معاونة ذلك الحاكم الغربي الشرقي في الحين نفسه ما كان من الممكن للإدريسي أن يبدع بمثل تلك الصورة؛ خاصة أنه وضع إمكانات دولة النورمان في صقليه تحت تصرفه.

ومن الأمور المضحكة والمبكية في الحين نفسه أن رئيس وزراء إيطاليا بير لسكوني بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م المثيرة للجدل التي أُتهم المسلمين بالقيام بها؛ أدلى بحديث قال فيه: إن المسلمين لم يقدموا شيئاً للإنسانية على الصعيد الحضاري، وهو بالتالي لا يعرف ألف باء تاريخ إيطاليا ذاتها؛ حيث كتب على أرض صقلية العبقري المسلم الإدريسي كتابه سالف الذكر فدخل التاريخ من أوسع أبوابه، وكذلك كان شأن روجر الثاني، ويفتخر المستشرقون الإيطاليون مثل: ديلا فيلا وجيوفاني اومان واماري بأن ذلك الكتاب الفذ تم تأليفه في صقلية، من ناحية أخرى تولى فردريك الثاني FrederikII (١١٩٨- ١٢٥٠م) وهو ابن هنرى السادس حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا ومملكة الصقليتين: وهما نابولي Napoli وصقلية وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة النورمانية إلى أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية.

والأمر المؤكد أن ذلك الإمبراطور كان معجبا بالحضارة الإسلامية التي بهرته، وقد أتقن لغة الضاد وعدة لغات أخرى، وعقد أواصر الصداقة مع السلطان الكامل الأيوبي بل تم تبادل السفارات بين الطرفين، مع ملاحظة أن ذلك الإمبراطور كان سياسياً داهية وتمكن من انتزاع انتصار دبلوماسي غير مسبوق من خلال إتفاقية يافا المشبوهة عام ١٢٢٩م مع ذلك الحاكم الأيوبي قليل الخبرة السياسية والمتفرد بالرأى على نحو أضر بالصالح الإسلامي العام، ويلاحظ أنه بمقتضي تلك الاتفاقية استعاد الصليبيون تحت قيادته بيت المقدس دونما قتال.

ومن جهة أخرى نجد أن ابنه غير الشرعي منفرد Monfred تأثر هو الآخر بحضارة الإسلام، وقد اتسمت علاقته بالمسلمين بالمودة وحدثت سفارة بينه وبين الظاهر بيبرس (١٢٦٠- ١٢٧٧م) أشار إليها ابن واصل في كتابه (مفرج الكروب).

وبصفة عامة كانت اللغة العربية لها شأنها في التأثير في صقلية حيث دخلت اللغتين اللاتينية واليونانية، ومن أمثلة الكلمات ذات الأصل العربي:

الفنـدق Fondaco ديـوان Douane (Dohana) دفـتر Deftari رحبـة Rahbo مخزن Magazin راحة اليـد (مضـرب الكـرة) Rakete حـرارة Carara السـيد Cid مسـكين Mesquino القصـر Cassaro النـاعورة Noria القبـة La cuba العزيزة Alziza المحتسب Almotaceb السـكة Zecca خسارة Cassaro .

ولا ريب أن تلك الكلمات السابقة وهي مجرد أمثلة تعكـس لنـا قـدرة لغـة القـرآن الكـريم علـى غـزو اللغـات الأوربيـة الأخـرى في عقـر دارهـا علـى نحـو عكس تقدمها.

ويشير المؤرخ اللبنـاني القـدير حسـان حـلاق إلى أن بـاليرمو حاضـرة صـقلية احتوت على مدرسة للترجمة من لغة الضاد إلى اللغتين اليونانية واللاتينيـة علـى شـاكلة مدرسـة طليطلـة في القـرن (١٢م)، ووجـدت علاقـات بـين المدرسـتين، ومـن أولئـك الـذين تـرددوا علـى مدرسـة بـاليرمو مـن مدرسـة طليطلـة العـالم الأسـكتلندي ميخائيل سـكوت scott، وهـو الـذي قـام بترجمة أعمـال لأرسـطو وكذلك شروح لابن رشد.

كما يذكـر في إسهامات مدرسة باليرمو ترجمة مؤلفات كتـب ابـن سـينا وكـذلك الـرازي في الطـب، ومـن كبـار المترجمـين بهـا اوجينـوس البـاليرمي Eugene of Palermo وليونـاردو البيزي Leonardo of Pisa .

وهكـذا يتأكـد لنـا أن الحضـارة الإسـلامية كـان لهـا دورهـا البـارز في صقلية وجنوبي إيطاليا، وأن المسلمين عندما فتحوا تلك المناطق كانوا فاتحي حضارة ولم يكونوا غزاة.

أمـا فيمـا يتصـل بتـاريخ الحـروب الصـليبية فنجـد أن الصـليبيين أقـاموا في بلاد الشام قرابة القرنين من عمـر الزمـان، وعنـدما قـدموا توهمـوا أنهـم أقـوى من أعدائهم المسلمين؛ إلا أن مفاجأة كبرى كانت تنتظرهم من خلال ظاهـرة التمشـرق، ومـع طـول إقـامتهم هنـاك تعلمـوا مـن المسـلمين العديـد مـن العـادات والتقاليـد بـل وترجمـوا بعـض مؤلفـاتهم لا سـيما الطبيـة، ويتأكـد لنـا مقولـة عبقـري تـونس خالـد الـذكر ابـن خلـدون (ت١٤٠٥م) أن المغلـوب مولـع بتقليـد الغالـب لا تنطبـق علـى وضـع بـلاد الشـام عصـر الصـليبيات؛ لأننـا أمـام حالـة

حضارية فريدة في عالم العصور الوسطي؛ حيث أن المغلوب كان (عسكرياً) خاصة خلال العقود الأربعة الأولى من عمر الحركة الصليبية تمكن من هزيمة الغزاة بسلاح الحضارة الفتاك، وهو سلاح أدوم من الأسلحة المادية التقليدية لأن الأجيال تتوارثه.

ومن الواقع أن هناك العديد من مظاهر تأثر حضارة الإسلام في أوروبا خلال العصور الوسطي، وعلى المستوى السياسي نجد أن ملوك انجلترا وفرنسا كانوا من أوائل المتمردين على الكنيسة، وهي البلاد التي شارك ملوكها في الصراع ضد المسلمين في عصر الصليبيات، وحتى على المستوى الدستوري يرى البعض أن دستور انجلترا يعد أثراً من الآثار الناجمة عن الحروب الصليبية مع عدم إغفال التطور الطبيعي للتاريخ الدستوري لانجلترا ذاتها، وهو عنصر على قدر كبير من الأهمية.

ويلاحظ أنه عندما عاد الملك ريتشارد قلب الأسد Richard I Lionhearted (١١٨٩- ١١٩٩م) إلى انجلترا بعد انتهاء دوره في بلاد الشام وتجربة الأسر المريرة التي مر بها، طلب منه مرافقوه تطوير بلاده لتواكب حياة الشرق، وقد بدأ الإنجليز يطالبون بحياة ذات اتجاه يضمن حريتهم، وهكذا فإنه في عهد أخيه الملك يوحنا John (١١٩٩- ١٢١٦م) قامت انتفاضة تطالب بوضع دستور للبلاد، وقد أرغم على توقيع ما عرف بالماجنا كارت Magna Charta أو العهد الأعظم، وقد تكون من (٦٣) مادة انقسمت بدورها إلى أربعة مجموعات تناولت: العلاقة بين الكنيسة والدولة، والعلاقات الإقطاعية بين الملك وأتباعه، وكذلك الإجراءات الحكومية الملكية في القضايا المدنية فيما بين الملك ورعاياه، كذلك تناولت حقوق البارونات.

أما على الصعيد الفكري فيلاحظ أن هناك اتجاهاً لدى بعض الباحثين يرى أن الصليبيين قدموا إلى المنطقة كغزاة، ولم يكن هناك ما يجعلهم يتأثرون بحياة المسلمين الفكرية في بلاد الشام، ثم ينقلونها من بعد ذلك إلى الغرب الأوروبي بصورة أو بأخرى، بيد أن وقائع التاريخ ذاتها تفند ذلك التوجه.

والواقع أن تجربة الحروب الصليبية واتصال الغزاة بالحضارة الإسلامية تركت تأثيرها عليهم على مستوى العلوم الإنسانية وكذلك العلوم العملية.

أما أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا من الناحية اللغوية فنلاحظ من خلال دخول العديد من المفردات العربية إلى اللغات الأوربية ومن خلال مرحلة الحروب الصليبية ومن أمثلتها:

- (جلاب) هو شراب من بعض الأعشاب العطرية ونجدها في الانجليز Julep وفي الفرنسية Julep وفي الإسبانية والبرتغالية Julepe وفي الإيطالية . Qiulebbe
- كلمة (سمت) نجدها في الإنجليزية Syrup وفي الفرنسية Sirpo وفي الإيطالية Sciroppo .
- كلمة (عود) نجدها في الإسبانية Laud وفي البرتغالية Alaude .
- كلمة (جرة) نجدها في الانجليزية Jar وفي الفرنسية Jarue وفي الإسبانية JarroAliara وفي البرتغالية Zarro Jarro وفي الإيطالية Crarro ,Giaro . .

وهناك العديد من الأمثلة لا يتسع المقام هنا لإيرادها على نحو مفصل بصورة عكست أن لغة الضاد - لغة القرآن الخالدة - غزت الأوربيين في عقر دارهم من خلال اللغات التي تأثرت بها.

أما على مستوى الأدب شعراً ونثراً فنلاحظ أن الحروب الصليبية ومن خلال الشعر العربي أثرت في تطعيم شعر التروبادور Trupador ، وهو الشعر الغنائي في جنوبي فرنسا الذي ظهر هناك في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، وقد تطور على يدي وليم العاشر دوق اكويتاين William X of Aquiaine (١٠٧٧- ١١٢٧م)، وقد اشترك في الحملة الصليبية الأولى مع غيره من الشعراء، وذلك لمدة عام، ولا ريب أن تأثره بالحضارة الإسلامية في مظاهرها الأدبية على نحو عمق حسه الشعري، ومن المهم هنا ملاحظة أن أشعاره لم يتبق منها سوى إحدى عشرة قصيدة ست منها حوت شعراً خليعاً والخمس الأخريات تناولت الحب العذري العفيف.

زد على ذلك أثرت الحضارة الإسلامية من خلال الحروب الصليبية في الجانب القصصي لدى الأوربيين، ولا أدل على ذلك مما تردد لدى البعض من أن أسقف عكا جاك دي فترى Jacques de Vitry (١١٧٠- ١٢٤٠م) كان يروي مقتطفات من (ألف ليلة وليلة The Arabian Nights، Thousand night and one night) لبعض عناصر الصليبيين الذين قدموا إلى بلاد الشام، ومن بعد عودتهم إلى بلادهم قاموا بروايتها على أصدقائهم، وقد تم نشر تلك القصص من خلال مجموعة قصصية بعنوان الرومان Gesta Romanorum وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي، وهو القرن التالي مباشرة على القرن الأخير في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام، ومن خلالها ظهرت في أوروبا قصص مشابهة مثل الديكاميرون DecameronII التي ألفها الأديب الإيطالي جيوفاني بوكاشيو Giovanni Bokaccio (١٣١٣- ١٣٣٧م)، ويلاحظ أن كلمة الديكاميرون تعني الليالي العشر، وقد ساقها المؤلف على ألسنة عشر شخصيات سبعة من الرجال وثلاثة من النساء كانوا قد فروا من الطاعون الذي تفشى في إيطاليا وفي غيرها من الأقطار عام ١٣٤٨م، وعرف بالفناء الكبير Black Death، وتمتاز تلك القصص بالجرأة والحديث المكشوف عن الحب الحسي بتوجهه المتحرر، وقد تمت مهاجمة رجال الدين بعنف وسخرية شديدة، وأسلوب بوكاشيو اتسم بالحيوية والبساطة، كما أنه ألَّف كتاباً آخر اسمه الكرباج Il Corbaccio، وفيه يتحدث عن مسالب النساء.

ومن يطالع قصص بوكاشيو يدرك الشبة بينها وبين قصة الوزراء السبعة في ألف ليلة وليلة، أما تناوله لمثالب النساء فقد تأثر فيه بما تردد في الشرق والأندلس عن ذلك التوجه نفسه.

والجدير بالذكر أن الأوربيين فيما بعد عندما تمت ترجمة ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية من خلال جهد المستشرق جالان Galland (١٦٤٦- ١٧١٥م) أحدث ذلك ما يشبه البعث المعرفي في أذهانهم؛ إذ فتحت بوابة سحرية اكتشف الغرب من خلالها عالم الشرق الساحر الذي التقت فيه الحقيقة بالأسطورة، وبالتالي أحدثت أثراً لا يمحى، ومن المقرر أن أثرت في الإنتاج

الأدبي الأوربي حتى العصر الحديث؛ نظراً لأن الظاهرة الإبداعية الأدبية لم تعرف القيود أو الحدود السياسية أو الدينية أو المذهبية.

ومن جهة أخرى تأكد للدارسين أن دانتي اليجيري Dante (١٢٦٥-١٣٢١م) أديب إيطاليا البارز في عمله ذائع الصيت الكوميديا الإلهية The Divine Comody تأثر تأثيراً واضحاً برسالة الغفران لأديب معرة النعمان أبي العلاء المعري، وكان المستشرق الراهب آسين بلاسيوس Asin Palacios قد فجر مفاجأة علمية كبرى عام ١٩١٩م عندما أكد ذلك الأمر في أحد مؤتمرات الاستشراق .

وهناك من يرى على الرغم من الحجج والبراهين التي أوردها آسين بلاسيوس دعما لنظريته؛ إلا أن بعض الشكوك كانت لا تزال لدى بعض الباحثين خاصة من الإيطاليين، حتى كان عام ١٩٤٩م حيث قيلت الكلمة الأخيرة عندما عثر الباحث الإسباني خوسيه مونوس سندنيو Jose Munoz Sendino على المخطوطات القشتالية (الإسبانية) واللاتينية والفرنسية لترجمة قصة المعراج الإسلامية العربية، وقد كان الفونسو الحكيم Alfonso El Sabio قد أمر بترجمتها إلى تلك اللغات نقلاً عن الأصل العربي.

من ناحية أخرى نجد أن مقامات الحريرى حققت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي؛ بل وامتد تأثيرها خارج حدوده، ومما يلفت الانتباه الشبة الكبير الذي يلاحظه المتخصصون في الأدب المقارن بين ذلك الأثر الأدبي البارز والطراز المعروف في الأدب الإسباني باسم قصص الصعاليك La novella picaresca على نحو دل على قدرة الأدب العربي على التأثير في الآداب العالمية الأخرى.

والأمر المؤكد أن الأمثلة سالفة الذكر تدل على حيوية اللغة العربية وآدابها التي لم تكن منعزلة بل فاعلة ومؤثرة، وبالتالي يتضح لنا أن الفتوحات العربية الإسلامية لأوروبا لم تكن ذات طابع عسكري بحت بل حملت معها الآثار الحضارية العميقة.

وعلى مستوى الكتابة التاريخية نجد أن الحضارة الإسلامية أثرت في إحداث نقلة نوعية غير مسبوقة في تاريخ الكتابة التاريخية في الغرب الأوروبي

فيلاحظ هنا أن الحروب الصليبية أفرزت لنا المؤرخ الصليبي البارز وليم الصوري William of Tyre الذي ألف كتابه الفريد (تاريخ الأعمال التي جرت فيما وراء البحر) History rerum in partibus Transmarinis gestarum وبالإنجليزية History of deeds done beyond the sea .

وقد عمل رئيساً لأساقفة صور Tyre وأجاد عدة لغات مثل: اليونانية واللاتينية وكذلك العربية، وطالع من خلالها المؤلفات التاريخية العربية مع عدم إغفال التأثير العميق الذي أحدثته بعثته إلى الغرب الأوروبي على مدى عشرين عاماً (١١٤٢- ١١٦٢م)؛ حيث كانت تموج بما عرف بنهضة القرن الثاني عشر الميلادي، وهي التي قامت على أساس ترجمة علوم المسلمين وهي أخطر النهضات في تاريخ أوروبا العصور الوسطي.

وبعد الاغتراب طلباً للعلم والتأثر بحضارة الإسلام في غربي البحر المتوسط شد ذلك المؤرخ البارز رحاله صوب البحر الزاخر بتفاعلات الأفكار وقوى السياسة والاقتصاد، وقدم إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد آخر ملوكها البارزين وهو عموري الأول Amalric I (١١٦٣- ١١٧٤م) حيث طلب منه تأليف كتاب يتناول فيه تاريخ الصليبيين في الشرق فكان كتابه مع ملاحظة أنه ألف كتاباً عن تاريخ الأمراء الشرقيين فُقد ولم يصل إلينا.

والجدير بالذكر أن ذلك المؤرخ الصليبي اتسم تاريخه بالروح الناقدة والبصيرة النافذة، فلا عجب أن وجدناه ينتقد المملكة الصليبية لعدم التزامها بالاتفاقات الدبلوماسية التي عقدتها مع المسلمين في بعض الأحيان، كذلك وجه انتقادا إلى هيئة فرسان المعبد Templars الذين زاد نفوذهم على نحو جعلهم أشبة بدولة داخل الدولة الصليبية Emperia in Emperio، كما عمل على نقد الجيل الصليبي الجديد على اعتبار أنه كان جيلاً ضعيفاً لم تتوفر فيه مقومات الجيل الأول الذى أسس الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية.

الفصل الثامن

نماذج لأثر الحضارة الإسلامية على أوروبا

(الحياة العلمية والأدبية في الأندلس)

كانت الأندلس تابعة للسيادة الأموية في بلاد الشام، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر بالمظاهر الحضارية الشامية وهو ما يعرف بالتقليد الشامي، الذي ظهر منذ البداية في شبة الجزيرة إذ اجتهد الولاة على تطبيعه، وعندما تمكن جند القائد بلج بن بشر القشيري من إيجاد ملاذ في الأندلس سنة ١٢٥هـ أتاحت هذه المناسبة على نشر هذا التقليد فيما وراء قرطبة نفسها [١].

وأخذ التقليد الشامي يتعمق منذ ارتقاء عبد الرحمن الداخل الإمارة بسبب قدوم جماعات عربية، وكان النجاح في إقامة دولة أموية يجذبها إلى الجانب الشرقي من البحر المتوسط[٢]. كما أن الحقد على العباسيين ألف بين الجماعات العربية وبين النظام الأموي في قرطبة في العصور الوسطى، وبذلك حققت الأندلس ليس وحدتها السياسية فحسب بل وحدتها الدينية أيضاً [٣].

التاثيرات الحجازية:

الذي ظهر في نهاية القرن الثاني حيثما ضعف التأثير الشامي على الأندلس بسبب تمرد سليمان وعبد الله على أخيهما الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، وكان وراء هذا التمرد الحزب الشامي، فلما انتصر الأمير هشام على أخوته هربوا إلى شمال أفريقيا، وضعف الحزب الشامي بالأندلس فنتج عن ذلك ضعف التأثير الشامي، وبذلك نجد الأندلسيين يبحثون عن آفاق جديدة فاهتدوا إلى المظاهر الحجازية.

كانت المدينة مركز العلوم الدينية، وقد توج نضوج هذه العلوم وجود الإمام مالك بن أنس فيها (ت ١٧٩) صاحب كتاب (الموطأ) فأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه في عهد الأمير هشام، وشاع هذا المذهب بالأندلس بعد أن

---

(١) بروفنسال ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت، بلا، ٤٦.
(٢) بروفنسال، حضارة ٤٧–٤٨.
(٣) بروفنسال، حضارة٤٦.

استهوى الأمير ومن حوله من الفقهاء تلاميذ مالك دون أن يرى أحدهم الآخر[1] بالإضافة إلى التعاطف بين الأمير هشام والإمام مالك نتيجة عدواتهما للعباسيين، إذ ساند الإمام مالك ثورة محمد ذي النفس الزكية في المدينة سنة ١٤٥ ضد الخليفة العباسي المنصور، وقد أفتى بجواز تحلل المسلمين من بيعة المنصور، ولذا لقي كثير العناء من العباسيين[2].

كذلك تبلور التأثير الحجازي بالعلماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الحجاز، ودرسوا على يد الإمام مالك فنقلوا مذهبه إلى الأندلس وفي مقدمتهم أبو عبد الله زياد ابن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون[3].

وتعلل الروايات أن الشبه الكبير بين طبيعة أهل المغرب والأندلس وطبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة كان من أسباب انتشار المذهب المالكي في مغرب العالم الإسلامي، ولهذا فإن عقلية أهل المغرب والأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث، وجانبوا نزعة أهل الرأي والقياس (مذهب أبي حنيفة)[4].

التأثيرات العراقية:

إن التأثيرات العراقية حدثت في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني؛ الذي اتبع العباسيين دون أن يرى في العداوة التقليدية بين الأسرتين أي أثر يمنعه من اقتباس معالم الحضارة العباسية والاقتداء بآثارهم، وهكذا أصبح نظام الإدارة في قرطبة صورة منقولة عن نظام الإدارة العباسية.

قام العديد من طلاب العلم الأندلسيين بالرحلة إلى العراق للتزويد بالعلوم من منابعها، وقد أمضى معظمهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين سنة أحياناً من أجل هذه المهمة من أمثال محمد عبد السلام الخشني[5]. وأنفق الكثيرون القسم الأكبر من ثرواتهم في شراء الكتب التي أدخلوها إلى الأندلس؛ إضافة إلى من كان يحمل العلم رواية في الصدور[6].

---

(١) بروفنسال، حضارة ٤٩، السامرائي، تاريخ ٣١٥.
(٢) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، ٣٢/٥.
(٣) السامرائي، خليل إبراهيم صالح، تاريخ المغرب العربي، الموصل، ١٩٨٨، ٣١٦.
(٤) السامرائي، تاريخ ٣١٦.
(٥) الحميدي، جذوة ١١٧.
(٦) السامرائي، تاريخ، ٣٢٠.

الحياة العلمية والأدبية في الأندلس والمغرب الإسلامي:

اعتمد الأندلس والمغرب أولا على التراث الإسلامي بالمشرق، وكان هذا الاعتماد إما عن طريق الداخلين إلى الأندلس في عصر الولاة الذين يمثلون نوعاً من الثقافة؛ حيث كانت اللبنة الأولى لبناء صرح الحضارة العربية المغربية، فقد دخل الأندلس مجموعات من الصحابة والتابعين رافقوا عمليات الفتح أو بعدها[1]، وكان واجبهم الأول بعد الجهاد تفقيه الناس بأمور الدين وتخطيط المساجد في أمهات المدن الأندلسية والمغربية، والتركيز على علوم القرآن واللغة [2]، وإما عن طريق استقدام العلماء المشارقة إلى المغرب والأندلس، وإما عن طريق رحلات طلبة العلم إلى المشرق للتزويد بالعلم والتحصيل في مختلف أنواع العلوم والآداب.

وكان أهل الأندلس أحرص الناس على التزويد بالعلم، ويذكر المقري في كتابه (نفح الطيب) أن الجاهل الذي يوفقه الله للعلم في الأندلس كان يجهد نفسه ليتميز بصفة ويربأ بنفسه أن يُرى عالة على الناس؛ إذ أنهم كانوا يعدون ذلك في غاية القبح، والعلم عندهم مُعظَّم من الخاصة والعامة على السواء؛ يشار عليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس[3].

أما أماكن التعليم في عصر الولاة فلم تكن في الأندلس والمغرب مدارس كما هو الحال في المشرق؛ بل كان الطلبة يقرأون ويدرسون في حلقات المساجد أولاً، والكتاتيب التي ورد ذكرها في أواخر عصر الولاة ثانياً [4].

وقد اهتم أمراء بني أمية باقتناء المصنفات النادرة وأرسلوا للبحث عنها والتماسها وشرائها، فالأمير عبد الرحمن الأوسط بعث عباس بن ناصح الجزيري إلى المشرق ليبحث له عن الكتب القديمة النادرة، فأتى له بالسند هند وغيره، ويعتبر عبد الرحمن الأوسط أول من أدخل هذا الكتاب إلى

---

(١) المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، ١٩٤٩، ١٩-٢٠.

(٢) صاعد، صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، القاهرة، لا، ت٦٢.

(٣) المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، ٢١٥/١.

(٤) السامرائي، تاريخ ٣١١.

الأندلس، وهو يداخل كل ذي علم في فنه، كما كان مكرماً للعلماء محسناً لهم، وكان يخلو بكبير الفقهاء عيسي بن يحي الليثي ويشاوره، فقد كان شاعراً وأديباً ذا همة عالية عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة [1].

غير أن الحركة العلمية في الأندلس لم تصل إلى ذروتها إلا في عصر الخلافة (٣٠٠- ٣٦٦)، فقد شجع الناصر وابنه الحكم العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس وأغدقوا عليهم العطاء، وقد جلبوا الكتب القيمة وترجموا الكتب الأجنبية، وحثوا على التأليف والبحث في مختلف المجالات، فاذا كان الناصر قد أحسن استقبال الوافد أبي على القالي وجعله مؤدباً لابنه الحكم؛ فإن الخليفة الحكم اشتهر بحبه للكتب، وقيل أنه جمع مالاً يوصف كثرة ونفاسة حتى إن مكتبته بلغت٤٠٠ ألف مجلد حيث كان يجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن بذله من الأموال، حتى ضاقت عنها خزائنه، ويذكر إبن بشكوال أنه قلما وجد كتاباً في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن [2].

وذكر أبو محمد بن حزم عن تليد الخصي المتولي لخزانة الكتب بدار بني أمية أن عدد فهارس مكتبة الحكم المستنصر ٤٤ فهرسة لكل فهرسة عشرون ورقة.

ولكن هذه المكتبة العظمي التي جهد الحكم في تكوينها لم تلبث أن بددت عند حصار قرطبة سنة ٤٠٠ هـ. فبيع أكثرها على يد الحاجب واضح العامري ونهب ما بقي منها [3].

سارت الثقافة الأندلسية في فترة الحجابة بقوة الدفع التي كانت سائدة في عصر الخلافة، ولم تر أي تقدم ملحوظ في ميادين المعرفة باستثناء تلك البقية الباقية من أعلام فترة الخلافة[4]، ووفود الأديب اللغوي أبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي من المشرق، الذي أراد له المنصور أن يعفي آثار أبي علي

---

(١) سالم، السيد عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت، ١٩٧١م، ١٦١/٢.
(٢) ابن بشكول، خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة، بلا، ١٩٥٥، ٤٣٩/٢، سالم، السيد عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الأسكندرية، ١٩٨٥م، ص٢٨٣.
(٣) سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت، ١٩٧١، ١٦١/٢.
(٤) السامرائي، تاريخ ،٣٢٠.

القالي؛ فتصدى صاعد لتأليف كتاب يفوق كتاب الأمالي فأذن له المنصور في ذلك، فجلس صاعد بجامع الزهراء يملئ كتابه المترجم بالفصوص فلما أكمله ناقشه أدباء العصر فلم يتركوا خبراً أو كلمة دون أن ينتقدوها فأمر المنصور بأن يقذف بكتاب الفصوص في النهر [1].

وربما كان من عوامل استمرار الدفع للثقافة الأندلسية أن الحاجب المنصور كان على صلة قديمة بالثقافة، وأنه كان مصاحباً للعلماء ويُروى عنه بأنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية بحضرة المنصور طيلة إقامته بقرطبة [2].

أما فترة الفتنة ٣٩٩- ٤٢٢ فهي فترة التفكك والانحلال التي ادت إلى سقوط الخلافة الأموية وقيام دول الطوائف، وكان من نتاج الفتنة تعطيل النشاط الثقافي، فأغلقت حلقات الدرس وقتل بعض العلماء وخاصة ابن الفرضي صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس، وهاجر البعض الآخر من قرطبة إلى شرق الأندلس كابن حزم حيث يلتمس شئ من الأمان[3].

ولكن ما لبث أن ازدهرت الحركة الفكرية في الأندلس في عصر الطوائف (٤٣٣- ٤٨٤)، وذيوع المكتبات العامة الخاصة التي شملت أجود وأنفس الكتب، فقد رعت مملكة أشبيلية هذه الظاهرة وكذلك مملكة المرية وبطليموس وطليطلة، فاشتهرت مكتبة الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامري[4]، كما اشتهرت مكتبة أبي محمد عبد الله بن حيان بن قرصوف الأورشي في مدينة بلنسية؛ الذي كان له همة عالية في اقتناء الكتب [5]. فقد ذكر ابن علقمة في تاريخه أن ابن ذي النون صاحب بلنسية عّد كتب الأورشي فكانت مائة وثلاثة وأربعين عدلاً من أعدل الحمالين[6].

واشتهرت الدراسة التاريخية والجغرافية في الأندلس خلال هذه الفترة، وكان من رواد هذه الحركة التاريخية ابن حيان المعروف بكتابه المقتبس،

(١) سالم، قرطبة، ١٦٤/٢.
(٢) ابن الابار، محمد بن عبد الله، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م، ٢٦٨/١.
(٣) السامرائي، تاريخ، ٣٣٣.
(٤) عنان، محمد عبد الله، دولة الطوائف، ط٣، القاهرة، ١٩٨٨، ١٣٦-١٣٧.
(٥) ابن بشكول، الصلة، ٤٣٩/٢-٤٤٠.
(٦) الضبي، أحمد بن يحي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ومجريط، ١٨٨٤، ٤٤٥.

والعالم ابن حزم صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب وكتاب نقط العروس، والعالم ابو عمر يوسف بن عبد البر الذي ألف كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير[1].

وكان رائد الدراسات الجغرافية في عصر الطوائف أبا عبيد البكري ت ٤٨٧، وهو صاحب كتاب المسالك والممالك وكتاب معجم ما استعجم وهو مؤلف انتفع به الفونسو العالم في تاريخه العام[2].

العلوم الدينية واللغوية والأدبية:

تفضيل الاشتغال بهذه العلوم على الاشتغال بالعلوم الفلسفية والطبيعية حتى في عصور قوة الدولة العربية الإسلامية؛ لأن العلوم الدينية واللغوية والأدبية كانت عميقة الجذور في وعى الأمة العربية الإسلامية، وفي عقليتها وموروثها الثقافي والديني، وكانت تلقي التأييد من الرأي العام العربي الإسلامي الذي ظل متشبعاً على الدوام بالروح الدينية.

١.العلوم الدينية:

اعتنق الأندلسيون في عصر الولاة مذهب الإمام عبد الرحمن الأوزاعي (ت ١٥٧)، الذي كان مجاهداً من الذين رابطوا في مدينة بيروت لصد غارات العدو البيزنطي البحرية، ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربية وأحكام الجهاد، وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلس في هذه الفترة في حياتهم القائمة على الجهاد، ولهذا اعتنقوا هذا المذهب.

وتختلف الروايات حول العالم الأول الذي نقل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس، فترجح بين القاضي الغرناطي أسد بن عبد الرحمن (ت ١٥٠) وصعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢) [3].

وفي عصر الإمارة أقبل الأندلسيون على اعتناق مذهب الإمام مالك بن أنس في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن، وشاع في أواخر القرن الثالث الهجري هذا المذهب بالأندلس، كما دخل الأندلس المذهب الشافعي، ويرجع دخوله إلى الفقيه قاسم بن محمد بن سيار القرطبي؛ الذي رحل إلى

---

(١) الحميدي جذوة، ٢٦٨، السامرائي، تاريخ ٣٣٦.

(٢) عنان، دولة الطوائف، ٤٣٤، السامرائي، تاريخ، ٣٣٦.

(٣) ابن الفرضي، عبد الله بن محمد، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، القاهرة، ١٩٥٤، ١/ ٧٤، بروفنسال، حضارة، ٦١.

المشرق ودرس على علماء الشافعية أمثال إبراهيم بن محمد والحارث بن مسكين وغيرهما، وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد وتوفي عام ٢٧٧[١]

وشاع المذهب الشافعي في فترة الخلافة وأصبح من أقطابه أسلم بن عبد الرحمن العزيز بن هاشم؛ الذي ولى قضاء الجماعة للخليفة عبد الرحمن الناصر، فكان جليل القدر ثقة في الرواة، وأحمد بن عبد الوهاب الذي عاصر الحكم المستنصر[٢]، كذلك انتشر المذهب الظاهري وكان من أقطابه المنذر بن سعيد البلوطي خطيب جامع الزهراء وابن حزم الأندلسي ت٤٥٦.

كذلك عني أهل الأندلس بالعلوم الدينية كعلوم القرآن والتفسير والحديث والقراءات وصنفوا فيها الكتب، وأول من ظهر منهم محمد بن وضاح ت ٢٨٧ مولى عبد الرحمن بن معاوية، الذي رحل إلى المشرق رحلتين في طلب الحديث، وكان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه متكلماً على علله[٣].

ويعد نهج تفسير القرآن بالمأثور من أبرز المناهج التي اشتهرت بالأندلس، فتزعم هذه المنهج العالم الفقيه بقي بن مخلد ت ٢٦٧؛ الذي ألف كتاباً في تفسير القرآن بلغ فيه درجة من الجودة والاتقان[٤].

وأصبحت الأندلس دار حديث بفضل جهود بقي بن مخلد في زمن الإمارة؛ الذي رحل إلى المشرق ولقى جماعة من أئمة المحدثين وكبار المسندين، وهو الذي ملأ الأندلس حديثاً ورواية وصنف عدداً من الكتب التي جمع فيها من العلوم الواسعة والروايات العالية والاختلافات الفقهية ما أغاظ فقهاء قرطبة أصحاب الرأي والتقليد، ولم ينقذه من هذا الموقف الحرج إلا المناظرة المشهورة لأعدائه الفقهاء وظهر على خصومه فارتفعت منزلته فاعتلى في العصور التالية[٥].

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ ٥٩٧/٢-٥٩٩ السامرائي، تاريخ ٣١٥.
(٢) ابن الفرضي، تاريخ ٧٤/١، الحميدي، جذوة، ٢٦٨.
(٣) المقري، نفخ الطيب، ١٧٣/١، سالم، قرطبة، ١٩٧/٢.
(٤) السامرائي، تاريخ ٣٢٣.
(٥) ابن الفرضي، تاريخ، ٥٩٧/٢- ٥٩٩، سالم، قرطبة، ١٩٧/٢.

وأنجبت الأندلس في علم أصول الفقه علماء مشهورين بالفضل؛ فظهر طائفة من كبار الفقهاء على المذاهب الأربعة، فمن أئمة فقهاء المذهب المالكي يحي بن يحي الليث (٢٣٤) وأستاذة زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون أول من أدخل المذهب المالكي للأندلس، وتولى يحي الليثي فتيا الأندلس برأي مالك بعد عيسي بن دينار، وذكروا أنه لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيي الليثي [١].

ومن دعائم الفقه على المالكية بقرطبة في عصر الإمارة يحيي بن ابراهيم بن مزين القرطبي ت ٢٥٩؛ الذي صنف كتاباً في تفسير الموطأ وكتاب تسمية الرجال المذكورين فيه وكتاب في فضائل العلم [٢].

وفي عصر الخلافة ازدهرت العلوم الدينية؛ ففي مجال تفسير القرآن اشتهر العالم عثمان بن محمد بن محاسن (ت ٣٦٥) وكان له باع في علم التفسير، واشتهر ابن الحجام يعيش بن سعيد الذي ألف مسند حديث بأمر الخليفة الحكم المستنصر، وألف العالم يحيي بن شراحيل (ت ٣٧٢) كتاباً في توجيه الموطأ للإمام مالك [٣]. ومن دعائم الفقه المالكي محمد بن يحيي المعروف باليوجون (ت٣٣٠)، ومحمد بن يبقي (ت ٣٨١) الذي كان أحفظ أهل عصره للمسائل على مذهب مالك وأصحابه [٤].

في علم القراءات ظهر عثمان بن سعيد القرطبي الذي بلغ الغاية في القراءات، ويحي بن مجاهد بن عوانة الفزاري (ت ٣٨٨) الذي كان مهتماً بالقراءات [٥].

لم تخمد أنفاس الحركة العلمية خلال فترة الحجابة والفتنة، فقد كان هناك بقية من العلماء الذين أدركوا الازدهار في فترة الخلافة وانتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة فحفظوا للأندلس الكثير من عملها وتراثها، ومن

---

(١) سالم ، قرطبة، ١٩٩/٢.
(٢) سالم، قرطبة، ٢٠٠/٢
(٣) ابن القرطبي، تاريخ ٥٩٧/٢، الحميدي، جذوة، ١٢٨.
(٤) سالم، قرطبة، ٢٠٠/٢.
(٥) سالم، قرطبة، ١٩٨/٢

أشهر هؤلاء العلماء أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور وكان أحد شيوخ الحديث[1].

وأبو محمد أبو عبد الله بن يوسف الرهوني، وكان مؤدباً ومحدثاً مجوداً للقرآن[2]، كما كان هناك بعض العلماء ممن وفدوا إلى الأندلس من المشرق وكان لهم دور علمي كبير، ومن أشهر الوافدين أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المصري الذي قدم من مصر (٣٩٤)، وكان رجلاً حافظاً للحديث عالماً بالأخبار[3].

وبرز في الأندلس خلال فترة الفتنة عالمان جليلان لهما دور بارز في الثقافة الأندلسية هما أبو محمد بن حزم (ت ٤٥٦) وأبو مروان بن حيان (٤٦٩)، فابن حزم انصرف إلى العلم بعد سقوط الخلافة الأندلسية وتجول في الأندلس، وخاصة في شرقيها ناشراً مذهبه الظاهري، ولقي الأمرين من علماء المالكية وبالذات من أبي الوليد الباجي داعياً للوحدة في الأندلس، أما ابن حيان فانصرف إلى كتابة الأدب[4].

وازدهرت العلوم الدينية في فترة الطوائف وخاصة في بلاط المعتصم بن صمادح وغيره، حيث كانوا يعقدون مجالس الفقهاء في كل جمعة يتدارسون كتب التفسير والحديث ورعت مملكة دانية العلوم القرانية، وكان رائدها شيخ القراء أبو عمر الداني، وظهر أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧) وكان متبحراً في علوم القرآن مجوِّداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها. وتزعم الدراسات الفقهية العالمان أبو محمد علي بن حزم وأبو الوليد سليمان بن خلف الباجي داعياً إلى توحيد الأندلس[5].

٢.الدراسات اللغوية :

اقتصرت الدراسات النحوية واللغوية في الأندلس في عهد الإمارة بادئ بدء علي قراءة النصوص الأدبية شعراً ونثراً، فكانت الدراسات النحوية علي هذا

(١) السامرائي، تاريخ، ٣٣٣.
(٢) ابن بشكوال، الصلة، ٢/٤١٤.
(٣) ابن بشكوال، الصلة، ٢/٢٣٧.
(٤) السامرائي، تاريخ ٣٣٣.
(٥) سالم، قرطبة، ٢/١٩٩، السامرائي، تاريخ ٣٣٦.

النحو ضنينة، إلى أن دخلت الأندلس كتب الكسائي، عند ذلك الحين أخذت تظهر بعض التواليف في النحو فكتب جردي بن عثمان النحوي (ت ١٩٨هـ) كتاباً في النحو بعنوان "مدينة الحجارة"، وبرز من علماء اللغة أيضاً أبو عبد الملك عثمان بن المثني القرطبي (ت ٢٧٣هـ)[١] الذي عاصر أربعة من الأمراء.

وكذلك فإن فقة اللغة العربية ازدهر بفضل علماء أنفقوا حياتهم كلها في بلادهم، أو بفضل آخرين عزموا علي السفر للنهل من منابع المعرفة نفسها في المشرق كالأندلسي ابن مالك صاحب الألفية الشعرية من الشعر تعالج موضوع الصرف والنحو، وكأبي حيان اللغوي الشهير الذي خلف نتاجاً هائلاً.

وفي فقة اللغة العربية يمثل وجه آخر أندلسي هو ابن سيده، وعن قاموسه الضخم في الجناس والمخصص أي يقع في سبعة عشر جزءاً، يتفق مع قواعد كبار فقهاء اللغة المشارقة[٢].

وقد تأسست في فترة الخلافة مدرسة الدراسات اللغوية في الأندلس وذلك بعد قدوم أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب كتاب الأمالي، الذي وفد إلى الأندلس عام ٩٤١/٣٣٠ حاملاً كثيراً من علوم المشرق وأدبه وبالذات دواوين إمرئ القيس وزهير والنابغة الذبياني والخنساء والأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم[٣]، هذا بالإضافة إلى كتب الأخبار واللغة، كما ألف كثيراً من الدراسات اللغوية وأملى على طلبته الأندلسيين كتاب الأمالي[٤].

وبالعكس رحل أندلسيون في اللغة إلى بلاد المشرق أمثال محمد بن يحيي بن عبدالسلام (ت ٣٢٨هـ)، رحل إلى مصر ولقى فيها النحاس وأخذ عنه كتاب سيبيويه وعاد إلى الأندلس، ويعني هذا تطور الدراسات اللغوية في الأندلس في هذه الفترة.

---

(١) سالم، قرطبة، ١٦٤/٢.
(٢) بروفنسال، حضارة، ٦٢.
(٣) سالم، قرطبة، ١٦٤/٢، السامرائي، تاريخ، ٣٢٦.
(٤) ابن الفرضي، تاريخ، ٦٩/١.

وبرز علماء في هذا المجال أمثال العاصمي وابن العريف وأبي بكر الزبيدي الذي كان مؤدباً لهشام بن الحكم المستنصر[1]، وأبي بكر بن القوطية المشهور بعلم التاريخ، وكان إماماً في العربية وله كتاب في الأفعال لم يؤلف مثله[2].

وقد ازدهرت الدراسات اللغوية في فترة الحجابة التي دفعت بعلماء من المشرق الإسلامي، حيث وصل في هذه الفتره اللغوية المشرقي الأديب صاعد البغدادي إلى الأندلس عام٣٨٠هـ على أيام الحاجب المنصور فاستقبله المنصور أحسن استقبال[3].

ولقي صاعد البغدادي الأمرين في الأندلس، تصدي له بعض علمائها ودخلوا معه في محاورات علمية، إلا أن هذه المحاورات أدت إلى تنشيط الحركة اللغوية، وكان لكتابه الفصوص أثر كبير في تغذية الدراسات اللغوية .

وفي فترة الطوائف، كان من رواد الدراسات النحوية العلامة اللغوي أبو الحسن علي بن سيده (ت ٤٥٨هـ) صاحب كتاب المحكم[4]، كما قدم الأندلس عام ٤٠٦هـ ثابت بن محمد الجرجاني، الذي كان مع الموفق أبي الجيش في غزوة سردينية وكان إماماً في العربية متمكناً في علم الأداب[5].

٣. العلوم الأدبية :

أ- **النثر:** منذ عصر الفتح ظهرت البوادر الأولى للأدب العربي المتمثل في الشعر والنثر والخطابة، فهنالك أبيات من الشعر وخطبة نسبت إلى طارق بن زياد، فلو صحت هذه الرويات لقررنا أن أول أدب عربي ظهر في الأندلس خلال فترة الولاة إلى أن الشك يدور حول نسبتها إلى طارق بن زياد، وقد قدم بعض الباحثين دراساتهم في هذا المجال[6]. واستمر النثر يسير على الأسلوب

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ، ٧٦٨/٢.
(٢) الحميدي، جذورة، ١٢٨/١، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥١٢/١.
(٣) المراكشي، المعجب، ١٩، السامرائي، تاريخ ٣٣١.
(٤) عنان، دول الطوائف، ٤٣٤.
(٥) الحميدي، جذوة، ٢٨٤.
(٦) السامرائي، تاريخ، ٣١١

التقليدي المشرقي في فترة الولاة، فمن نماذج النثر خطب الأمراء ووصاياهم لأبنائهم[1].

أما الخصائص الفنية لهذا النثر فهي خصائص النثر المشرقي نفسه، فهو يميل إلى الإيجاز، ويعني بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ثم خلوه من المقدمات الطويلة[2]. إلا أنه ظهرت بوادر الأدب الأندلسي، فهنالك التجديد الموضوعي الذي تزعمه أبو المخشي عاصم بن زيد العبادي الذي يتحدث عن محنته حين فقد بصره، وهذا ما يسمي بالتجديد الفني[3].

لم تبدأ الحركة الأدبية نشاطها في الأندلس إلا منذ دخول الأمير الشاعر عبدالرحمن ابن معاوية قرطبة متخذاً منها مقراً لدولة بني أمية، وذلك لاشتغال المسليمن في فترة الولاة بالفتوحات تارة، وبالفتن االداخلية تارة أخرى[4].

اشتهرت في الأندلس أسماء ما زالت أسماع المشارقة تألفها حتي الأن منها ابن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب العقد الفريد وهو عبارة عن منتخبات تأثر في اختبارها إلى حد بعيد بعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ومنها كذلك أبو علي القالي العراقي الأصل، أقام في الأندلس وأصبح مربياً للحكم الثاني، ومنها أيضا أبو بكر الطرطوشي الذي وضع بحثاً في الأخلاق والسياسه أسماه سراج الملوك[5].

اشتهر الكاتبان فطيس بن عيسي وخطاب بن زيد اللذان كان كاتبين للأمير هشام ثم لابنه الأمير الحكم وكذلك حجاج العقيلي كاتب الحكم[6].

وقد كان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ذا شهرة لدى الأندلسيين، وقد وصلت بعض كتبه إليهم مثل كتاب البيان والتبين، كما كان يقصده بعض

(١) ابن عذارى، أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧، ٦٨/٢.
(٢) السامرائي، تاريخ، ٣١٣.
(٣) السامرائي، تاريخ، ٣١٧.
(٤) سالم، قرطبة، ١٦٧/٢.
(٥) بروفنسال، حضارة، ٦٣، سالم، قرطبة، ١٦٩/٢.
(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٨/٢.

علماء الأندلس للتلمذة على يديه، وقد وجدت نماذج لبعض الرسائل والمحاورات والتوقيعات في هذا العصر تدل على تقدم النثر الأندلسي[1].

نهض الأدب الأندلسي في فترة الخلافة نهضة كبيرة ساعد عليها ما كان من رقي سياسي ونهوض ثقافي وتفوق اجتماعي، وأخذت هذه النهضة الأدبية عدة مظاهر منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر، وقد مثله ابن عبد ربه أحسن تمثيل، وكذلك أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبي عبيدة[2].

وكذلك ظهور الأنواع الجديدة في النثر؛ فبجانب الأسلوب القديم الذي كان يسمي النثر الخالص ظهر نوع جديد من النثر يسمي بالنثر التأليفي، ويتألف من فرعين الأول يسمي التاريخ الأدبي ويحتله كتاب أخبار الشعراء بالأندلس لمؤلفه محمد بن هشام المرواني، وكتاب شعر الخلفاء من بني أمية لمؤلفه عبد الله بن محمد بن مغيث المعروف بابن الصفار وهو مشهور بالعلم والأدب، جمع من أشعار الخلفاء من بني أمية كتاباً، كان أثيراً عند الحكم المستنصر[3]، ومن المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات فقدت. والثاني هو التاليف الأدبي، ويعني ظهور كتب أدبية بمفهوم القرن الثالث والرابع الهجري لكلمة أدب، وأحسن نوع يمثله هو كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.

ومن مظاهر النهضة الأدبية الأخرى تطور الاتجاهات الأدبية القديمة المعروفة، كذلك وفرة النتاج الأدبي وتنوعه إضافة إلى شيوع الأدب شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية في هذه الفترة[4]. توقف هذا النوع التأليفي في فترة الحجابة واستمر النثر الخالص، ولكن أهم ما يلاحظ على هذا الأسلوب ظهور طريقة ابن العميد وزير عضد الدولة البويهي (ت٣٦٠هـ)[5].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٤/٢

(٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٤٧/١، المقري، نفح الطيب، ٣٠٤/١

(٣) ابن بشكول، الصلة، ٢٣٧/١، الحميدي، جذوة، ٣٩٣/١.

(٤) السامرائي، تاريخ ٣٢٩.

(٥) العيادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت، ١٩٧٢، ١٧١-١٧٢. السامرائي، تاريخ /٣٣٢.

تلك الطريقة التي تميل إلى الإطناب وتعتمد على السجع والجناس مع ذكر بعض الأمثال والاشارات التاريخية مع تدعيم النشر بالشعر ولا شك أن حياة الترف كانت من أسباب الاستجابة إلى هذه الطريقة[1].

وبرز العالم أبو مروان بن حيان في فترة الفتنة الذي انصرف إلى كتابة الأدب والتاريخ، واشتهر بكتابه المقتبس وتأثر الأدب بأحداث الفتنة أولاً انتشار أدب التلهي والنفاق أو ما يسمي بأدب الهروب، وثانياً ظهر أدب التأمل والنقد أو ما يسمي بأدب المراجعة، وكان الشعر مجال النوع الأول (أدب الهروب)، وكان النثر مجال النوع الثاني (أدب المراجعة)، ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر؛ فظهرت أنواع نثرية جديدة وجادة أتاح لها انطواء بعض الأدباء وعكوفهم جواً ملائماً فيه تأمل ومراجعة مما ساعد على التخيل والتأمل[2].

وقد أشتهر أحمد بن عبد الملك بن شهيد بالأدب ومعاني الشعر، وله كتاب (حانوت عطار)[3] كما له رسالة التوابع والزوابع وهي قصة خيالية يحكي فيها رحلة في عالم الجن[4]، وتوفي في قرطبة عام (٤٢٦هـ)، وكان لحين وفاته حاملاً لواء الشعر والبلاغة[5]، أما أبو محمد بن حزم الذي عاصر دولة الطوائف فاشتهر كتاب له في هذا المجال (طوق الحمامة في الألفة والألاف)، وتناول فيه دراسة عاطفة الحب بشكل مفصل، واعتمد أسس التجربة والتحليل النفسي في منهجه[6].

نشطت الحركة الأدبية في فترة الطوائف على الرغم من الفرقة السياسية التي ضربت بلاد الأندلس، وذلك لرعاية ملوك الطوائف الأدباء والعلماء ولأن معظمهم كان من رجال الأدب، فبذلك غدت قصورهم منتديات أدبية[7].

(١) العيادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي، ١٧٢.
(٢) السمارائي، تاريخ ٣٣٤.
(٣) الحميدي، جذوة، ٢٠٩.
(٤) الحميدي جذوة، ٢١٢، السامرائي، تاريخ ٣٣٤ .
(٥) الحميدي، جذوة، ٢١٢ .
(٦) السامرائي، تاريخ ٣٣٤.
(٧) عنان، دولة الطوائف، ٤٢٣.

واشتهرت الدراسات التاريخية والجغرافية في الأندلس خلال هذه الفترة، وكان من رواد هذه الحركة التاريخية ابن حيان المعروف بكتابه المقتبس والعالم ابن حزم صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب، وكتاب نقط العروس والعالم أبو عمر يوسف بن عبد البر الذي ألف كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) وكتاب (الدرر في اختصار المغازي والسير)[1].

وكان رائد الدراسات الجغرافية في عصر الطوائف أبا عبيد البكري (ت٤٨٧هـ) صاحب كتاب المسالك والممالك وكتاب معجم ما استعجم وهو مؤلف انتفع به الفونسو العالم في تاريخه العام[2].

ب. **الشعر:** إن بعض المصادر حفظت لنا بعض الشعراء في عصر الولاة ونماذج من أشعارهم، ويأتي في طليعتهم أبو الأجدب جعونة بن الصمة الكلابي الذي يعد من قدماء شعراء الأندلس[3]، والوالي الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار الكلابي الذي كان يلقب بعنترة الأندلس[4].

هؤلاء الشعراء وفدوا من المشرق إلى الأندلس فتناول شعرهم المدح أولاً في مجال الحروب الجهادية أو في مجال الحروب القبلية[5].

أما الشاعرة حسانة بنت أبي الحسين التميمية فهي أولى الشاعرات الأندلسيات وشعرها مزيج من الرثاء والشكوي والمدح وطلب العون فهو شعر يتسم بالتجديد الفني والتركيز العاطفي[6].

وفي عهد الإمارة الأموية بالأندلس كان الشعر متأثراً بالتقاليد المشرقية، وقد ساعد ذلك وفود عدد من المغنين والمغنيات والجواري المشرقيات إلى الأندلس أمثال قمر والعجفاء وزرياب.

إلا أن طبيعة الأندلس الساحرة من مياه جارية وجبال خضراء وبساتين يانعة رفعت من مشاعر أهل الأندلس وهذبت من جفوتهم فاستخدموا ملكات الحس والخيال في وصف الطبيعة وفي إجادة تصويرها[7].

---

(١) الحميدي، جذوة، ٨٧٤.
(٢) عنان، دولةالطوائف، ٤٣٤.
(٣) الحميدي، جذوة، ٢٩٣.
(٤) عنان، دولة الطوائف، ٤٣٤.
(٥) الحميدي، جذوة، ٢٩٣.
(٦) الضبي، بغية، ٢٤٤/١، الحميدي، جذوة، ٢٩٣.
(٧) سالم، قرطبة، ١٦٨/٢.

وكان لجمال الطبيعة أثره في إسراف شعراء الأندلس في تعلقهم بها، ففي عهد الأمير عبد الرحمن الداخل الأوسط برز عدد من كبار الشعراء ومنهم عباس بن ناصح الجزيري وعبدالله بن شمر ويحيي الغزال والشاعرة القرطبية المشهورة حسانة التميمية.

ولكن هذه النهضة الأدبية التي اتسم بها هذا العصر استقلت أصولها من المشرق ثم طرأ عليها تطور تدريجي بحكم البيئة الأندلسية[1].

وفي عهد الأمير عبد الله ظهر من الشعراء الفارس العربي سعيد بن جودي الذي كان يتزعم ثوار العرب في غرناطة، وكان يمثل العصبية في صراعها ضد العصبية الإسبانية [2].

ج. **الموشحات والأزجال الأندلسية:** يجمع مؤرخو العرب الأدب الأندلسي على أن فن الموشحات نشأ في الأندلس على يد مقدم بن معافى القبري؛ أحد شعراء الأمير عبد الله بن محمد، وأخذ عنه بعد ذلك أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد[3]، وكان هذا الأمر استجابة إلى ازدهار الغناء في الأندلس منذ دخول زرياب ونتيجة لامتزاج العرب بالإسبان، وبذلك يقول ابن خلدون (فلما كثر الشعر في الأندلس وتهذبت مناحيه وفنونه بلغ التنمق فيه الغاية واستحدث المتأخرون منهم فناً فيه سموه بالموشح واستظرفه الناس جملة والخاص لسهولة تناولها وسلاستها وتنميق كلماتها وترصين أجزائها وقرب طريقتها[4].

إلا أن فن التواشيح لم يبلغ ما بلغه من عظمة وشهرة إلا في عصر ملوك الطوائف الذي ازدهرت فيه الآداب والفنون نتيجة طبيعية لتعداد المراكز الثقافية، وأول من برز في صياغة الموشحة الموسيقية عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ملك المرية[1]، وقد بلغت ذروة ازدهارها في دولتي المرابطين والموحدين.

---

(١) سالم، قرطبة، ٢/١٧٠.

(٢) ابن عذري، البيان، المغرب، ٢/١١١.

(٣) ابن خلدون، العبر، ١/٥٨٤، سالم، قرطبة، ٢/٩٩

(٤) ابن خلدون، العبر، ١/٥٨٤، سالم، قرطبة، ٢/١٨٤.

(١) سالم، قرطبة، ٢/٩٩-١٠٠.

أما الزجل فشعر غنائي يصاغ من مفردات تسمي أبياتاً كالموشحات، ويمتاز بتكرار القافية في نهاية كل بيت حتى يتيسر إنشاده مع المجموعة على نغمات العود والمزمار، وأول من ابتكر الأزجال أبو بكر بن قزمان القرطبي (ت: ٥٥٥هـ) الذي يعد إمام الزجالين التي اشتهرت أزجاله في الآفاق[٢].

(٢) سالم، قرطبة، ٢/١٠٩.

الفصل التاسع[1]

إسهامات المسلمين في الحركة العلمية

اولاً: الفلسفة:

تعتبر الفلسفة العربية إحدى المجالات الرئيسية التي أثرت الحضارة الإسلامية من خلالها أثراً كبيراً في الحضارة الأوروبية؛ حيث أصبحت المادة الأولى والمفضلة علي غيرها من العلوم والمعارف عند الأوروبيين، سواء كان ذلك في جامعاتهم أو في حياتهم الخاصة.

ولقد استطاعت أوروبا عن طريق الترجمات الكثيرة التي اضطلع بها كل من اليهود والمسيحيين في هذا الميدان أن تتعرف علي أشهر فلاسفة العرب في المشرق والمغرب مثل: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد. وقد أصبحت مصنفات هؤلاء الفلاسفة المنهج المعول عليه في دراسة الفلسفة في أشهر الجامعات الأوروبية آنذاك، ومما هو جدير بالذكر أن الفيلسوف ابن رشد كان من أكثر الفلاسفة العرب أثراً في منهج الفلسفة الأوروبي[2]. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ ويلز: ويبرز اسم ابن رشد القرطبي ممثلاً لأقصي ما بلغه تأثير الفلسفة العربية علي الفكر الأوروبي[3]، وحتى عصر متأخر كانت الفلسفة الرشدية هي الفلسفة السائدة في معظم جامعات الغرب. ومن ناحية أخرى فعلى الرغم من ذلك الأثر العظيم الذي تركته الفلسفة الإسلامية في الفلسفة خاصة والثقافة عامة إلا أننا نجد أن البعض من أبناء أوروبا من ينكر دور الفلسفة الإسلامية في ذلك الأثر، ويذهب البعض منهم إلى أكثر من ذلك عندما يرفض وجود شئ اسمه الفلسفة الإسلامية، وما ذلك في الحقيقة سوى جهل أو تجاهل أبناء أوروبا لمآثر العرب في هذا المضمار. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ سيدو: زعم الفرنج أنه لم يكن هناك فلسفة عربية وما ذاك إلا

---

(١) انظر: عبد الله كتاني، موقف بعض المستشرقين من أثر الحضارة العربية الإسلامية في قيام النهضة الأوربية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٧٢-٨٦.

(٢) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص١٥٦.

(٣) ويلز، هربرت جورج، معالم تاريخ الإنسانيه، جIII. ص ٦٦٤-٦٦٤، تعريب عبد العزيز جاويد.

لجهلهم بأشغال العرب، فإن جميع الدروس بمدارس أوربا في القرون الوسطى مستمدة من تآليف العرب الفلسفية، ومن الطبيعي أن يحاول بعض علماء المسيحية اليوم أن يقلل من أهمية تأثير التفكير الفلسفي الديني الإسلامي في علم اللاهوت المسيحي، والحق أن محاولاتهم هذه في حد ذاتها دليل على وجود هذا التأثير وعلي أهميته)[1].

وفي ختام القرن ٧هـ/١٣م، كان قد تم نقل العلوم العربية والفلسفة العربية إلى أوروبا، بعد أن شقت التيارات الفكرية الممتدة من أبواب طليطلة طريقها عبر جبال البرانس حتي بلغت مضايق الألب ثم اجتازتها إلى اللورين فألمانيا وأوروبا الوسطي، وعبرت إلى انكلترا وأصبحت مرسيليا وتولوز وأربونة ومونبلييه من مدن فرنسا الجنوبية مراكز هامة للفكر العربي، أما في شرقي فرنسا فبلدة كلوني التي أوت في ديرها الشهير عدد من الرهبان الإسبان، كانت في القرن ١٢م/ ٦هـ مركزاً هاماً لنشر العلوم العربية، وباتصال العلم العربي باللورين في القرن العاشر أصبحت تلك المنطقة مركزاً علمياً طوال القرنين اللاحقين، وغدت لياج وغورز وكولون وسواها من مدن اللورين أخصب تربة لنمو العلوم العربية، ومن اللورين سرت موجة الدراسات العربية إلى سائر أنحاء المانيا، ومنها انتقلت إنجلترا النورماندية بواسطة علماء ولدوا وتهذبوا في اللورين، وهكذا تخللت العلوم العربية سائر أنصار أوربا الغربية [2].

لقد سبق العالم الإسلامي الغرب في تأسيس الجامعات، إذ تمت به في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد وفي قرطبة علي أنقاض ما كان في مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد علي المساجد، سلسلة من الجامعات العظيمة فأضاء نورها الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب، وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوي أعداداً كبيرة من الطلاب المسيحيين، وكان تأثير الفلسفة العربية

---

(١) رشيد الجميلي، الحضارة العربية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص ١٥٧.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٥٧-١٥٨.

الآتية عن طريق إسبانيا علي جامعات باريس وأكسفورد وإيطاليا الشمالية، وعلي الفكر الأوروبي الغربي عامة جسيماً جداً[1].

وخلاصة القول فإن الفلسفة العربية كانت من أوائل علوم الحضارة الإسلامية أثراً في الحضارة الأوروبية، وإن ما عرفته أوروبا من آراء ونظريات في هذا الميدان شكلت المنهج الرئيسي لجامعاتهم، كان العرب فيها أساتذة لتلاميذهم من أبناء الحضارة الأوروبية، ولا أدل بعد ذلك اهتمام أوروبا بالفلسفة العربية من أن يؤسس جامعة خاصة تأخذ على عاتقها تدريس المصنفات الفلسفية لأشهر فلاسفة العرب بين صفوف طلبتها، ثم العمل على نشر تلك المصنفات في مناطق أخرى من القارة، وحث الجامعات الأخري على الاقتداء بها والسير علي منوالها في هذا المجال، وهذا في جوهره هو قمة ذلك الأثر الذي تركته الفلسفة العربية الإسلامية في الفلسفة والثقافة الأوروبية[2].

٢- الطب :

مما لا شك فيه أن الطب العربي قد بلغ مرتبة عالية في مراحل تنظيمه ودقة نتائجه، وأن عناية الخلفاء بهذا العلم كان لها أثرها الكبير في ازدهاره في العصر العباسي بصفة خاصة، حيث ظهرت المستشفيات الجامعة وكثر عددها، بعد أن شهد العصر الأموي وفي عهد الوليد بن عبد الملك ظهور أول مستشفي في تاريخ الدولة الإسلامية، وما تبع ذلك من ظهور نخبة ممتازة من الأطباء العرب في العصر التالي حتي أصبح البعض منهم أساتذة لأشهر أطباء الغرب، وذلك بفعل الترجمات الكثيرة لمصنفاتهم الطبية إلى اللاتينية، والتي أصبحت الأساس الذي يعول عليه لدراسة الطب عندهم منذ نهضتهم وحتي القرن ١٧م/ ١١هـ، ومن أبرز هؤلاء الأطباء الذين عرفتهم أوروبا من خلال مؤلفاتهم في هذا الميدان، الطبيبين المسلمين الرازي (رازس في أوروبا) في كتابه (الحاوي) وابن سينا (أفسينا في الغرب) في كتابه (القانون)، وقد بدأ الطب العربي يؤثر في أوروبا منذ القرن ١٠م/ ٤هـ، ولكن الأثر الواضح بدأ

---

(١) ويلز، هربرت جورج، المرجع السابق، جIII، ص٦٦٤.
(٢) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص ١٦١-١٦٢.

بعد القرن ١٣م/ ٧هـ حيث أصبح الطب العربي قدوة انبثق منها إشعاع الفكر الأوروبي في الدراسات الطبية، وأصبح المادة التي اعتمد عليها الأساتذة والطلاب في كليات الطب التي بدأت آنذاك تظهر في بادوا وبولونيا، والذي يزور كلية الطب بجامعة باريس يرى صورتي المعلمين المسلمين البارزين الرازي وابن سينا تزدان بهما أعظم الأبهاء في هذه الجامعة العريقة.

لقد عُرفت سالرنو في القرن العاشر بمعهدها الطبي، ولا يسعنا هنا إلا القول بأن الطب العربي قد أثّر من غير شك في هذه المدرسة تأثيراً قوياً إن لم يكن سبب في وجود الطب بها وتدريسه بين جدرانها. ولم تكن سالرنو جامعة بل كانت مدرسة للطب، وفي الحق إن أقدم الجامعات المسيحية في أوروبا قد ظهر إبان القرن الثاني عشر بعد الميلاد، وكانت أول جامعة غربية في أوروبا مدينة بوجودها للعلوم الإسلامية وإن لم يكن المسلمون هم الذين قاموا بتأسيسها[1].

لقد امتازت كتب العرب علي اختلاف أنواعها من كتب مختصرة إلى موسوعات ضخمة، ومن جداول الطلاب في شكل أسئلة وأجوبة إلى كتب تمهيدية ولوائح جامعة ضمت بين دفتيها كل معارف العصور السابقة والعصور الحاضرة، منظمة كأحسن ما يكون التنظيم ومتسلسلة كأحسن ما يكون التسلسل، ومشروحة في تفصيل جعل منها ثمرة سائغة في متناول الجميع.

ولقد امتازت هذه الكتب بروح علمية أصيلة وعبرت عن موهبة منهجية نظامية رائعة وعبقرية خلاقة، كانت توضح كل ما استغلق وتفسر كل ما غمض وتمعن في الوصف الدقيق لكل العوارض وأشكالها وتطورها، ولهذا كله فضلهم الغربيون في أول الأمر علي غيرهم، فأصبح العرب أساتذتهم الذين أخذوا عنهم معارفهم الطبية أكثر مما أخذوه من كتب اليونان المبعثرة الغامضة.

---

(١) رشيد الجميلي، نفس المرجع، ص ١٦٣-١٦٤.

ترى هل هناك كتب أصلح للدراسة من الكتب العديدة التي صنفها حنين بن إسحاق وكثيرون غيره علي شكل أسئلة وأجوبة، وأي كتب تمكنت من الغوص علي معارف جالينوس المبعثرة بسهولة ويسر أكثر من كتب حنين بن إسحاق ؟

إن سيلاً عرماً من الفكر العربي ومواد الحقيقة والعلم قد نقحته أيدي عربية ونظمته وعرضته بشكل مثالي، وقد اكتسح أوروبا ولو في رداء ركيك من اللغة اللاتينية.

وبعد الموجة الأولى من التي رسمت بسالرنو إلي ذروة من الشهرة العالمية التي لا تضاهي جاءت الموجة الثانية؛ تبعث الحياة في مدينة بولونية الإيطالية وجامعتها بدفعات جديدة من الذخر العربي، وأعطت مواد الدراسة المثالية إلى بادوا وباريس وأكسفورد[1].

ومن الأدلة البينة علي ذلك الأثر الذي خلفه العرب في الطب الأوروبي، وجود العديد من المصطلحات الطبية العربية في اللغات الأوروبية. فقد تسلل إلى اللغات الأوروبية الكثير من الكلمات العربية ذات المدلول الطبي، وإن انتقال هذه الكلمات دون تغيير إلى اللغات الأوروبية يدلنا علي عمق ما نحن بصدد بحثه الآن. وفي مراكز العلم الأوروبية لم يكن هناك عالم واحد بين العلماء إلا ومد يده إلى العلوم العربية هذه يغرف منها ما شاء أن يغرف، رغبة منه في سد الثغرات التي لديه وفي الارتقاء إلى مستوي عصره العلمي. ولم يكن هناك كتاب واحد من بين الكتب التي ظهرت في أوروبا آنذاك إلا وقد ظهر فيه تأثير العرب واضحاً كل الوضوح، ليس فقط في كلماته العربية بل في محتواه وأفكاره. فالكتب التي درسها الدارسون واستند إليها الباحثون كانت كتب حنين بن إسحاق والرازي وابن سينا، وكما كانت الثقافة اليونانية منهلاً للعرب كذلك أصبحت الثقافة اليونانية العربية منهلاً للأوروبيين المتعطشين للعلم والمعرفة، وأساساً لعلم الطب الأوروبي[2].

---

(١) هونكة، زيغريد، شمس العرب تسطع علي الغرب، ص ٢٨٥-٢٨٦. ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقي.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ٣٠٥.

وأخيراً إن الطب العربي كان الأساس الذي قام عليه الطب الأوروبي جملة وتفصيلاً، وأنه لولا العرب لما عرفت أوروبا مصنفات اليونان الطبية التي أهداها العرب لأبنائها مضافاً إليها شروحهم وتفاسيرهم، بل إن ما عرفته أوروبا من مدارس طبية في سالرنو وبادوا ومونبلييه وستراسبورغ وباريس وأكسفورد... وغيرها، كانت المستشفيات العربية الجامعة الرائدة لها في مناهجها وبرامجها الطبية، ومن جهة أخرى يمكن القول أنه لولا مصنفات العرب في هذا المضمار كالقانون لابن سينا والحاوي للرازي وغيرها، لتأخرت نهضة أوروبا الطبية تاخراً كبيراً، وبنفس المعنى نستطيع القول أنه لولا جهود قسطنطين الأفريقي (المتوفى عام ١٠٨٧م) وجيرارد الكريموني وغيرها في ترجماتهم لمصنفات العرب في هذا الباب لزاد الأمر تعقيداً عند أهالي تلك القارة؛ في معرفتهم بأمور ما توصل إليه العرب وما حققوه في هذا المجال بصفة خاصة، تماماً كما لو لم يفعل العرب في ترجماتهم لمصنفات الإغريق الطبية، وعليه يمكن القول أن الطب الأوربي اليوم ما هو إلا طب الحضارتين اليونانية والعربية زائداً نتائج الاختراعات والاكتشافات التي توصل إليها أطباء أوروبا ابتداء من عصر النهضة وحتي العصر الحاضر(١).

٣- الصيدلة:

مما لاشك فيه إن الصيدلة العربية كان لها دورها الإيجابي في مجال نشوء الصيدلة الغربية، إذ ساهمت منجزات العرب العلمية هنا في مجال الأقرباذين بصفة خاصة في ظهور الصيدلة الأوروبية، وأن ما ترجم إلى اللاتينية من مصنفات العرب في هذا المضمار، كان من أهم العوامل التي ساعدت علي ازدهار الصيدلة في الغرب(٢)، وهكذا نجد أن رأس الجسر الذي انتقل بصناعة الصيدلة من العصور الوسطي إلى العصر الحديث كان من صنع العرب، في القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد)، ذلك أن البلاد الأوروبية لم تعرف الصيدليات بمفهومها العربي والحديث إلا

---

(١) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٢) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص١٧٠.

بعد وقت طويل. وعن العرب أيضاً أخذ الأوروبيون طريقة الأقراباذين التي يقوم الصيدلي علي أساسها بتحضير الأدوية، هذا وقد غمر البلاد الأوروبية دفق من العقاقير العربية عن طريق البندقية وصقلية، وتدفقت معها أيضاً كتب كثيرة من علم الأدوية والأقراباذين بواسطة رجال مثل قسطنطين الأفريقي وصلت حتي بلاد الراين؛ حيث سطع تأثيرها في الآفاق فقلدها المقلدون وأفاد منها المبتكرون[1].

وفي علم الصيدلة كما في علم الكيمياء أو الفلك أو الرياضيات، ترى أن الكثير من أسماء العقاقير العربية قد دخلت اللغات الأوروبية وظلت علي حالها حتي الوقت الحاضر، مما يدلنا علي أحد الجوانب الرئيسية لتأثير علم الصيدلة العربي في نظيره الغربي، وفي هذه الأسماء التي أوردها لنا الباحثون في هذا المجال، نذكر علي سبيل المثال: الجوز المقي Nux Vomica وسنامكي Senna، والراواند Rhubart، والببسي Aconite، والعشبة المرة Gentian، والمر المكاوي Myrra، وزئبق الحلو Colomel[2].

لقد أسهمت الصيدلة العربية إسهاماً مباشراً وفعالاً في ظهور الصيدلة الغربية وإيصالها لمكانتها الحالية، وإن ما برز به العرب في مجال صناعة العقاقير وتنظيم الحسبة لأمور الصيدلة ومراقبتها مراقبة دقيقة لأهمية ذلك في حياة عامة الناس، واستقلال علم الصيدلة عن علم الطب وتأسيس حوانيت الأدوية (الصيدليات اليوم) ومستودعاتها (مذاخر الأدوية اليوم) وتدريس الصيدلة إلى جانب علم الطب في المستشفيات الجامعة وإلحاق الصيدليات بالمستشفيات، وانتظام الصيادلة في نقابة خاصة بهم كما جرى بالنسبة للأطباء في أول الامر، وجود نقيب خاص بهم يشرف على شؤونهم ومهنتهم، وإيجاد نظام امتحان الصيادلة مثلما حصل للأطباء فيما سبق إلى غير ذلك، أقول إن جميع هذه المآثر في علم الصيدلة قد أخذتها أوروبا عن الحضارة الإسلامية، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في قيام وتنظيم الصيدلة فيها،

(١) هونكة، زيغريد، المرجع السابق، ص ٣٣١-٣٣٢.
(٢) بوفالت، روبرت، أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية، ترجمة أبو النصر أحمد، ص ١٥٤.

فالصيدلة العربية في ازدهار الحضارة الإسلامية هي ذاتها الصيدلة الأوروبية إبان عصر النهضة[1].

٤- الرياضيات :

تعتبر العلوم الرياضية العربية في الحساب والجبر والهندسة والمثلثات إحدى الركائز التي استندت عليها نهضة أوروبا العلمية، عندما ترجمت إلى اللغات اللاتينية أشهر مصنفات العرب في هذا المضمار، والذين قطعوا شوطاً بعيداً في الارتقاء بالعلوم الرياضية إلى درجة قربت معها من مرتبة الكمال، ففي الحساب أثر العرب في أوروبا بما عرف عندهم فيما بعد باسم الأرقام العربية، وهي الأرقام التي أخذها العرب عن النظام الهندي في علم الحساب؛ إضافة لما أوجدوه من تتمة مهمة لهذه الأرقام بإختراعهم نظام (الصفر) [2].

بخصوص علم الأعداد والحساب تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة: إن العالِم العربي (الخوارزمي) هو الذي علم أوروبا الأعداد الجديدة وطريق الحساب، وأصبح علماً علي الطريقة الحسابية الجديدة وتكرار قسمة الأعداد وعلي العلم المعروف اليوم باسم (اللوغاريثمات)، وقد وجد لهذا العلم الأنصار الذين كافحوا من أجل استخدام طريقة الحساب في إسبانيا والمانيا وانجلترا، وتغلبوا علي خصومهم الذين كانوا يناصرون الطريقة القديمة حين اشتهروا باسم الأبجديين، كما عرف أنصار الخوارزمي الذين تشربوا بطرقه الحسابية واستخدام نظام (الخانات) و (الصفر) باسم (اللوجرتميين)، وقبل ظهور هذا العالم العربي لم يكن لأوروبا دراية بالعلوم الرياضية ولا اليونانية الهيلينية التي كانت قد ذبلت، كما عرفت أوروبا الأعداد العربية وأخذت تؤدي دورها في العلوم الطبيعية والصناعية والاقتصاد وسائر علوم الاتصال بين الشعوب الراقية في العالم وفي مختلف العصور، ومن هنا نرى كيف دفعت الحضارة العربية حضارة العالم نحو الأخذ بأساليب العلم الراقية[3].

---

(١) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص ١٨٩.
(٢) رشيد الجميلي، نفس المرجع، ص ١٧١.
(٣) أنور الجندي، من عطاء الإسلام للبشرية، مجلة الأمة، ع ١٦، ص ١١، السنة ٢، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

إن أسلوب الرياضيات الذي عرفه الغرب عن طريق العرب، كان في حقيقة أمره فتحاً مبيناً جديداً؛ ذلك لأن الزي الهندسي الذي كسا الإغريق الرياضيات به، هذا العلم نزعه العرب وعوضوا عنه بآخر جبري حسابي، بعد أن وجدوا أنه لم ترق لهم الرسوم الهندسية أداة للتعبير عن أعدادهم وحسابهم كالمعادلة الرباعية وتقسيم الزوايا إلى ثلاثة أقسام متساوية، وانصرفوا كذلك إلى حل هذه المسائل بواسطة المعادلات الجبرية الحسابية الصرفة، فهذه الطريقة في قولبة الرياضيات جبري وحسابي، لهي من الأعمال التي حققها العرب ثم أخذها الغرب عنهم ليحتفظ بها حتى العصر الحديث. وكما فعل العرب كل هذا كذلك فإنهم يعتبرون المؤسسين الحقيقين لعلم المثلثات، وهذا لعمري ميدان لم يخضه الإغريق البتة ولم يعرفوا عنه شيئاً، ولكن العرب جاءوا ليضعوا مبدأ (الجيب) و(المماس) والأشكال الأساسية لعلم المثلثات، ولهذا يكون العرب قد خلقوا ميداناً فسيحاً من العلوم كان من قبلهم مجهولاً، صارت له أهمية كبرى في علم الفلك والإبحار ومسح الأراضي وقد دخلت لفظة الجيب إلى رياضيات كل شعوب الأرض بواسطة العرب[1].

وعلي العموم فإن آثار العرب في علوم الرياضيات والتي استغلتها القارة الأوروبية لمصالحها الخاصة لأقصي درجة هي التي مكنت هذه القارة من تجسيد جميع ابتكاراتها واكتشافاتها، وإيصالها إلى المكانة التي تحتلها اليوم كمنطقة بارزة من العالم في التطور الحضاري والثقافي[2].

٥- الفلك :

يعتبر علم الفلك العربي أحد العلوم الهامة التي استطاع العرب من خلاله، أن يثبتوا مقدرتهم وكفاءتهم العلمية في القارة الأوروبية العرب أمثال الكندي والخوارزمي والفرغاني والبتاني وغيرهم، مما عدا الأساس الذي بني عليه علم الفلك الأوروبي، وإن ما توصل إليه العرب من تصحيح لآراء السلف في هذا الميدان من جهة، وما جاءوا به أنفسهم من آراء ونظريات جديدة لم تكن

(١) هونكة، زيغريد، المرجع السابق، ص ١٥٩-١٦٠.
(٢) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص ١٧٦.

معروفة من قبل من جهة ثانية، كان العامل الأساسي وراء ذلك الإقبال الشديد للأوربيين علي تراث العرب الفلكي، والحق أن العرب أتحفوا الغرب بعدة آراء جديدة ومعلومات واسعة النطاق في الجغرافية الفلكية؛ ففي إسبانيا عظم الإقبال علي العلوم الفلكية بعد منتصف القرن العاشر، وخص أمراء قرطبة وطليطلة وإشبيلية هذه العلوم برعاية وعناية، ونقلت معظم كتب الفلك الإسلامية في إسبانيا إلى اللاتينية، ومن دراسة العرب للنجوم جاءتنا أسس علم المثلثات الكروية والاستوائية، وليس جمهرة أسماء النجوم في اللغات الأوروبية، عربية الأصل فقط أمثال: العقرب والجدي Alegedi والطائر Altair والفردق Pherkad بل كثيراً من مصطلحاتها الفلكية يرجع إلى ألفاظ عربية أمثال: السموت Azimutin والنظير Nadir و(السمت) Zenith[١].

لقد أبدع علماء الفلك العرب في تنظيم الجداول الفلكية، وفاقوا في ذلك من سبقهم من علماء اليونان، وهذه الجداول الفلكية هي ذاتها التي استند عليها علماء الفلك في القارة الأوروبية في مسارهم لتحقيق أغراضهم المختلفة من ورائها[٢]. ومن جهة يمكننا القول أن علم الفلك العربي كان سبباً في ظهور الكثير من الشخصيات العلمية في القارة الأوروبية والذين نالوا شهرة في عصرهم وحتي يومنا هذا بسبب اعتمادهم علي منجزات العرب في هذا المضمار، وأنه لولا جهود العرب هنا لما عرفوا هؤلاء، ولما استطاعوا أن يصلوا إلى تحقيق ما أرادوا أصلاً، أو كما يقول برفالت بهذا الخصوص: أنه لولا علم الفلك العربي لما كان هناك كوبرنيكس أو نيوتن[٣].

لقد أثر العرب علي بلاد الغرب في علمي التنجيم والهيئة تأثيراً كبيراً في وقت كانت فيه معارف آباء الكنيسة والرهبان محصورة بالثقافة القديمة، فوقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه العلوم المثيرة للدهشة بدلاً من التدقيق فيها قصد رفضها أو قبولها بطريقة منطقية علمية صرفة، وأصبحت الأبحاث الفلكية في أوروبا رهينة الألغاز، وبقي الأمر علي هذا الحال إلى أن اكتسب

(١) رشيد الجميلي، نفس المرجع، ص ١٧٧-١٧٨.
(٢) هونكة، زيغريد، المرجع السابق، ص ١٤.
(٣) برفالت، روبرت، المرجع السابق، ص ١١٥.

علم الهيئة عن طريق علم التنجيم أهمية كبرى، ونال قسطاً من اهتمام الناس به، وكانت آلات الرصد الفلكية الوحيدة في أوروبا آنذاك التي أقامها الفلكي الدنمركي (تيخوراهي الذي عاش خلال سنوات١٥٤٦- ١٦٠١) في مرصده الجوي، تدين بفضل وجودها وتحسينها وتطويرها إلى هدف العالم المنشود، وما كان هذا الهدف إلا الرغبة في دراسة العوامل الفلكية بدقة أكثر لتقدير العوامل السياسية حق قدرها وإبعاد الأضرار عن المملكة[١].

وهكذا كان علم الفلك العربي الأساس الذي ارتكز عليه علم الفلك الأوروبي في مراحل قيامه وتطوره، وإن ما أوردناه آنفاً من أسماء لكثير من المصطلحات الفلكية العربية التي دخلت اللغات الأوروبية، وأسماء الفلكيين العرب الذين عرفتهم أوروبا من خلال مصنفاتهم في هذا المضمار، واستعمال أوروبا للإسطرلاب والجداول الفلكية العربية وظهور الكثير من المؤلفات الأوروبية في هذا الميدان المستندة علي ما يماثلها لعلماء الفلك من العرب، وبروز بعض علماء أوروبا في هذا المجال ممن استفادوا من خبرة وتجارب العرب في هذا العلم، اقول إن كل هذا مما ذكرناه آنفاً، يشير بصورة جلية إلى تلك المنزلة السامية التي بلغها علم الفلك العربي في نفوس الأوروبيين عامة، الأمر الذي كان له أعظم الأثر في قيام وازدهار علم الفلك الأوروبي[٢].

وليست ثمة داع لاستعراض أو حتي الإشارة إلى إسهامات المسلمين الكبيرة في حقول العلوم الإنسانية كالتاريخ والاقتصاد والسياسة والتربية وعلم النفس ومناهج البحث والاجتماع والنظم الإدارية والآداب والفنون وغيرها، وتأثيراتها في مجرى الحضارات البشرية وخاصة الحضارة الغربية، فهي أوضح للعيان وأشد حضوراً من أن يشار إليها ويدلل عليها[٣].

---

(١) هونكة، زيغريد، المرجع السابق، ص ١٧٤.
(٢) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص ١٨١.
(٣) عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص ٨٣-٨٤.

الفصل العاشر[1]

الإسلام وحماية البيئة

تمهيد:

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان أشرف الموجودات، فهو خليفة اللّه في أرضه والذي أسجد له ملائكته ونفخ فيه من روحه وأستنطقه حتى شهد بأن اللّه ربه أي معبوده الحق، كما أنه سبحانه وتعالى هو بارئه ومنشئه كما سخر له كل ما فى السماوات والأرض جميعاً منه وأرسل إليه الرسل، وأنزل معهم الكتب مبشرين ومنذرين بها ليقوم الناس بالقسط، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيى عن بينه، وحتى لا تكون له حجة بعد الرسل، وكرمه بالعقل وانفرد به من دون سائر مخلوقات اللّه سبحانه وتعالى لكي يزن به يقدر الأمور من حوله.

وهذا الإنسان بخلقته وفطرته وطاقاته وقدراته كرمه اللّه في السماء بذكره في الملأ الأعلى وكرمه في البر والبحر فيقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠].

وفي هذا المعني يحدثنا ابن كثير: يخبر اللّه تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم وكرامة عظيمة من اللّه تعالى لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث كثيرة منها حديث الشفاعة وحديث موسى عليه السلام، فلما اجتمع به قال: أنت آدم الذي خلقه اللّه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته.

مفهوم البيئة:

للبيئة مفهوم واسع واستخدامات متعددة؛ فالبيئة هي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان فرحم الأم بيئة الإنسان الأولى، والبيت بيئة والمدرسة بيئة والحي الذي نعيش فيه بيئة والكرة الأرضية بيئة والكون كله بيئة.

---

(١) انظر مجلة الإسلام اليوم، العدد ١٤–١٩٩٥م، مجلة دوية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، مقال التربية للدكتورة: آمنة محمد نصر، كلية الدراسات الاسلامية والعربية، لبنان، الاسكندرية ص٦٣–٩٩.

وقد وضع خبراء البيئة تعريفاً محدداً للبيئة عندما اجتمعوا في ستوكهولم سنة ١٩٧٢م وتحت مظلة الأمم المتحدة: وهو البيئة هي جملة الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته.

وبناء على هذا فالبيئة تضم الموارد الطبيعية كالماء والهواء والتربة ومصادر الطاقة والمعادن والنباتات والحيوانات، وإن أي تلويث لهذه الموارد يسمع ويؤثر في خارج حدود البلد التي فيها التلوث، ولعل حادثة إنفجار المفاعل الذري في تشرنوبيل بروسيا، هذه الحادثة أو الكارثة ازعجت جميع دول أوروبا والدول الأخرى القريبة التي يمكن أن يصل إليها آثار هذا المفاعل الرهيب، ولعل سكب النفط وتسربه في مياه الخليج يهدد كل دول المنطقة بالتلوث. ومن هنا كانت أهمية التعاون الدولي عبر الأمم المتحدة أو الهيئات العلمية المختلفة في مواجهة مشكلة التلوث؛ لأننا نعيش في كوكب واحد، ومستقبل البشرية مشترك خاصة في هذه المرحلة التي تشابكت فيها المصالح لسكان هذه الكرة الأرضية بعد تقدم وسائل المواصلات والاتصالات المختلفة بصورة متقدمة حتى أصبحت الكرة الأرضية وكأنها حارة واحدة. ولعل ما نسمعه في هذه الفترة عن ثقب الأوزون نتيجة استخدام الغازات في الصناعة بات مشكلة عالمية أدت إلى تغييرات مناخية في أنحاء العالم تهدد الإنسان والحيوان، فالبيئة بعناصرها وتفاعلاتها مع بعضها تشكل الكون الذي هو بيئة الإنسان والكون بما فيه من مجرات وسدم ومجموعات نجمية ونجوم وكواكب وأقمار ومذنبات ونيازك وشهب..... إلخ، كل هؤلاء يكون نظاماً مترابطاً ومتكاملاً، وأن هذا النظام الديناميكي تحكمه علاقات وقوى محددة دقيقة، ولو أختل بعضها لأثر في حركة هذه المكونات وسبَّب اضطرابات تهدد كل ما فيه أو بعضه؛ فانقلاب مجموعة نجمية على القوى المتحكمة في حركتها قد يؤدي إلى انطلاقها في فضاء الكون الشاسع، وتبعثر مكوناتها أو اصطدامها أو إندماجها ببعضها البعض، وفي هذا ما فيه من خطر على أيه حياة قد تكون في أي من هذه المكونات.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [فاطر: ٤١].

ومن الحقائق العلمية الهامة عن مجموعاتنا الشمسية ان مجرد اختلال كمية الطاقة الشمسية التي تصل إلى سطح الارض كافٍ لجعل الأرض حارة إلى حد لا يسمح للحياة بالبقاء أو تكون باردة إلى الحد الذي يقضي على الحياة، فسبحان الذي خلق كل شيء بميزان دقيق.

عقيدة الاستخلاف وارتباطها بحماية البيئة:

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان أشرف الموجودات؛ فهو خليفة الله في أرضه فلا عجب أن يكرم الله الإنسان في هذه الأرض بما فيها من طاقات وخيرات سخرها له في البر والبحر من مختلف الألوان والآيات لخلق الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦/٧].

وإذا كان الإنسان مستخلفاً في هذه الأرض؛ فعليه أن يتذكر المالك الحقيقي لهذه الأرض ومن عليها: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ومن مواطن الاستخلاف أيضاً إلى جانب الملك والمال ألا يعبد إلا الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

استخلف الله الإنسان في الأرض وهو عليم بطاقاته وقدراته النفسية والعقلية والعلمية التي خلقها وإن كانت الملائكة لم تتبين كنه ذلك في استفهامها من ربها: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

إذن فالإنسان أعظم المخلوقات في هذا الكون وأثمنها؛ لأنه المستخلف من قبل الخالق سبحانه وتعالى، ولكن للأسف أنه قلما يتصرف على ضوء هذه الحقيقة، وبما يتناسب معها سواء مع نفسه أو مع من حوله من بشر أو بيئة، فقد خلقه الخالق العظيم وأتقن خلقه مع هذه البيئة المحيطة به على سطح هذه الكرة الأرضية، ومثال عظيم على دقة الصنع وتناسبها مع البيئة التي وجد عليها، نجده في تكوينه المتميز مع جاذبية الأرض، وهو شكل يعتبر ناجحاً بالمقاييس الحيوية، وما حدث لرواد الفضاء وعدم تناسب البيئة القمرية مع جاذبية الإنسان؛ حيث تبلغ جاذبية القمر سدس جاذبية الأرض، ومغزى ذلك أن الله خلق الإنسان لهذا الكون في صورة دقيقة متلائمة مع البيئة التي يعيش عليها ويعمرها، ولهذا أوجبت المسؤولية تجاه هذه البيئة رعايتها من منطلق عقيدي وخلقي، ومسؤولية الحرص على مصلحته ومصالح أجياله القادمة مع هذه البيئة؛ حتى تبقي بصلاحها لحياة الآدمي كما خلقها الخالق له، وعلى الإنسان ألا ينسي أن أي تدمير لها سواء في تربتها أو في هوائها أو زرعها أو فضائها أو مائها معناه تدمير للإنسان ويقول سبحانه وتعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾** [العنكبوت: ٢٠].

ويقول تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة: ١٦٤].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد وقفت الأمم المتحضرة للدفاع عن البيئة وعقدت المؤتمرات لها، وتقدمت النظريات والأبحاث في كل مجال لصد الأذى عنها، ومطالبة الإنسان في كل مكان بألا يتصرف مع البيئة بمفهوم السيد المطلق يتصرف في إفسادها أو التعامل معها دون مراعاة لحمايتها، وإن كانت الأرض في الماضي امتصت هذه التصرفات غير المسئولة عن سلامة البيئة فكانت تمتص

هذه الأخطاء نظراً لقلة عدد الإنسان في الماضي، ولذلك كانت قادرة على احتمال تصرفات الإنسان الخاطئة وامتصاص أذاه، ولما تزايد عدد الناس وتفاقمت تصرفاتهم المؤذية تجاه الأرض لم تعد هذه الأرض احتمال ذلك دون أي أثر ما يرتكب في حقها من أخطاء وأذى.

نستخلص مما سبق حقائق هامة حول علاقة الإنسان بالكون في ضوء الشريعة الإسلامية تعتبر من الضروريات في حياة الإنسان المستخلف في هذه الأرض:

١- علاقة الإنسان المسلم بالبيئة علاقة دينية وخلقية ورد في شأنها عشرات النصوص من الآيات الكريمة ومن السنة الصحيحة، وهذا ما سوف نسوقه في حينه في ثنايا هذا البحث والتي تقرر أصول التعامل مع البيئة من حولنا.

٢- رعاية الإسلام للبيئة من منطلق عقيدي وهذا الشأن له مدلول هام على رأسها أن الإخلال أو الإفساد في الأرض من أي نوع من أنواع الفساد سواء في البيئة الطبيعية أو الاجتماعية يعتبر مخالفاً للشرع يعاقب عليه صاحب ومالك هذا الملك.

٣- البعد الأخلاقي في التعامل مع البيئة مسألة ضرورية من أجل استقامة الحياة وسير نظام الوجود سيراً محكماً ملتزماً بأسبابه ومسبباته، وأن على الإنسان أن يدرك تمام الإدراك أن المالك الحقيقي لهذا الكون هو اللّه سبحانه وتعالى، وأننا مستخلفون فيها من قبله تعالى فلابد من أن يراعى الإنسان القوانين الخاصة بحماية هذا الكون والتي فرضت من قبل مالكه الحقيقي سبحانه وتعالى إذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة التي يقررها الإسلام في علاقة الإنسان بالبيئة لتجنب كثير من الويلات اللا أخلاقية التي لحقت بالبيئة مثل الحروب الذرية والكيماوية التي استخدمت في الحروب المختلفة، والتاريخ شاهد على عدد كبير من هذه الحروب التي جاءت بمثل هذه الكوارث البعيدة عن الخلق القويم تجاه البيئة والإنسان الذي يقطنها.

٤- ربط الثواب والعقاب لرعاية الإسلام للبيئة وتوقيع الجزاء والعقاب لمن يفسد في الأرض فيقول تعالى: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾** [محمد: ٢٢].

٥- الإسلام أكد وحض على مكانة الإنسان، والعالم الذي يصل بعلمه إلى معرفة آيات الله في الكون والأرض والفلك والطب...الخ وتوظيف هذا العلم إلى إدراك قيمة نعم الله بهذا التسخير الإلهي للإنسان يقول تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾** [الطارق: ٥]، **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾** (الحج/٤٦)، **﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾** [ق: ٦]، **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾** [الشعراء: ٧].

٦- في ظل هذه العقيدة لابد أن نفهم فهماً صحيحاً بكل عناصرها ومقوماتها وتفاعلاتها المتبادلة مع العمل الجماعي الجاد؛ لحماية هذه البيئة وضمان استمرارها موطناً مقبولاً للحياة في الحاضر المستقبل.

التوازن في خلق الله للكون:

كرتنا الأرضية مجرد كوكب في المجموعة الشمسية تتكون كبيئة من عناصر أساسية هي: الهواء والماء والقشرة الأرضية ومما في باطنها، والنبات والحيوان والإنسان والطاقة الشمسية التي تصل إليها، ويمكن أن نضيف لهذه حركة الأرض حول الشمس وعلاقتها بالقمر.

وتتفاعل هذه العناصر وما يتفرع عنها معاً تفاعلاً معقداً متشابكاً ولكنه محدد، وينتج عن ذلك كون هذه الكرة بيئة صالحة للحياة ولاستمرارها وهو الأهم.

ومن المتعارف عليه عملياً أن البيئة تتجزأ إلى بيئات أصغر، وكل بيئة صغيرة ككل بيئة كبيرة مكونة من العناصر نفسها، وهي إن كانت محدودة الحجم وواضحة الحدود تكاد تكون شبه مستقلة إلا أنها ليست مستقلة؛ ذلك لأنها تتأثر بالبيئات من حولها وبالبيئات الأكبر منها، والتي

تكون هي جزءاً منها تتفاعل مع كل هذه تفاعلاً مستمراً، ومن أهم مميزات أية بيئة صغرت أم كبرت أنها متزنة اتزاناً مرناً رغم كثرة العوامل والعناصر الداخلة المؤثرة فيها. ولنضرب لذلك مثالاً فلو حدث لأي سبب كان أن قطعت النباتات الباسقة أو ماتت لتغير الاتزان السائد في تلك البيئة، إذ عندما يصل الضوء ساطعاً حيث كان الظل تتأثر النباتات الصغيرة التي كانت تنمو فتموت وينمو غيرها من الأنواع المحبة للضوء، وتهرب أو تموت الحيوانات التي تسكن هناك محتمية بالظل، وتسكن البيئة حيوانات غيرها من التي لا تعبأ بالضوء أو تفضله، وكم من مرة حدثت كوارث للبيئة في تناسق النباتات مما قضي على توازنها وتعايشها مع ما فيها من وحدة متكاملة، فاتزان أية بيئة تحكمه العوامل التي تحدد البيئة، وتحد من طغيان عنصر فيها على الباقين، وينطلق هنا المثل الغربي القائل بأن السلسلة لا يمكن أن تكون أقوى من أضعف حلقة فيها.

فالتغيرات في البيئة دورية كما تكون في بعض الأحيان غير منتظمة، ولكن الغالب أن هذه التغيرات لا تسبب إخلالاً بالاتزان الديناميكي في البيئة، ولا يحدث التشفير الجذري إلا في الكوارث، وحسب حجم الكارثة يمكن بعد فترة من الزمن لا تلبث البيئة أن تصلح آثاره وتعود سيرتها الأولى من التوازن.

يقول سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾** (القمر/٤٩)

يقول سبحانه وتعالى: **﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** [يس: ٤٠]، **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾** [الدخان: ٣٨]، **﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الدخان: ٣٩]، **﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾** [الزمر: ٥]، **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٢].

هذا هو خلق الله للبيئة وما فيها من مخلوقات سواء في الأرض أم في السماء، نجد كل ما خلقه وأبدعه الصانع فيه الاتزان والتوازن، وأن نظرة تأمل ودراسة إلى ما وصل إليه العلم الحديث، وما قاله أكبر العلماء عن دقة هذا الكون العظيم وكيفية خلقه بهذه الصورة البارعة التي إن اختلفت عنها لاختفت الحياة عن هذه البسيطة؛ تثبت لنا أن وراء دقة هذا الكون وروعة نظامه واحداً أحداً لا يشاركه في ملكه إله آخر: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

يقول دكتور كريس موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك وعضو الجمعية الملكية البريطانية في كتاب له ترجم إلى العربية بعنوان (العلم يدعو للإيمان Man does not stand alone):

إن الشمس التي هي مصدر الحياة تبلغ درجة حرارة مسطحها ١٢,٠٠٠ درجة فهرنتهيت، وكرتنا الأرضية بعيدة إلى حد يكفي لأن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافي لا بأكثر منه، وهذه المسافة كان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها، ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية زادت عشرين درجة في سنة واحدة فإن كل نبت يموت ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجمداً.

ويستطرد في كتابه قائلاً: والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلاً في الثانية، ولو أن معدل دوراتها كان مثلاً ستة عشر ميلاً في الثانية؛ فإن بعدنا من الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا، ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط لكنا تجمدنا، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحنا رماداً من زمن بعيد، وسبحان الخالق العظيم الذي خلق كل شئ فقدره أحسن تقدير: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: ٥٠].

ويقول ايضاً دكتور موريسون: ويبعد القمر عنا مسافة ٢,٤٠٠,٠٠٠ ميل، ويذكرنا المد الذي يحدث مرتين بوجود القمر، والمد الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن؛ بل أن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو

الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر، ويبدو لنا ان كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مسافة المحيط كلها عدة أقدام، وتنحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية، ولو أن القمر يبعد عنا خمسين الف ميل مثلاً بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها، وفي هذه الحالة كانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب، وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم.

سبحان الخالق العظيم الذي خلق كل هذا وسخره للإنسان المستخلف في الأرض: **﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾** [الأعراف: ٥٤]، يقول تعالى: **﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [النمل: ٦١]، ويقول تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾** [الحجر: ١٩]، يقول تعالى: **﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** [يس: ٤٠]، ويقول تعالى: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [الجاثية: ١٣].

ويواصل دكتور كريس موريس حديثه حول خلق الله للكون بهذه الصورة الرائعة والتي نجد القرآن الكريم أشار إليها منذ أن نزل فيقول: لو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة بهذه الدرجة لكان القطبان في حالة غسق دائمة، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالاً وجنوباً مكدساً في طريقه قارات من الجليد، ولتكون أيضاً بركان من الملح الأجاج ولتفرطح الاستواء وانخفض المحيط بعرض مساحات شاسعة من الأرض، ويقلل من هطول المطر في جميع أرجاء العالم مما ينجم عن ذلك عواقب وخيمة.

كذلك لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات

أو الإنسان أو الحيوان، والحقيقة أننا لو أردنا أن نتتبع ما كتب حول دقة صنع الخالق لهذا الكون في سمائه وأرضه لاحتاج الأمر إلى مجلدات، ولكن سقت هذه الشذرات مما كتبه العلماء. لكن أوضح حقيقة هامة يجب على الإنسان المسلم إدراكها في تعامله مع بيئته التي خلقها له الخالق فأحسن خلقها ودقق في صنعها من أجل أن نصونها ونحميها؛ لا من أجل العبث فيها كما يحدث الآن من كوارث بشعة من صنع الإنسان ضد البيئة ومكوناتها، ولذلك فإن الشريعة الإسلامية تربط حماية البيئة بالعقيدة؛ لأن مكونات البيئة ما هي إلا آيات اللّه في أرضه ليرينا اللّه جلاله وقدرته فيها.

ولذلك فإن رعاية البيئة من الكوارث سواء كانت من فعل عبث الإنسان أو عدم مراعاة أصول التعامل معها، يجب على البشرية أن توليها حق الرعاية سواء بالعلم والبحث عما يدعم مواردها الطبيعية أم حسن استعمالها أو طريقة علاج الموارد بالصورة التي لا تؤذي الإنسان، فمثلاً المعادن التي تستخرج من الأرض فهي محدودة، وعليه أن يتعامل في استخراجها بتدبر وحذر، ومن هنا وجب على الإنسان أن يحسن استغلالها واستعمالها، وألا يقف عند مصلحته المباشرة، وأن ينظر إلى أن هذه البيئة بثرواتها له هو ولأحفاده من بعده حتى يحرص على توازن هذه الثروة قبل أن يقضي عليها.

كما يجب عليه دائماً البحث عن مصادر جديدة لهذه الثروات ليس في الأرض اليابسة فقط بل تحت البحار والمحيطات وفي باطن الأرض. كما يجب التفكير دائماً في إعادة تصنيع والاستفادة من المعادن المصنعة التالفة.

تنظيم الإسلام لقوانين البيئة في حمايتها وتوزيع ثرواتها :

اعتني الإسلام بالبيئة بكل معانيها وأبعادها سواء ما يخص الأرض وقوانين التعامل معها، أم علاقة الإنسان بها في حالة تملكها أو رعايتها والحرص عليها من كل أذى يصيبها نتيجة عبث الإنسان مع رعاية العلم والعلماء الذين يسعون للترقي في العلم، لكي ينهضوا بالبيئة بكل أنواعها وأبعادها سواء فيما يخص الإنسان أم مكونات الكون من سماء وأرض وبحار وجبال....الخ، وأفرد فقهاء الإسلام لقوانين الملكية الجماعية والفردية العديد

من أبحاثهم واجتهاداتهم للوصول إلى أفضل استعمال للبيئة، وصيانة التعامل معها فاهتم الفقهاء بتعريف الملكية ومدى التصرف والانتفاع بها على وجه شرعي، وتشمل الملكية الفردية والملكية الجماعية مع التأكيد على حسن الانتفاع الكامل سواء للمالك أو للأرض المملوكة يقول تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** [البقرة: ٢٩]، ويقول تعالي: **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾** [لقمان: ٢٠].

ويؤكد الفقهاء على أن الإسلام قد قرر الحقوق ومنها حق الملكية محدودة بأوامر الشارع ونواهيه إجتناباً للهوي والنزعات الفردية، ولكي لا تتخذ هذه الحقوق وسيلة للأضرار بالأفراد أو بالأراضي أو بالبيئة يصوره فيها استبداد بالأفراد أو بالأرض، ومن هنا كانت الملكية في الشريعة الإسلامية وظيفة اجتماعية، وهذه الحقيقة الشرعية تأكيد على علاقة الجماعة بالأرض ومدي عناية الإسلام بتنظيم هذه العلاقة:

- علي كل إنسان أن يدرك وظيفته الحقيقية في هذه الأرض، وحقيقة الإستخلاف وليس الاستخفاف أو الاستبداد أو عدم رعاية البيئة والحرص عليها كما سخرها لنا خالقها ومالكها الحقيقي هو الله سبحانه: **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** [المائدة: ١٨].
- ذهبت الشريعة الإسلامية في تكييفها لحق الملكية إلى أنه ليس حقاً مطلقاً منح لصاحبه ليستأثر به في تحقيق مصلحته الشخصية علي نحو مطلق، بل صورت هذا الحق على أنه نوع من الخلافة عن المالك الحقيقي وهو الله، وبذلك فعلى الإنسان أن يراعى في استعماله لهذا الحق الغرض والحكمة التي من أجلهما استخلفه الله في ملكه[1]، فالفقهاء ينظرون إلى أن حيازة الشخص للأموال والثروات إنما هي نوع من الخلافة عن المالك الحقيقي لكل ما علي ظهر الأرض، وما وصلت إليه يد الإنسان،

---

(١) شرح التلويح علي التوضيح، التفتازاني، الموافقات للشاطبي.

وذلك ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ويؤكد الإمام الشاطبي وغيره من الفقهاء على أن الولاية العامة للناس علي هذا المال إنما هي خلافة عن مالك السماوات والأرض وما فيها، وأن اختصاص الإنسان بشئ منه، نتيجة سبق استيلائه أو وضع يده، لم يكن في إطار هذه الولاية ألا نتيجة وثمرة لها، ويترتب على ذلك أن كون الملكية خلافة يستتبع اعتبارها وظيفة اجتماعية، لاحقاً مطلقاً.

كما يجيز الشارع لولي الأمر أن يتدخل عندما يسئ الناس تدبير أموالهم وذلك عند اختزان المال، أو ترك الأرض بوراً بدون زراعة أو إهمال في رعايتها، كما يجيز له التوصية والإرشاد عن طريق التنمية والإنتاج والتجارة والصناعة والزراعة الملائمة للصالح العام، حيث يحدث أن يميل مالك الأرض إلى زراعة نوع معين من المحصولات لأنه أكثر ربحاً، وأن تكون فيها ضرر اجتماعي أو أذى للأرض، فتوجيه الانتاج والاستثمار وجهة رشيدة بحسب حاجة المجتمع ومصلحته، من المسائل الهامة التي اهتم بها الفقهاء في أبحاثهم[1].

فالتعسف في استخدام حق الملكية في الأرض مما يؤدي إلى أذى البيئة أو الواقع الاجتماعي والاقتصادي للإنسان، من المسائل لهامة التي اهتمت بها الشريعة الإسلامية والتي زخرت بالقيود التي تصون عدم استبداد المالك فيما يملك، مما ينتج عنه ضرر بالجيران، وهي تلك الفكرة التي نادي بها القضاء الفرنسي، ونص عليها المشرع المصري في التقنين المدني الجديد في المادة ٨٠٧، وقد أورد فقهاء الشريعة الإسلامية كثيراً من التطبيقات لهذه الفكرة، حيث ذهبوا إلى أنه لا يجوز المالك أن يتخذ من داره حماماً من شأنه انبعاث الدخان الذي يؤذي الجيران، وكذلك إذا بنى رجل طاحونه خيل وكان من شأنها إصابة الجار بأضرار ناتجة من

---

(١) الشيخ علي الخفيف، الملكية في الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعية، ٦٧-٦٩.

روائح الخيل ووضم البهائم ومن الأصوات المزعجة الناشئة من إدارة الطاحونة فإنه يؤمر شرعاً برفع الطاحونة و منع الضرر[1].

وكذلك إذا غرس المالك اشجاراً في ملكيته فامتدت أصولها أو فروعها فوق أرض الجار، فإن المالك يلزم بإزالة الضرر الناتج منها، كذلك إذا قام المالك بإقامة بناء من شأنه أن يسد نافذة بيت جاره، بحيث أنه صار بحال لا يقدر على القراءة معها بسبب الظلمة فله أن يكلف بإزالته للضرر الفاحش.

فالإسلام يقدس احترام الواقع الاجتماعي للإنسان، ويحترم حقه على أخيه الإنسان سواء في حرمة الجيران وعدم إيذائهم بأي أذى في أرضه أو في ماله أو حق الحياة بدون قلاقل أو مضايقات يسببها الجار لجاره، فعن رسول الله ﷺ: **(لا يؤمن عبد حتي يأمن جاره بوائقه)** واوصي جبريل عليه السلام الرسول ﷺ بالجار حتي كاد ان يورثه.

ونخلص إلى عدة قواعد وضعتها الشريعة الإسلامية في تنظيم حماية البيئة الاجتماعية والاقتصادية للإنسان:

- حرم الإسلام جميع الأسباب والمصادر التي تؤدي إلى تراكم رؤوس الأموال بابتزاز الناس أو غشهم أو التحكم في ضروريات حياتهم، حيث حرم التلاعب في التعامل واحتكار المواد الأساسية للتحكم في أسعارها، أو احتكار سلعة معينة في الصناعة أو التجارة إذا كان هذا الاحتكار يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين، كما حرم الربا والرشوة واستغلال النفوذ، وأجاز مصادرة الأموال التي تأتي عن طريق غير مشروع. وواضح أن جميع هذه الطرق من شأنها تحقيق التوازن والمساواة والقضاء علي الفوارق الكبيرة بين الأفراد. وقد ذهب جانب من الفقه إلى أن الشريعة الإسلامية أجازت إلزام المالك بأن يبيع بأسعار محددة بواسطة المشرع، بحيث أنه إذا خالف شروط التسعير الجبري يعتبر مقترفاً جريمة تستوجب التعزير؛ لأن

---

(١) الفتاوي المهدية.

القول بغير ذلك فيه ضرر كبير بالمصلحة العامة، قد يؤدي إلى التلاعب بأقوات الناس في الأوقات الحرجة.

- كما يقاس علي ذلك كل من يمتنع عن بيع ما أوجب وليُ الأمر عليه ببيعه فإنه يؤمر بالواجب ويعاقب علي ترك البيع أو اختزان السلع لاحتكارها وتحقيق ثراء من ورائها[1].
- نظام الميراث في الإسلام كما نظمته الشريعة الإسلامية، نظام حكيم يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعاً عادلاً يحول دون تضخمها، ويقضي علي تراكمها وتركزها في أيدي قليلة، بل علي العكس يساعد علي انتشار رؤوس الأموال وتجزئتها إلى ملكيات صغيرة متساوية بين الكافة.

وهذا النظام في الشريعة الإسلامية يعود على الأرض بالعناية وحسن الرعاية، ويكفل لأكبر قاعدة من الورثة الحصول علي قطع من الأرض تكون مصدر رزقهم فيعتنون بها أكبر عناية، وهذا التشريع فيه رعاية للبيئة وحماية لها، من حصرها في أيدي فرد واحد يتسلط فيها ويستبد بالعباد.

- ومن رعاية الإسلام للبيئة الاجتماعية نظام الضرائب التي فرضها علي فروع النشاط وموارد الدخل المختلفة مثل الخراج والجزية والجمارك وضرائب الزروع والعشور وعروض التجارة ومختلف نواحي الاقتصاد بما يكفل العدالة الاجتماعية لجميع الناس، ويكون مردود ذلك الخير والنماء لبيئة من حولنا بأشكالها المختلفة.
- أوجب الإسلام علي الأغنياء الانفاق على أقاربهم من العاجزين، كما أوجب على أهل كل حي أن يعيشوا بعضهم مع بعض في حالة تكافل وتعاضد، إلى درجة أن ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى مسؤولية البلد الذي يموت أحد أفراده جوعاً، فيؤدي أهلها جميعاً الدية متضامنين كأنهم شركاء في موته[2].

---

(١) ابن القيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

(٢) د. محمد يوسف موسى، النظرة الاجتماعية للشريعة الإسلامية.

- أوجب الإسلام الرعاية والإنفاق من بيت المال على الشيخ الزمن، العاجز عن الكسب والشيخ الفاني وغيرهما. ولم يفرق الإسلام في ذلك بين المسلمين وغير المسلمين.
- نظام الاقتطاع والحجز من الأموال مثل زكاة الفطر، وأضحيات الأعياد والهدي الذي يستحب للحجاج أسباب هامة في تقييد الثروات الفردية باعتبار بعضها يقترب من منزلة القرض، مثل زكاة الفطر بحيث تكون حصيلته مرتفعة.
- كما إن الكفارات في الإسلام جزاء بعض الخطايا والمعاصي تحدث تاثيراً غير مباشر على نظام الأموال مثل كفارة اليمين وكفارة الإفطار، وكفارة الظهار، وبعض كفارات الحج حيث تتمثل هذه الكفارات في إخراج فدية من الأموال أو المحاصيل أو التصدق علي الفقراء.

يتبين لنا مما سبق أن علاقة الإسلام بالبيئة في باب الملكية له بناء عقيدي خاص من حيث أن الملكية الحقيقية للّه الخالق الواحد، وأن الاستخلاف فيها يتم بتشريعات قويمة راعى فيها الخالق الدقة والعدالة بين البشر حتي يسود البناء الهادف لتنمية الموارد والنهوض بالبيئة، فأقام الشارع الحدود لحق التملك وما يشمله من أموال وثروات، ووضع له الضوابط التي من شأنها تقليل الفوارق بين طبقات المجتمع، ومع الحق الشرعي في مصادرة أموال الأغنياء غير المشروعة والناشئة من مصدر حرام أو فيه أذى لأفراد المجتمع يصادر لصالح الدولة، ومن ثم يعود بالنفع على مستحقيه من المحتاجين والفقراء.

ويخبرنا الشيخ الخفيف عن هذه القاعدة الشرعية من أن الشرع أباح للإمام أن يتصرف - عند الضرورة التي تقدر بقدرها- في توزيع الأموال العامة علي وجه يحقق التوازن الاقتصادي بين الطبقات، وإن أدى ذلك إلى أن يخص ببعض الأموال طبقة دون أخرى، حيث سن ذلك الرسول ﷺ بوحي من اللّه تعالى حينما منح جميع أموال الفئ من بني النضير

للمهاجرين خاصة، ولرجلين فقيرين من الأنصار، ليقرب بذلك بين ثروات الأنصار، ويحقق شيئاً من التوازن في ملكية الأموال بين هذين الفريقين اللذين كان يتألف منهما المجتمع الإسلامي في ذاك الوقت[1].

ومن الجدير بالذكر أن أشير إلى رعاية الإسلام لنظام الصدقات المستحبة، والذي فيه تنمية للموارد البشرية وحمايتها من الضياع، بل وربما عن طريق التشرد والإجرام. فهذه الصدقات تشفي النفس المحتاجة من الحقد علي الأغنياء، كما فيها صيانة للفقير والمحتاج من الإنهيار لشدة العوز، وتفتح باب الارتزاق، وربما يخرج بهذه الصدقة إلى مستوى كفاية الحاجة.

فقد حبب الإسلام إلى الأغنياء التصدق بفضل أموالهم على الفقراء حتي إن الله نعت الفقراء بعياله ليؤكد علي عظم العطاء لهم، ثم جعل اكتناز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله من كبائر المعاصي يقول عز من قائل: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾** [التوبة: ٣٤- ٣٥].

فالإسلام حرم كنز ثروات الأرض وحجبها عن استفادة الإنسان بها كل حسب موقفه سواء في إعطاء الفقراء، أم تنميتها بما يعود على رخاء البشرية، وبالتالي ينعكس هذا علي رعاية الإنسان لمتطلبات البيئة من تنمية وازدهار.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى الإسلام يربي الإنسان المسلم على التعود علي البعد عن الأنانية والبخل والشح، وهي أمراض نفسية بشرية إذا عولج منها الإنسان يصبح إنساناً سوياً، والإنسان السوي يكون معطاءاً ومعتدلاً في التعامل مع البيئة الإنسانية من حوله، ومع موارد الطبيعة التي يرزق الله الإنسان منها الكثير من ثروات الأرض أو البحر، وهي ثروات

(١) الشيخ علي الخفيف، الملكية في الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعة، ٢٩-٣٠.

هائلة تستطيع إسعاد البشرية إذا حسن استغلالها والتعامل معها بالقانون الإلهي الذي يحرم الإسراف والبذخ في أي أمر من أمور الحياة.

تلويث الأرض وموقف الإسلام منه :

الأرض تشكل أقل من ثلث مساحة الكرة الأرضية، وأن جزءاً لا يستهان به من هذه الأرض غير صالح لمعيشة الإنسان، والجزء الصالح منها بدرجة جيدة لمعيشته فهو صغير نسبياً إذا قيس بالزيادة السكانية التي نراها من حولنا، والأرض باختصار هي موطن الحياة الأساس بالنسبة للإنسان فهي تمده بالمأكل والمشرب والملبس، ولذا وجب عليه أن يعرف حقها وقدرها، وأن يصونها من أي عدوان، وأن يركز علي ما فيها من نعم وخيرات أودعها الخالق له، فيقول سبحانه وتعالى: **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾** [عبس: ٢٤- ٣٢].

ثم يبين الخالق سبحانه في صيغة هذا التساؤل كيف خلق النعم للإنسان:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠].

ثم يلفت نظر المخلوقين إلى أهمية آيات الخلق والإبداع الإلهي، سواء لخلق الإنسان أم خلق الأرض فيقول سبحانه: **﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾** [الذاريات: ٢٠- ٢١].

ويقول تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾** [الأعراف: ١٨٥]،

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)﴾ [ق: ٦- ٨].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

هكذا خلق الله الكون بسمائه وأرضه لكي يستغله الإنسان أحسن استغلال، ويسعي فيه بالعلم النافع الذي كرم الإسلام به الإنسان وأعلى من مكانته، وجعل الإنسان العالم من ورثة الأنبياء، ولذلك حمل العلماء أمانة صيانة هذه البيئة من الأذى وتقويم ما ينفعها ويعوض ما يصيبها من سوء استخدام الإنسان، كما أوجب عليهم التعامل مع ما سخر الله للناس في هذا الكون وفق القوانين والسنن التي تحكمها، وهذا بالضرورة يحمل الإنسان علي معرفة هذه القوانين على أسس علمية ومعرفة صحيحة.

إن تنبيه الحق تعالي في الآيات السابقة له دلالة عظيمة لم تقف عند حد لفت النظر فحسب؛ بل ليرينا مدي الترابط الوثيق بين الإنسان والبيئة من حوله وما يجب علي الإنسان من التحلي بآداب وأخلاق التعامل معها.

ولكن من المؤسف حقاً أن هذا الإنسان لم يراع حق بيئته: **﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾** [عبس: ١٧]. فإن تصرفاته في الواقع العملي توحي بعكس ما أراده له الخالق في استخلافه لهذا الكون، وربط هذه الرابطة بعقيدة العبادة لله، وجاءت سلسلة التصرفات الفردية والجماعية في إفساد الأرض وجعلها أقل قدرة على احتضان حياة الإنسان، نتيجة إخلال التعامل معها مما أدى إلى خلل الاتزان البيئي الذي خلقها الله عليه.

أخذ الإنسان في استقطاع مساحات واسعة من البيئة الطبيعية والزراعية من أجل امتداد المدن وشق الطرقات وبناء المطارات وإقامة المصانع وحفر المناجم، وغيره من المنشآت التي جارت على المساحات الخضراء التي هي مصدر الرزق ومنحه الخالق للمخلوقين: **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧)**

وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

ويقول تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾** [ق: ٧- ١١].

ويقول تعالى: **﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾** [يس: ٣٣]. ويحذر خالق الأرض سبحانه وتعالى الإنسان من الإنسياق والتمادي في الغرور في تعامله مع الأرض.

ويقول تعالى: **﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾** [الشورى: ٣١].

ويؤكد القرآن الكريم علي مكانة الأرض وقيمتها وإنها آية من آيات الله: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [فصلت: ٣٩].

ويقول تعالى: **﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾** [سبأ: ٢].

ويذكر الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأنه هو وحده الرازق فيقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** [فاطر: ٣].

ويحفل القرآن الكريم بعشرات الآيات التي توضح مكانة الأرض وما تحتوى عليه، وكيف يجب على الإنسان أن يراعيها ويصون نعمة الخالق الذي خلقها له بضمير وعناية لحاضره ولمن يأتي من بعده من ذرية.

ولكن تزايد أعداد البشر والتطور التكنولوجي انعكس كل هذا على البيئة، وظهرت أنانية الإنسان في الرغبة في الكسب السريع في النمو في المشاريع الكبيرة التي جاءت على حساب الأرض الخضراء، ثم اتضح بعد ذلك السلبيات الجانبية الكثيرة لهذه المشاريع في إفساد البيئة وعدم

صلاحيتها في مد الإنسان بالحياة الرغدة التي أرادها له الخالق سبحانه وتعالى: **﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾** [الحجر: ٢٠] **﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾** [الحجر: ١٩]، ولكن الإنسان أخل بهذا الوزن والتوازن في البيئة التي خلقها الله عليها.

تلويث الأرض بالفضلات المعدنية والكيماوية والإشعاعية المتزايدة باستمرار مع تراكمها؛ صار يؤثر في تركيب التربة الكيميائي ذات الخلق الموزون.

ولقد أثبتت الأبحاث في مجالات علم النبات أن بعض النباتات تختزن في خلاياها وأنسجتها كميات من المواد الكيماوية السامة التي تمتصها من التربة الملوثة، وهذه تنتقل بدورها إلى الحيوان والإنسان وتتجمع في أجسامها مسببة سلسلة من الأعراض المرضية التي انتقلت إلى الإنسان عبر أكله للحوم الحيوان والطيور.

ولولا رحمة ربك لأصاب البشرية فزع كبير مما نحن فيه، فقد اودع في الإنسان جهاز المناعة لمقاومة هذه السموم الجارفة والزاحفة على الإنسان من استهتار ببئته والعبث بمقدرات صحته وطعامه وشرابه وهو لا يدرى أنه يدمر نفسه وأجياله القادمة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩] .

فجهل الإنسان التعامل مع البيئة من منطلق عقيدي، وتصور نفسه السيد الأوحد الذي لا يسأل عما يفعل أنعم الله عليه بهذه الأرض جعله يتصرف معها بغطرسة وعدم مراعاة للقيم الإيمانية في علاقته بهذه الأرض المستخلف عليها.

يقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** [فاطر: ٣].

وتحض السنة النبوية الإنسان على التعامل مع البيئة بصورة نظيفة وتمنعه من إلقاء الفضلات أو الأذى الذي يؤثر في نظافتها ونقائها، عن ابي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(اتقوا اللاعنين)** قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله قال: **(الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم)**.

وعلى الرغم من بداوة الحياة وبساطتها وافتقادها مقومات الحضارة الكائنة في هذا المضمار؛ رغم ذلك كان تحذيره عليه أفضل الصلاة والسلام للناس من قضاء حاجاتهم في طريق المارة أو في مكان ظليل حتى لا يحبس الناس عن الاستفادة به.

كما حذر ﷺ من قضاء الحاجة في مصادر المياه ويلوثها كما يحدث للنيل أو غيره من الترع والقنوات.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **(لا يبلون احدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه)**، وكما نهى ﷺ عن تلويث مصادر الماء أو قضاء الحاجة في طريق المارة شدد على من يقطع شجرة أو يحارب الخضرة، وعن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ: **(من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)**. سئل أبو داود عن معنى الحديث فقال: هذا الحديث مختصر يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار (أبو داود، ج٤، ص٣٦١).

ثم يحض رسول الله ﷺ على الغرس والزروع، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)** (رواه البخاري ومسلم والترمذي).

ليس هذا فحسب بل يأمر المسلم: **(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يقوم حتى يغرسها فليغرسها)** (رواه أحمد)، ثم إماطة الأذي عن الطريق ولو برفع حجر فله أجر، ففي الحديث الصحيح: **(بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ويميط الأذي عن الطريق صدقة)** (رواه البخاري).

الزحف الصحراوي:

من مشاكل البيئة الخطيرة الزحف الصحراوي ومعناه زيادة رقعة الأرض القاحلة على الأرض الخضراء، ويرى بعض العلماء ومنهم (بيفريل ميفر) إن مساحة الأراضي القاحلة جزئياً وكلياً في العالم تبلغ ٣٦٪ من مساحة الأرض الإجمالية، وهذه نسبة مرتفعة فما بالك والزحف الصحراوي في ازدياد، وهو يعتبر من أكبر نكبات المجاعة التي يعاني منها سكان قارة أفريقيا ومناطق كثيرة من بلاد العالم.

وقد برزت هذه القضية في مؤتمر هيئة الأمم لدراسة ظاهرة الصحراوي الذي عقد في نيروبي عاصمة كينيا في سبتمبر ١٩٧٧م.

ومن التقارير العلمية التي قدمت في هذا المؤتمر تبين أنه خلال نصف القرن الماضي ابتلعت الصحراء الكبري في أفريقيا ستمائة وخمسين ألف كيلو متر مربع من الأراضي والمراعي المتاخمة لحدود الصحراء الجنوبية.

كما تبين من صور الأقمار الصناعية أن الصحراء تزحف على دلتا النيل الخصبة بمعدل ١٣ كيلو متر في السنة، فإذا عرفنا أن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في مصر لا تزيد عن ٤٪ من مجموعة مساحة الدولة؛ اتضح مدى فداحة الخطر الذي يهددنا، أضف إلى ذلك نسبة تزايد السكان بصورة خطيرة.

وفي السودان الذي ينظر إليه على أنه يمتلك أكبر مصدر للغذاء في مجموعة الدول العربية؛ تتردد الشكوى من قلة الغذاء، وفي الجزائر مثلاً تزايد زحف الصحراء عليها وعلى أراضيها الزراعية.

وفي إقليم راجستان في الهند تزايد الغطاء الرملي بنسبة ٨٪ في مدى ثمانية عشر عاماً، وفي تشيلى تحولت أراضٍ كانت مراعي جيدة إلى صحاري لا تحوي غير شجر الصبار وبعض العشب لا قيمة لها إلا لغذاء الماعز، وهذه نماذج من كثير في أكبر قضية تحاصر البيئة بالقتل والدمار، وأنه على الأمم أن تقاومها بوقف التصحر بالوسائل العلمية المختلفة.

ومن هنا يتضح رعاية الإسلام للأرض ولزراعتها، حتى وإن قامت الساعة وفي يد أحد الناس فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فعل لتؤكد على رعاية الإسلام لاستمرار حياة الأرض مخضرة بالخيرات التي تمد الإنسان بالحياة إلى آخر لحظة من عمر البشرية.

تلويث المياه رغم ندرتها:

مشكلة المياه من أعقد المشاكل التي تتنازع حولها الآن الدول؛ لأن الماء محدود إلى حد كبير على هذه الكرة الأرضية، ومعظم الماء في هذه الكرة الأرضية مالح وغير صالح لاستعمال الإنسان لا في الشرب ولا في الصناعة ولا في الري، ومن هنا فإنه من المحتم أن تعيد الدول بأفرادها أصول التعامل الجيد لهذا المصدر الذي فيه حياة كل شيء.

والإسلام في منهجه في التعامل مع جميع ألوان الحياة يحث على البعد عن الإسراف والتبذير حتى إن الله سبحانه وتعالى شبه المبذرين بإخوان الشياطين **(وكان النبي ﷺ يتوضأ ويغتسل بالصاع)** (أخرجه الدرامي).

وقد بين القرآن الكريم في عشرات الآيات تكوين المياه واهميته في إحياء الأرض وإنباتها وجعل من الماء كل شئ حي يقول تعالى:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥)﴾ [النبأ: ١٤- ١٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ربط الإيمان بالنظافة في الإسلام وأثر ذلك على البيئة:

ربط الإسلام الإيمان بالنظافة ومن أركانه مثل الصلاة والحج ما لا يتم إلا بالطهارة، والنظافة بالماء الطاهر النظيف الخالي من اي نجس يلحق به، وهذه العقيدة في الإسلام لها أعظم تدريب لرعاية مصادر المياه من تلويثها والعناية بالحفاظ عليها وتركها نظيفة، ثم عناية الإسلام بالعلم والعلماء يعتبر أكبر دليل على حث الإسلام في السير قدماً في الأبحاث العلمية لجميع مصادر البيئة، ومن بينها العناية بتنقية المياه وتحليتها واستخدام الوسائل العلمية لهذا الغرض، حتى تكون صالحة للإنسان الذي استخلفه الله سبحانه وتعالى وكرمه في البر والبحر، وأعطاه كل مقومات الحياة لكي تستمر رحلة الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا رباط عظيم بين الإنسان وبيئته سواء الفرد أم الجماعة أم الدولة، فالطهارة في الإسلام من الأحداث غسلاً ووضوءاً وتيمماً أمر هام وأساس في العقيدة الإسلامية، ولا تتم العبادة إلا بها، كما سن الإسلام الغسل لصلاة الجمعة والغسل لصلاة العيدين وتعديل الهيئة ونظافة الثياب، والبعد عن كل ما يدعو إلى النفور عند لقاء الآخرين وما تتأذى منه الملائكة.

روى مسلم والترمزي عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **(الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحانه الله والحمد له تملآن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك).**

وفي حديث آخر عن أهمية النظافة بالماء وربطها بالإيمان، قال رسول الله ﷺ: **(تخللوا فإنه نظافة والنظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه في الجنة)** (رواه الطبراني).

والأطعمة ذات الروائح النفاذة والآثار الغليظة كاللحم والسمك وغيرها يجب أن يشتد حذر الإنسان من إهمال نظافتها، فإن التنظف منها ضرورة لحفظ الكرامة الخاصة والآداب العامة.

روى أبو هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: **(إن الشيطان حساس لحاس، فاحذروه على أنفسكم، من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شئ فلا يلومن إلا نفسه)** (أخرجه الترمزي) (الغَمَرِ: زهومة اللحم وريحته)، والحديث **(نظفوا أفواهكم فإنها طرق القرآن)**.

والنظافة تشمل المادية من القذارة المحسوسة والقذارة المعنوية الناتجة من الفحش والغيبة والنميمة وأكل الحرام وتطهير اللسان من جميع النجاسات.

وقد وردت آثار تفيد وتؤكد على أن الجراثيم إنما تجد مرتعاً خصباً في الأيدي والأفواه غير النظيفة وأوصت بالتحرز من غوائلها.

ومن احترام الإسلام للفرد والمجتمع تحريمه على من أكل ثوماً أو بصلاً أن لا يحضر المجتمعات تحرزاً من نتن الأفواه من هذه الأطعمة، حتى لا يؤذي وينفر من حوله، وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة في المسجد عمن تناول هذه الأطعمة.

عن جابر أن رسول اللّه ﷺ قال: **(من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلن وليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته)**.

كما أسقط سنة الجماعة الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو جسمهم كريهة، وهذا الأمر فيه صيانة للمريض والسليم على السواء.

ويوصي الإسلام بأن يكون المرء حسن المنظر كريم الهيئة، وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة يقول تعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** [الأعراف: ٣١].

واعتنى الإسلام بنظافة المساجد والبيوت وتجميلها وأكد على تخلية البيوت من الفضلات والقمامات؛ حتى لا تكون مصدراً للحشرات وسبباً للعلل، وكان اليهود يفرطون في هذا الأمر فحذر المسلمين من التشبه بهم.

روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **(إن الله تعالى طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود)**.

وأخرج الطبراني في الأوسط برجال ثقات عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(من سل سخيمته على طريق من طرق الناس فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)**.

وأخرج الطبراني في الكبير بإسناد حسن للحافظ المنذري عن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ قال: **(الذى آذي المسلمين في طرقهم وجب عليه لعنتهم)** (رواه البيهقي).

فإماطة الأذى ورفعه عن الطريق والاقتصاد في استخدام الماء، والنهي المشدد على من تسول له نفسه بإيذاء البيئة من حوله؛ من قضاء الحاجة إلى عف اليد واللسان تعتبر من الضروريات في الإسلام، كذلك حذر الإسلام من العبث وحسن التعامل مع المياه بجميع مصادرها، وعدم الإسراف في استخدامها؛ لأن الماء الذي جعل الله منه كل شئ حي يعتبر من الموارد النادرة الغالية، فقد شدد الإسلام على من يسيء استخدامه، ولكن الإنسان للأسف رغم هذا التشريع ورغم ندرة المياه الصالحة للشرب؛ حيث تحولت بحيرات عدة وأنهار أكثر عدداً إلى مجاري ميتة لم تعد صالحة للشرب منها، أو أن تستعمل في صناعة أو حتى يستحم فيها؛ لا يزال يمعن في الإساءة إلى بيئته والإخلال بالتوازن فيها، وهذه بطبيعة الحال عكس على الكائنات الحية التي تعمر هذه الأنهار والبحيرات، وكانت تمثل مصدراً هاماً للغذاء، أضف إلى هذا أنه بموت الكائنات الحية حل محلها البكتريا وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة الضارة، وانتقل التلويث إلى ضفاف تلك المصادر مؤثراً فيها

وفيما يعيش عليها من كائنات، حتى باتت المدن والمجتمعات التي تعيش فيها مهددة بهذا الخلل البيئي العنيف، وحتى إن ظهر الآن في بعض الدول ما يعرف بمصانع أو منشآت معالجة المياه؛ وهي أجهزة ومنشآت ضخمة تعتمد على أسس علمية كميائية وتكلف مبالغ باهظة، ولكنها السبيل الوحيد المجدي إلى الآن حسب علمي لمنع زيادة تلويث المياه.

ومن الأمور التي تحمد في هذه المرحلة وجود يقظة كبيرة لاتخاذ الإجراءات والتشريعات القانونية لوقف الاستهتار بمقدرات ومكونات البيئة حول الإنسان، ومن هذه التشريعات الخاصة في بعض البلاد منع المصانع والمؤسسات من تلويث مصادر المياه، وإجبارها على معالجة الماء المستهلك فيها قبل إمراره إلى مجارى المياه الطبيعية. ولا يقتصر التلوث على مصادر المياه العذبة الصالحة لاستعمال الإنسان؛ بل يتعداه إلى البحار والمحيطات، مع إن مياه البحار مالحة ولا يستطيع الإنسان استعمالها مباشرة، إلا أنها مصدر معظم بحار الماء الموجود في الجو، ومنه تتكون السحب وتهطل الأمطار والثلوج وتجرى الأنهار وتتفجر الينابيع، ويصور هذه الحقيقة العلمية في مصادر الماء القرآن الكريم في هذه الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

نماذج من ملوثات البيئة:

ظهرت في هذه المرحلة ملوثات للبيئة نتيجة الحروب والمعارك التي نشبت في منطقة الشرق الأوسط، كما حدث مؤخراً في حرب الخليج حيث تسرب النفط في منطقة الشرق الأوسط من الناقلات العملاقة أو من جراء الكوارث التي تلحق بهذه الناقلات. والنفط يطفو فوق سطح البحر لأنه أقل كثافة من الماء؛ ولأنه قاتل للكائنات الحية بسبب موت (البلانكتون) الهائم على السطح، و(البلانكتون) هذا هو دقائق الكائنات الحية النباتية والحيوانية الهائمة قرب سطح البحر، وهو الغذاء الرئيسي للأسماك والحيوانات البحرية الأخرى، وإلى جانب أهميته كيميائياً مثل استخلاص جزء ثاني أكسيد الكربون من الجو فإنه العامل الهام في بقاء نسب غازات الهواء ثابتة، وفي حالة قتل عدد كبير من هذا (البلانكتون) بالتلويث تختل هذه النسب، وهذا يؤدي إلى خطر داهم في حق الحياة برمتها.

كما لا ننسي أخطار الأسلحة الكيميائية والمواد المشعة ومخلفاتها؛ والتي انتشرت في هذه الفترة بصورة أصبحت تهدد البيئة ومن عليها من جميع الكائنات الحية بشرية وثروة حيوانية ومائية، ولذا ارتفعت أصوات العلماء بمطالبة الإنسان بالكف عن التمادي في ذلك، وتقييد هذه الأبحاث وقصرها على ما ينفع الناس فقط، والتركيز على أهمية البحار والمحيطات؛ لأنها مصادر هامة جداً لثروات عظيمة لم تستغل بعد الاستغلال الصحيح، يقول عز من قائل في كتابه الحكيم: **﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) الاسراء/١٠٥ وفي التنبيه على اهمية ثروة البحار (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [النحل: ١٤].

وبعد ذلك كله على الإنسان أن يدرك في تعامله مع البيئة أن هذا الكون كله في سمائه وأرضه خاضع لسلطان الله، وإن الله سبحانه وتعالى سخره للإنسان، ومن ثم عليه أن يرقى ويترقى في اكتشاف قوانين هذا الكون عن

طريق العلم الذي أنزل الإسلام أهله منزلة ورثة الأنبياء، وبه كرم الله آدم وذريته وأسجد له ملائكته وفاخر به في الملأ الأعلى.

فالحرص على البيئة في التعامل والرقي في درجة العلم بمكنوناتها والتعامل معها على هذا الأساس، كل هذا يعتبر من الواجبات في الشريعة الإسلامية.

وختاماً لهذه الجولة أقول إن حماية البيئة في الشريعة الإسلامية واجب مقدس فرضه الخالق للإنسان الذي استخلفه فيه، وليس نابعاً من توصيات مؤتمر ينتهي بانفضاضه ولا من صيحة دوى بها صوت عالم ربما بقوة هذا الصوت ولا يصل إلى خافتاً أو ربما لا يصل، بل هو تشريع إلهي ملزم به خلقه ويحاسبهم على تركه أو إهماله؛ لأن البيئة بآياتها المختلفة هي من خلق الخالق الذي خلق كل شئ فقدره تقديراً.

الفصل الحادي عشر[1]

حضارة الأندلس (إسبانيا)

حضارة العرب في إسبانيا :[*]

كانت إسبانية النصرانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك قوط، ولم يكد العرب يتمون فتحها حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين ويعمروا خرب المدن، ويقيموا أفخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين، وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوروبا زمناً طويلاً.

وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن إلى العرش على الخصوص، أي منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة في سنة ٧٥٦م، فغدت قرطبة بالحقيقة أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون.

ولم يكد عبد الرحمن يقبض على زمام الحكم في إسبانية حتى أخذ يسعى في حمل العرب على عد إسبانية وطناً حقيقياً لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذي هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة، وصار ينفق دخل بيت المال في إصلاح البلاد وعمرانها بدلاً من إنفاقه في الغزوات البعيدة ثم سار خلفاؤه على سنته في ذلك.

وامتازت حضارة العرب في إسبانية في ذلك الدور بميل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشا العرب في كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيماوية والطبية بنجاح، وسنرى في فصول أخرى أهمية اكتشافاتهم في هذه العلوم المختلفة.

---

(١) د. جوستان لوبون، حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م، ص٢٧٣ وما بعدها.

(*) حيث ما ذكر العرب في هذا البحث تعني اللفظة (العرب) تعني (المسلمين).

ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسائج والجلود والسكر إلى أفريقية والشرق بواسطة تجار من اليهود والبربر.

وبرع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات، ولا يوجد في إسبانية الحاضرة من أعمال الري خلا ما أتمه العرب، وأدخل العرب إلى حقول الأندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز... إلخ، وأصبحت إسبانية التي هي صحراء حقيقية في الوقت الحاضر عدا بعض أقسام في جنوبها جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية.

ووجه العرب نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون، ولم تقل أشغالهم العامة عن أشغال الرومان أهمية، فأكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافي والمساجد في كل مكان.

وظن رئيس الأساقفة الإسباني (اكزيمينيس) أنه بإحراقه مؤخراً ما قدر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه (العرب) (ثمانية آلاف كتاب) قد محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، ولم يدري أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية غير مؤلفاتهم يكفي لتخليد إسمهم إلى الأبد.

وكانت عاصمة الخلافة قرطبة داراً للعلوم والفنون والصناعة والتجارة، وتستطيع أن تقابلها بعواصم دول أوروبا العظمى، وهي على خلاف قرطبة الحاضرة التي أضحت مقراً للأموات، ومن المؤلم أن كنت أسير عدة ساعات في هذه المدينة الواسعة التي كان يقيم بها مليون شخص قبل أن أصادف ماراً نشيطاً. أجل كان من النصر العظيم أن أحل النصارى الصليب محل الهلال في قرطبة، ولكن الهلال كان يهيمن على أغنى مدن العالم وأجملها وأكثرها إهلاً، فيشرف الصليب اليوم على بقايا تلك الحضارة القويمة التي قوضها عباده من غير أن يقيموا حضارة أخرى مقامها.

وكان نظام الحكم العربي في إسبانية مشابهاً لنظام الحكم الذي تكلمنا عنه في فصل (العرب في بغداد)، أي كان الخليفة وهو وكيل الله في الأرض حاكماً مطلقاً جامعاً لجميع السلطات المدنية والدينية والحربية مع

اختياره مجلساً لإسداء النصح إليه في جميع أمور الدولة. وكان يقوم بحكم الولايات ولاة ينصبهم الخليفة جامعون لمثل سلطاته كلها.

وكان قانون الدولة المدني يستند في نصوصه إلى القرآن وتفسير القرآن، كما نوضح ذلك في فصل آخر؛ فيتخذ القضاة القرآن دستوراً في أحكامهم، وكانت المحاكم على درجتين، فتقوم محاكم الدرجة الثانية (الاستئناف) بإصلاح ما تصدره محاكم الدرجة الأولي من الأحكام.

وكان الخليفة كملوك ذلك العصر غير ذي جيش دائم، وكانت الكتيبة الوحيدة المسلحة على الدوام مؤلفة من حرس ولى الأمر الشخصي الذي يبلغ عدده عشرة رجال أو اثنتي عشر رجلاً[1] وإن كان يستطيع أن يجند كل شخص قادر على حمل السلاح من أبناء الدولة.

وكانت البحرية قوية جداً وتتم بفضلها صلات العرب التجارية بجميع مرافئ أوروبا وآسيا وأفريقيا، وظل العرب وحدهم سادة البحر المتوسط زمناً طويلاً.

وكان دخل بيت المال يقوم على الضرائب والمناجم كما في بغداد، وكانت مناجم الفضة والذهب والزئبق غنية في ذلك الزمن، وكانت الضرائب تتألف من العُشر العيني لمحاصيل أراضي المسلمين ومن الجزية التي يعطيها النصاري واليهود ومن الجمارك والمكوس، فبلغ دخل دولة الخلافة في إسبانية ثلاثمائة مليون إبان عظمتها أي في عهد الحكم الثاني.

وقلنا أن الإمامة الثقافية كانت للعرب في البلاد، وأما العوام فكانوا من البربر ومن سكان البلاد القدماء على الخصوص، وكان باب المناصب مفتوحاً للنصاري، وكان النصاري يستخدمون في الجيش غالباً، ولم يكن توالد المسلمين والنصاري غير قليل، وكانت أم الخليفة عبد الرحمن الثالث نصرانية.

واستطاع العرب أن يحولوا إسبانية مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانية

---

(١) لعل المؤلف قصد عشرة آلاف أو اثنتي عشر ألفا فسقطت كلمة (آلاف أو ألف) عند طبع الأصل الفرنسي (المترجم).

على هذين الأمرين؛ بل أثروا في أخلاق الناس أيضاً فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حلم عرب إسبانية نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأسقافتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني الذي عقد في سنة ٧٨٢م، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد في سنة ٨٥٢م، وتعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم كثير من النصاري، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شئ، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين، قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربية بلد أوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها فصار عددهم فيه كثيراً جداً.

وكان عرب إسبانية يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى هذا من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخراً، فتؤثر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة.

وللفروسية العربية شروطها كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها، فلم يكن المرء ليصير فارساً إلا إذا تحلى بهذه الخصال العشر: (الصلاح والكرامة ورقة الشمائل والقريحة الشعرية والفصاحة والقوة والمهارة في ركوب الخيل والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب).

ونرى تاريخ العرب في إسبانية حافلاً بالأنباء الدالة على كثرة انتشار تلك الخصال، ومن ذلك أن والى قرطبة لما حاصر مدينة طليطلة في سنة ١١٣٩م التي كانت بيد النصارى أرسلت إليه الملكة (بيرنجر) التي كانت فيها من بلغة أنه لا يليق بفارس بطل شهم كريم أن يحاصر إمراة فارتد القائد العربي من فوره محيياً الملكة.

وذاعت خصال الفروسية تلك بين النصارى ولكن ببطء، ويمكننا أن نتمثل ما كانت عليه الفروسية النصرانية في القرن الحادي عشر عند النظر

إلى أمر السيد (الكنبيطور رودريك الفيفاري). لم يكن هذا البطل الشهير الذي تغني به الشعراء كثيراً سوى رئيس عصابة بالحقيقة، أي كان محل مزايدة فيبيع نفسه من العرب تارة ويبيعها من النصارى تارة أخرى، ومما حدث أن دخل مدينة بلنسية صلحاً فلم يحجم عن شئ حاكمها الهرم على النار ليكرهه على كشف ما كان يظن وجوده في القصر من الكنوز.

قال مسيو (فياردو): إن ذلك الفارس الشهير الذي يثير إسمه ذكريات البطولة هو البطل الشعبي الذي اقتحم المخاطر والأهوال أكثر مما اقتحمه هركول وثيزه وقدماء أنصاف الآلهة مجتمعين.

بيد أنه وإن كان من المؤلم تجريد اسم عظيم من بعض ما اسبغته القرون عليه، لم يوضع التاريخ ليؤيد بأحكامه أقاصيص الأدباء وخيالات الشعراء.

لم يحز رودريك أو روي دياز الفيفاري غير صفات الجندي أي كان رئيس عصابة من المرتزقة قاسياً جشعاً حقوداً شديداً في قوله وعمله، كثير الجلف مستخفاً بالعدل والإنصاف.

وكان نصارى أرغونة أول من أعمل السلاح فيهم لحساب المسلمين الذين منحوه لقب (السيد) فعرف به، ثم باع سيفه من شانشه القوي ليساعده على تجريد ما لإخواته وأخواته من المقاطعات، ثم حالف هذا وذاك محالفة الغادرين، ولم يبال بعهد الأمان الذي قطعه لمدينة ساغونته ومدينة بلنسية فأطعم الكلاب بعض الأسرى، ونكل ببعضهم وحرق بعضاً آخر منهم إكراهاً لهم على كشف كنوزهم.

حقاً أنه أطفأ ما تم له من مجد النصر بما قام به من أعمال الخنز[1] والخسة والإجرام، وإني أحيل القارئ الذي يريد التثبت في مصداق قولي إلى ما قاله مسيو دوزى في مباحثه عن تاريخ عرب إسبانية السياسي والأدبي في القرون الوسطي.

وليس من الإنصاف أن نقسو على السيد الذي لم يعمل بغير ما كانت تبيحه طبائع زمنه، ولكن من الواجب أن نشير إلى تلك الطبائع ليتجلي لنا

---

(١) خنزه يخنزه خنزاً: غدره اقبح الغدر.

مقدار ما أسدت به الأمة التي عملت على زوال تلك الطبائع من خدمة عظيمة بتأثير تعاليمها التي لا مؤيد لها سوى الرأي.

ويقولون أن الدين يهذب الطبائع، وأذهب إلى هذا الرأي أحياناً، وإن لم يكن التاريخ سوى أدلة قليلة على ذلك؛ وإنما الذى لا ريب فيه هو أن قواعد الفروسية التي جاء بها العرب أدت إلى إصلاح تلك الطبائع أكثر من جميع التعاليم الدينية.

نعم إن إحراق السيد شيخاً ليسلب ماله يبديه لنا وحشاً غير أن طبائع أهل ذلك الزمن كانت تبيح ذلك، وإن كل أمير نصراني كان يقترف مثل ذلك.

ومن ذلك أن دعا الطاغية بطره ملك غرناطة أبا سعيد إلى قصره فأعجبه ما كان يتحلى به الملك أبو سعيد من الجواهر، فلم يرد غير سلبه إياها بقتله غدراً.[1]

فآثام مثل هذه مما لم يقترفه العرب قط، والعرب أحسنوا كثيراً إلى الحضارة بنشرهم من المشاعر في أنحاء العالم ما يحول دون ارتكابها.

واعترف الكتَّاب القليلون الذين درسوا تاريخ العرب بفضلهم الخلقي، وإليك ما قاله العالم الثبت (مسيو سيديو): كان العرب يفوقون النصارى كثيراً في الأخلاق والعلوم والصناعات، وكان من طبائع العرب ما لاتراه في غيرهم من الكرم والإخلاص والرحمة، وكان من طبائعهم التي امتازوا بها في المحافظة على الكرامة ما يؤدي الإفراط إلى المبارزة والشحناء.

وكان ملوك قشتالة ونبرة على علم من صدق العرب وقراهم، ولم يتردد الكثير منهم في المجئ إلى قرطبة ليعالجهم أطباؤها المشهورين، وكان أفقر المسلمين يحافظ على شرف أسرته محافظة أشد الرؤساء صلفاً.

مباني العرب في إسبانية:

استخدم العرب في بدء إقامتهم بإسبانية مهندسين من الروم، ولكن العرب لم يلبثوا أن أثروا بعبقريتهم الفنية في أولئك المهندسين، وبلغ إحياؤهم

---

(١) أهدي ملك إسبانيا إلى أحد أمراء الانجليز ياقوته حمراء من تلك الجواهر التي سرقت من الملك العربي، وهى الآن من الجواهر التي يزين بها تاج ملكة انجلترا المصون مع الجواهر الملكية الأخرى في (غرفة حل التاج) بلندن فاتيح لي أن أشاهدها.

ﮆ أمور الزينة مبلغاً صار يتعذر معه على أقل الناس دقة أن يخلط مبانيهم بالمباني البيزنطية.

ولم يلبث العرب ﮆ إسبانية أن تحرروا من النفوذ البيزنطي كإخوانهم ﮆ مصر، فاستبدلوا النقوش العربية الممزوجة بالكتابة بالزخرفة الذهبية، وأكثروا كما ﮆ المشرق من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة التي يعلو بعضها بعضاً على شكل نخاريب النخل؛ فيكون منظرها ساحراً عجيباً حينما يزين بها داخل إحدى القباب كما ﮆ الحمراء، وكانت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس الظاهر ﮆ البداءة؛ ثم اختلطت بأنواع الأقواس الأخرى البسيطة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المفلوقة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المنقوشة على شكل الأزهار والأغصان المصنوعة على رسم البكارين... إلخ، وأما الأقواس المجاوزة فقد أهملها العرب تقريباً.

ويعد جامع قرطبة الذي بني ﮆ القرن الثامن من الميلاد وبعض المباني ﮆ طليطلة من آثار الدور الأول لفن العمارة العربي بإسبانية، وتعدُ منارة لاجيرالدة (لعبة الهواء) الإشبيلية التي أقيمت ﮆ القرن الثاني عشر من الميلاد، والقصر الإشبيلي من آثار الدور الأوسط لفن العمارة العربي، ويعد قصر الحمراء الغرناطي الذي شيد ﮆ القرن الرابع عشر من الميلاد عنواناً لما انتهي إليه فن العمارة العربي.

وعلى ما ﮆ هذه المباني التي أُنشئت ﮆ إسبانية ﮆ مختلف الأدوار من التباين ﮆ الطرز نرى لها طابعاً خاصاً يدل على أصلها لأول وهلة.

ويرى مثل هذا الطابع الخاص ﮆ مختلف المباني التي شادها العرب ﮆ مختلف الأقطار.

الفصل الثاني عشر[1]

حضارة بغداد

حضارة العرب في بغداد[2]:

أنضر أنواع الحكم العربي ولما استقلت تلك الدولتان بسرعة وفصلت بينهما المسافات عظيمة كان لهما أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة؛ تقدمتا تقدماً متوازياً عدة قرون، وكانت المدينتان الكبيرتان بغداد وقرطبة هما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام من مراكز الحضارة التي أضاءت العالم بنورها الوهاج أيام كانت أوروبا غارقة في دياجير الهمجية.

ولم يلبث دور ازدهار حضارة العرب أن بدأ بعد أن فرغوا من فتوحهم وما بذلوا من الجهود في الوقائع الحربية في البداءة، وجهوا مثله إلى الآداب والعلوم والصناعة، فتقدموا في الفنون السلمية مثل تقدمهم في الفنون الحربية.

ورأينا أن دمشق أصبحت عاصمة دولة الأمويين العربية بعد المدينة، فلما قبض العباسيون على زمام الخلافة في سنة (١٣٢هـ– ٧٤٠م) عزموا على تبديل العاصمة؛ فأقاموا بالقرب من بابل وعلى شاطئ دجلة مدينة بغداد التي لم تلبث أن صارت أشهر مدن الشرق.

ولم يبق من المباني التي شادها الخلفاء في بغداد مثل ما بقي في سورية، ولكن ما إنتهى إلينا من آثار العرب في العلم والآدب في ذلك الدور وما ورد في كتب مؤرخيهم يكفي لتمثل حضارتهم في القرن التاسع من الميلاد وما نذكره الآن وما ندرسه في الفصول الآتية من تاريخ العلوم والفنون يلقي نوراً على ناحية مهمة من نواحي الحضارة العربية لم نوضحه في الفصل السابق.

بلغت ذروة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير (٧٨٦م- ٨٠٩م). وإبنه المأمون (٨١٣م- ٨٣٣م)، وصارت أهم مدن الشرق وذاع صيت الرشيد وطبق الآفاق؛ فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً إلى بلاطه، وأرسل عاهل الغرب الحقيقي وصاحب الحول والشوكة الإمبراطور

---

(١) انظر، د. غوستان لوبون، مرجع سابق، ص١٧٠ وما بعدها.

(٢) حيث ما تكون كلمة عرب تعني بالطبع المسلمين في رأي.

شارلمان؛ الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلنطي ونهر الألب وهو الذي لم يملك غير أناس من الهمج وفداً ليبلغ الرشيد أطيب تحياته ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس؛ فأجابه الرشيد إلى سؤاله ورد إليه وفده مع هدايا عظيمة ومن بينها فيل مجهز بأفخر جهاز، والفيل كانت تجهله أوروبا تماماً ولآلئ وجواهر وحلى وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت، وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان.

وجلس الرشيد على عرش الخلافة في الثالثة والعشرين من عمره، وكان تنظيم شئون دولته الواسعة أول ما فكر فيه فوصلت ولايات الدولة بوسائل نقل منظمة وأنشئت مرابط لتتمكن البرد بها من قطع المسافات الكبيرة على عجل، وعني بالحمام الزاجل لربط ما بين المدن بالرسائل كما هو واقع بين بعض المدن في الوقت الحاضر، وكانت إدارة البريد ببغداد من أهم وظائف الدولة كما في أوروبا الحديثة.

وكان الولاة على رأس الولايات، وكانوا يمتثلون أوامر الخليفة، وكان يقوم مقام الخليفة في الولايات النائية كشمال أفريقية أمراء وراثيون استقلوا مع الزمن استقلالاً تاماً.

وكانت مالية الدولة دقيقة الضبط، وكان دخل الدولة قائماً على الجزية والخراج والمكوس وإحياء الموات واستخراج المعادن، وروى مؤرخو العرب أن دخل الخلافة السنوي بلغ مئتي مليون فرنك أي مبلغاً عظيماً في ذلك الزمن.

وكان يقوم بأعمال الجباية لجنة تدعى الديوان، قال ابن خلدون: إن ديوان الأعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في أبنائها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من

الحساب لا يقوم به المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسعى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها.

وكانت إدارة الدولة موزعة بين أربعة دواوين مماثلة لدواوين الزمن الحاضر، وهو ديوان الغنائم ونفقات الجند وديوان الضرائب وديوان الجباية وديوان رقابة الدخل والخرج. وكانت أوامر الخلفاء تكتب في سجل مصون ليرجع فيه من يأتون بعدهم.

وكان الوزير مرجع شئون الدولة الأعلى، وكان أكثر الخلفاء يتركون له مقاليد الحكم تماماً ويشابه منصبه في عصر الخلفاء منصب رئيس الوزراء في أيامنا.

ولم تكن الشرطة في عهد الخلفاء أقل انتظاماً من البريد والمالية وكانت للتجار نقابة مسؤولة لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتدليس.

وكان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير، كتعبيد الطرق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة ولا سيما بغداد والبصرة والموصل.... إلخ.

واتسع نطاق الزراعة والصناعة واشتهر نبيذ شيراز وأصبهان، وصار يصدر إلى البلاد البعيدة، وأنشئت مصانع للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق، وصار العرب يستغلون الممالح ومناجم الكبريت والرخام والحديد والرصاص... إلخ بطرق فنية.

ووسعت دائرة التعليم العام واستدعى الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم وانتهى إلى نتائج لم ينته إليها الأوربيون إلا في العصر الحاضر كمقياس دائرة نصف النهار، ونقلت إلى اللغة العربية كتب علماء اليونان واللاتين ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات، وصارت تدرس في جميع المدارس وبحث العرب في آثار القدماء فسبقوا الأوربيين إلى ذلك ببضعة قرون.

وأقدم العرب على تلك المباحث التي لم يكن لهم عهد بها بشوق نشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان،

وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم كما سنرى ذلك في الفصول التي ندرس فيها تفاصيل حضارتهم.

وترى من الخلاصة السابقة أن العرب بلغوا درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير، ولكن الإدارة الرشيدة والفنون المعقدة كالتعدين وطرز العمارة والعلوم كعلم الفلك إذ كانت مما لا يأتي عفوا لم يفعل العرب غير مواصلة الحضارات التي ظهرت قبلهم كالحضارة اليونانية اللاتينة، فكانت لهم مبتكرات فيما ورثوه من علومها وفنونها وطرق حكمها، وكانوا بذلك على نقيض الروم الذين سلموا العرب غير مواصلة الحضارات التي ظهرت قبلهم كالحضارة اليونانية اللاتينية؛ فكانت لهم مبتكرات فيما ورثوه من علومها وفنونها وطرق حكمها، وكانوا بذلك على نقيض الروم الذين سلموا العرب تراث تلك الحضارات من غير أن ينتفعوا به والذين سقطوا أسفل دركات الانحطاط.

وكان حب العرب للعلم عظيماً، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن شهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل ومن يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا، وقال أبو الفرج عن المأمون أنه: كان يخلوا بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويستلذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم من صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده... فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم.

وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد وكان يمكن هؤلاء الخلفاء أن يعدوا قصرهم أول قصور العالم وأنضرها، وتتجلي لنا أبهة بغداد الشرقية بالقول الآتي الذي وصف به المؤرخ العربي أبو الفداء استقبال أحد الخلفاء العباسيين لسفير قيصر الروم في سنة ٣٠٥هـ .

قال أبو الفداء: قدم رسل ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكان العساكر المصفوفون حينئذ مائة وألف وستين ألفاً ما بين راكب وواقف، ووقف الغلمان ذو الزينة الحجرية والمناطق المحلاة ووقف الخدام الخصيان كذلك وكانوا سبعة الآف، أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم أسود، ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ سبعمائة حاجب وألقيت القوارب والزوارق في دجلة بأعظم زينة وزينت دار الخلافة فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر منها اثنتا عشر ألفاً وخمسمائة ستر من الديباج المذهب، وكانت البسط اثنتين وعشرين ألفاً، وكان هناك مائة سبع من سباع، وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً، وعلى الأغصان والقضبان والطيور والعصافير من الذهب والفضة، وكذلك أوراق الشجرة كانت من الذهب والفضة والأغصان تتمايل بحركات موضوعة والطيور تصفر بحركات مرتبة، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه وأحضروا بين يدى المقتدر وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويرد الجواب عن الخليفة.

وكانت قوة الخلفاء الحربية في بغداد تناسب أهمية دولتهم ويمكننا اجتلاء ما كانت عليه من الهيبة في الخارج بما أكره عليه قيصر بيزنطة الوارث لعظمة اليونان والرومان من دفع الجزية حين تمنع من إعطائها عبثاً، فلما رفض خليفة الإمبراطورية ايرين القيصر نيقفور إعطاء الجزية في كتاب أرسله إلى الخليفة هارون الرشيد؛ أجابه هارون الرشيد بالكتاب الموجز العنيف الدال على درجة الاحتقار الذي أضحى عرضة له أبناء اليونان والرومان الضعفاء وإليك: بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافر، والجواب ما تراه لا ما تسمعه.

رأى (كلب الروم) الجواب فقد خرب هارون الرشيد بلاده تماماً وأرغم قيصر القسطنطينية النصراني على دفع الجزية إلى أمير المؤمنين.

ومن الإنصاف أن عد سلطان العرب السياسي في عصر الرشيد ابنه المأمون أقصى ما انتهي إليه سلطان العرب في الشرق، فقد كانت بلاد الصين حداً لدولة العرب في آسيا، ودحر العرب قبائل أفريقيا المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة ودحروا الروم إلي البسفور، ولم يقفوا في الغرب إلا عند المحيط الأطلنطي، والحق أن هؤلاء القوم الشجعان الذين لبوا دعوة محمد، وغدوا أمة واحدة، أقاموا دولة بلغت ما بلغته دولة الرومان من الاتساع في أقل من قرنين، وأن هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبة وتمدناً.

بيد أن مصير الدول الحربية العظمي المطلقة تابع لاقتدار ولاة أمورها، فإذا كان هؤلاء الولاة من العباقرة كهارون الرشيد وابنه المأمون أينعت تلك الدول وتقدمت، وإذا لم يكونوا أبناء بجدتها هبطت بسرعة أعظم من التي قامت بها.

ولم يكن كثيراً على أعاظم الرجال أن يحفظوا للخلافة هيبتها تجاه ما كان يبدو من تفرق كلمة العرب في أنحاء الدولة وتجاه الأمم التي دحروها حيناً من الزمن من غير أن يقوضوا أركانها، وقد استقل البربر بعيد استقلال الأندلس، وأخذ الترك يقبضون بدسائس على السلطة التي سينالوها كاملة بسلاحهم ذات يوم. ولم تخب شعلة الخلفاء العباسين إلا في القرن العاشر من الميلاد، ولكن الخلافة العباسية كانت قد خسرت سلطاتها منذ زمن طويل حينما غابت عن التاريخ.

لم يكن الترك الذين جئ بهم إلى بغداد من غير الأسرى أو الموالى الذين أعجبت الخلفاء قدودهم ففوض الخلفاء إليهم أمر حراستهم، ولم يلبث هؤلاء الموالي أن صنعوا كما صنع المماليك بمصر؛ فانفردوا بالأمر غير تاركين لسادتهم الخلفاء سوى سلطة إسمية.

ولم يقدر الخلفاء على مقاومة جميع المطامع التي كانت تحيط بهم فانقسمت دولتهم إلى إمارات مستقلة، فلما توارى آخر العباسيين عادت بغداد لا تستطيع الإدعاء بلقب آخر الملجأ الأول لعلوم الشرق وآدابه.

والمغول هم الذين قضوا على الخلافة العباسية، والمغول جيل من الأدميين البدويين يؤلف مع الترك عروقاً مختلفة نعد منها أجلاف هضبة آسيا الوسطى الواسعة التي لا تحدها الجبال الفاصلة لها عن سيبريا من الشمال، والتي تحدها الصين والتبت وبحر قزوين من الجنوب، ويرى علماء وصف الإنسان ولا سيما صديقي العالم الأستاذ دالي أن الترك والمغول والمماليك وأهل التبت على ما يحتمل من أصل واحد يدعى الأورمة المغولية، وظاهرة هذه الأورمة هي هيئة وجوهها الخاصة وجلودها المصفرة الكامدة وشعورها المسندرة[1].. إلخ، ولا نزال نجد شبهاً بين التركمان والمغول، ومثل هذا الشبه كان موجوداً في غابر القرون بين الترك الخلص والمغول، لا ريب فقد ذكر رشيد الدين في تاريخه عن المغول الذي ألفه في القرن الثالث عشر أن المغول والترك متشابهون تشابهاً يستوقف النظر، وإن اسم هذين الجبلين كان واحداً في غابر الأزمان.

ومن المستحيل أن ترى اليوم قرابة بين المغول وترك أوروبا، ويرجع ذلك لا ريب إلى تزوجهما في قرون كثيرة بناء من العرق القفقامي كالكرجيات والشركسيات والفارسيات على الخصوص.

واستولى المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) وخربوها تماماً وخنقوا آخر العباسيين المستعصم بالله بأمر رئيس الغالبين (هولاكو)، ونهبوا ما في بغداد من الأموال وحرقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم وألقوها في نهر دجلة، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يمروا عليه رجالاً وركباناً، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها كما روى قطب الدين الحنفي، ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخربوا كل شئ نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم، (هولاكو) الذي خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره؛ فلم يلبث أن صار من حماتها، وفي المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم، وشملوا متفنني العرب وعلماءهم برعايتهم وأقاموا في بلاد الهند

---

(١) المسندرة: المنبسطة.

دولة قوية عربية من فورهم، كما يمكن أن يقال وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة؛ ولأن سلطان العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم.

أجل قامت بغداد من تحت الأنقاض، ولكن الترك استولوا عليها ثلاثة قرون فأصيبت بانحطاط تام فغابت عنها المكتبات ورجال الفن والعلماء إلى الأبد.

واليوم لا تزال بغداد مركزاً مهماً بفضل موقعها التجاري، ولكنها مدينة عصرية لا تجد فيها غير الأنقاض من مباني الخلفاء، وما يصادف فيها اليوم من الأبنية المتداعية على العموم حديث نسبياً وهو فارس أكثر منه عربياً قال مسيو فلاندان: تتوارى تحت طبقة كثيفة من الغبار أسس المباني، ولا تكاد تجد فيها أثر هارون الرشيد وزبيدة، وهنا وهناك يكتشف في بعض زوايا الأسواق، وعلى الشاطئ وبين أنقاض أضاعت اسمها وحوهُ جدران يقرأ عليها بصعوبة قطع من خطوط كوفية ومئذنة يشهد خرابها على قدمها وبقايا رتاج[1] ذي ميناء وذي فسيفساء لامعة تفصل على أساس البناء المحطم .

ولم يبال الترك بضياع هذه الأدلة على حضارة منافسة لحضارة بيزنطة، ونحن إذا ما استثنينا تلك البقايا النادرة المجردة من الفائدة معاً كان من العبث إزالة الغبار المتراكم ببغداد، فالحق أن هذه المدينة العظيمة لم يبق فيها ما يذكر بخلفائها الأعزاء كما يمكن أن يقال.

هذه هي حال بغداد اليوم، وقد لحقت بغداد الخلفاء في أعفار الماضي بطيبة وبابل ومنفيس وكل عاصمة كبيرة كانت سيدة الدنيا، ولكن هذه المدن لم تسيطر على العالم بغير السلاح، وخلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص.

ويجب لنحسن تقدير تلك الحضارة أن يخرج من دائرة الإجمال التي التزمناها في هذا الجزء من كتابنا، وأن ندخل دائرة التفصيل فندرس ما أسفرت عنه من العلوم والآداب والفنون والصناعة، وهذا ما نفعله في فصول

---

(١) الرتاج: الباب العظيم.

أخرى بعد أن تمت دراستنا المختصرة لتاريخ العرب في مختلف الأقطار التي استولوا عليها.

وكلما تقدمنا في الكتاب بدا لنا بوضوح أمران جوهريان لم نفعل غير الإشارة إليهما حتى الآن وهما: إن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها، وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة التي ساعدت على قهر العرب ومنها الترك أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأن أمماً قديمة قدم العالم كالمصريين والهنود اعتنقت ما جاءها به العرب وأورثتهم من الحضارة والدين واللغة.

الفصل الثالث عشر

أزمة الحضارة المعاصرة(*)

هذا البحث هو قراءة غربية إسلامية في أزمة الحضارة المعاصرة، فقد شخص أزمات هذه الحضارة عدد من المفكرين الغربيين، كما كان لبعض المفكرين المسلمين حضور في تحديد معاناة هذه الحضارة وأزماتها التي تحيط بها والتي تهدد كيانها بالتحليل والإنهيار. كما حاولنا تحديد سبل معالجتها من منظور إسلامي، وقد إرتأينا أن نقسم البحث لتسهيل معالجته إلى الفقرات التالية:

١. هل هناك حقاً أزمة حضارية معاصرة ؟
٢. ما ملامح هذه الأزمة ؟
٣. ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم من حلول لمعالجة هذه الأزمة ؟

١. هل هناك حقاً أزمة حضارية:

نعم هناك أزمة حضارية تتوعد الحضارة المعاصرة وتهددها بالدمار، أم أننا نحن المسلمين نفترض وجود مثل هذه الأزمة داخل بنيان الحضارة الغربية؛ لكي نبرر هذه الحضارة إلى قيمنا ومثلنا ومبادئها نحن المسلمين فنتنقص من قيمة هذه الحضارة ومن رياداتها العالمية، فنبخس إنجازاتها واكتشافاتها مظهرين قزميتها أمام عبقرية حضارتنا الإسلامية ؟

إن الشواهد التي جاءت في كتابات بعض المفكرين الغربيين عن حضارتهم تبين أو قد بينت فعلاً وجود أزمة حضارية بل وأزمة شاملة، وبهذا فإن القول بوجود هذه الأزمة الحضارية هو ليس طرحاً إسلامياً؛ إنما هو طرح غربي شخصه مفكرون غربيون ينتمون إلى تلك الحضارة، ويحملون هويتها وينعمون بإنجازاتها ويكتوون بنيرانها وإحباطاتها المتعددة والمتنوعة.

(*) انظر: نخبة من الباحثين، الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص١٨١–٢٠٤ مقال د. سالم أحمد محل، أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة صنعاء اليمن، ط١، ٢٠٠٠م، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، دولة قطر.

لقد شخص كارل ماركس (١٨١٨- ١٨٨٣م) أزمة الحضارة الغربية في المجال الاقتصادي، وانتقد بشدة جشع الرأسماليين واستغلالهم للعمال، وتنبأ بوقوع بطالات دورية تشل الاقتصاد الرأسمالي وتجعله دائماً يترنح نتيجة المنافسة بين المنتجين .

واقترح ماركس تأميم وسائل الإنتاج جميعاً، وطبقت نظريته في روسيا بعد نجاح ثورتها عام ١٩١٧ وظهور الاتحاد السوفياتي مطبقاً نظرية ماركس في الاقتصاد ومتنكراً لله سبحانه وتعالى، ومعلنها حرباً على الأديان.

غير أن الماركسية لم تأت بحل يخلص الحضارة الغربية من أزمتها بل أضافت لها أزمة أخرى جديدة عندما ألغت الحرية الفردية في العمل، وفرضت حالة من الاستبداد السياسي والقهر الجماعي باسم العمال والفلاحين، وفرضت هالة من القداسة الزائفة والكاذبة على دكتاتورية باسم الثورية والتقدمية.

وجاء أزوالد اشبنكلر (١٨٨٠- ١٩٣٦م) ودرس الحضارات ومنها حضاراته الغربية، فألف كتابه الذي يشير عنوانه إلى المأزق الذي تعيشه الحضارة الغربية وسماه: (تدهور الحضارة الغربية).

ثم جاء توينبي (١٨٨٩- ١٩٧٥م) ليؤكد وجود هذه الأزمة، وأن الأخطار تتهدد هذه الحضارة عن طريق حرب نووية مدمرة [١].

أما جوزيف أ. كاميليري فقد ألف كتابه: (أزمة الحضارة)[٢] ليضيف تاكيداً آخر على عمق الأزمة التي تكتنف الحضارة الغربية.

كذلك فإن دراسة روجيه غارودي للحضارة الغربية وتحليل أزمتها من خلال كتابه (وعود الإسلام) إضافة أخرى في ميدان تأكيد أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، بالإضافة إلى ما كتبه الكسيس كاريل وغيره من المفكرين الغربيين تأكيد لا يقبل الشك على تخبط هذه الحضارة في أزمتها وحاجاتها إلى من يأخذ بيدها إلى بر الأمان.

---

(١) توينبي، أرنولدتوماس، بحث في التاريخ، ترجمة طه باقر، بغداد، ٤/١٥٥.

(٢) ترجمة د. فيصل السامر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة، دائرة الشؤون الثقافية، ١٩٨٤م، بغداد.

٢. **ملامح الأزمة الحضارية:**

لقد افتقدت الحضارة المعاصرة عنصراً حيوياً من عناصر بقائها عندما فرطت بالجانب الروحي، وركضت ولهثت وراء الجوانب المادية فقط. فخلقت بذلك إنساناً تعيساً فاقداً للروح والمثل والقيم التي تضبط مسيرته وتعينه على مواجهة الحياة.

يقول الكسيس كارل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): إن الحضارة العصرية لا تلائم الإنسان كإنسان. وعلى الرغم من إنها أنشئت بمجهوداتنا إلا إنها غير صالحة[١].

وهذه شهادة من أحد أبناء هذه الحضارة على قصور هذه الحضارة. ثم يضيف كاريل: إننا قوم تعساء لأننا نتخبط أخلاقياً وعقلياً[٢]، فقد سببت الحضارة الغربية للإنسان الغربي التعاسة والشقاء؛ لأن هذا الإنسان بدأ ينحط أخلاقياً وعقلياً.

ويعرض كاريل حالة تقاطع مع معظم المفاهيم السائدة اليوم عن فكرة التقدم والرقي وهي: إن الجماعة والأمم التي بلغت فيها الحضارة ذروة النمو والتقدم هي الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى الهمجية والوحشية أسرع من سواها[٣]، وهذه مفارقة غريبة فالخوف دائماً على الجماعات والأمم الضعيفة من الإنحلال والإنهيار وليس على الأمم المتقدمة، مما يدل على عقم مظاهر التقدم التي تبدو على قسمات وجه الحضارة الغربية.

ويمضي كاريل في تبيان مراكز الضعف في الحضارة الغربية فيقول: إن المادية البربرية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العاطفي فحسب بل إنها تسحق أيضاً الشخص العاطفي واللطيف فأولئك يحبون الجمال ويبحثون عن

---

(١) ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٤م، ص٣٧.

(٢) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص٤١.

(٣) نفسه

أشياء غير المال[١]، وهناك دعوة صريحة يطلقها كاريل لأبناء حضارته بضرورة تحررهم من أغلالها: ومن الضروري أن يحرر الفرد منذ نعومة أظافره من مذاهب الحضارة الصناعية والمبادئ التي يرتكز عليها كيان المجتمع الصناعي[٢]، وبعد تحرر الفرد من قيود حضارته فإن كاريل يقترح: يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان من جديد في تمام شخصيته، الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية[٣].

إن الحضارة الغربية خيبت آمال الإنسانية، ولم تستطع أن تلبي لها احتياجاتها الإنسانية، ولم يحالفها الحظ في إنجاب رجال قادرين على قيادتها عبر الطرق الملتوية التي تتعثر فيها هذه الحضارة: ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة الغربية، فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه[٤].

إن الحضارة الغربية تعاني من أمراض خطيرة تنخر في جسدها، ومرد هذه الأمراض جميعاً نظرتها المادية المفارقة للنهج الإلهي والمتقاطعة مع مقاصد الله سبحانه وتعالى في الحياة البشرية، والغريب أن هذه الحضارة على علم بأوجاعها، يقول كاريل: لأول مرة في تاريخ الإنسانية تستطيع حضارة متداعية أن تميز أسباب انحلالها، ولأول مرة نجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الهائلة تحت تصرفها. ولم يكن كاريل وحيداً بين المفكرين الغربيين الذين شخصوا الأدواء التي تشكو منها حضارتهم، فقد عبر الرئيس الامريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في أول خطاب له بعد انتخابه رئيساً للولايات المتحدة، عن عمق الأزمة التي تعيشها بلاده يقول: إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ولكن ممزقين في الروح ونصل بدقة رائعة إلى القمر، أما على الأرض فنتخبط في

---

(١) نفسه، ص٣٥٥.
(٢) نفسه، ص٣٢٤
(٣) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص٣٥٣.
(٤) نفسه، ص٣٥.

متاهات ومتاعب كثيرة)[1] ، وهكذا فالحضارة الغربية بضائع، كما يصفها رئيس أكبر دولة في العالم وممثل أكبر دولة لهذه الحضارة المادية. وهذه إحدى أكبر أزمات هذه الحضارة، لقد فارقت الروح وتمسكت بالمادة وتعلقت بها دون انفكاك، الأمر الذي تركها خاوية بلا روح وبلا مبادئ تكبح جماح شهواتها ورغباتها التى ليست لها حدود.

أما الرئيس الفرنسي الأسبق الجنرال شارل ديجول فهو يخص معاناة الحضارة الغربية وأزماتها الراهنة بطريقة تدل على نفاذ الرؤية وعمق البصيرة، يقول ديجول: إن مجتمعاتنا الأوربية فقدت شيئاً ثميناً جداً تحت وطأة تقدمها الضخم ألا وهو (الإنسانية) وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا. فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض. لقد جف شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت[2].

وهكذا تكون أزمة الحضارة المعاصرة أزمة روحية وأخلاقية، فقد كان تنكرها لأي هدف روحي في الحياة أفقدها نضارتها الإنسانية فالتصقت بالأرض وفارقت السماء وأصبح معبودها الحقيقي المال والقوة التي تحافظ على استمرار الحصول على المال وحمايته، لقد أصبحت فلسفتها الحقيقية المعاصرة الرغبة في القوة، وهذه إحدى موروثات المدنية الرومانية القديمة[3].

لقد ارتكبت الحضارة الغربية خطأً مهلكاً قادها وسيستمر يقودها إلى الدمار والتحلل والانهيار عندما تنكرت لله سبحانه وتعالى وجحدته فنحته جانباً عن حياتها، وصاغت نظمها ومشاريعها وحلولها وبرامجها بعيداً عن مقاصد الله جلت قدرته في الحياة الإنسانية.

لقد سيطر على الحضارة الغربية في أوج نشاطاتها وفاعلياتها اعتبارات من الانتفاع العملي (المادي) دون أن يصاحب ذلك أيه ومضة روحية أو أدبية. أما قضية معنى الحياة والغاية منها فقد افتقدت في نظر الغربي الحديث جميع أهميتها العملية.

---

(١) الأميري، عمر بهاء الدين، الإسلام وأزمة الحضارة في ضوء الفقه الحضاري، مؤسسة الشرق للنشر، ط١، ١٩٨٣، ص٢٢.
(٢) الأميري، الإسلام وأزمة الحضارة، ص٢١.
(٣) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ص٣٥.

إن النظرة المادية التي ميزت الإنسان المعاصر، وخاصة أبناء الحضارة الغربية أدت إلى عجز الإنسان عن أن يتوحد مع ذاته. فصارت تسحقه المتناقضات كما يرى دعاة الوجودية، وذلك كله راجع إلى عدم التناسق والتكامل والتوازن في حياة الإنسان المعاصر بين الجوانب الروحية والجوانب المادية. لقد كان طغيان الجانب المادي على حياة الإنسان مدمراً ومنذراً بوقوع كارثة إنسانية كبرى قد تقوض جميع منجزاته الحضارية.

إن الفراغ الروحي الذي تعيشه الحضارة الغربية جعلها غير قادرة أحياناً على التمييز بين النافع والمفيد وبين غير النافع وغير المفيد. فقد أصبحت كل دعوة وإن كانت تافهة تلقى قبولاً، وتجد لها الأتباع من بين أبناء هذه الحضارة حتى من جاء من الهند يبشر بالضحك في الحياة، والضحك فقط وجد له أتباعاً ومريدين[1].

إن الحضارة الغربية تعيش أزمة ضمير أفرزت خواء أخلاقياً وانقطاعاً اجتماعياً ونفسياً. فتجد المراهق يهرع إلى (L.S.D) وغيره من المخدرات التي تسبب الحالة المرضية المسببة للهلوسة، ورب الأسرة الذي يقضي ساعات طويلة لمشاهدة التلفزيون الذي يعرض افلاماً تخيلية، والهيبي الرافض لمعطيات حضارته والباحث عن الفردوس في عالم الطبيعة، والمراهق الذي يجد نفسه ثائراً ومتوتراً فيبادر إلى تحطيم النوافذ وتهشيم زجاج السيارات، والمخمور الذي يجد مهرباً من قسوة الحياة في معاقرته للخمر إلى حد الضياع، وربة البيت المرهقة بسبب أعبائها المنزلية، أو التي تعاني من الاغتراب تجد خلاصها على سرير الصحة العقلية، هؤلاء جميعاً ضحايا القلق والشعور بعدم الأمان ومرض العصاب، وأن غضبهم كاسحاً بحيث يمكن أن يتحول إلى عجز وتخاذل في وجه مستقبل لا يتفهمونه ولا يستطيعون التحكم فيه[2].

لقد حدد كاميليري عوامل أزمة الحضارة الغربية وشخص حالة الاضطراب والقلق اللذين ينخران في جسدها، فهناك اختلال التوازن النفسي

---

(١) شوقي ابو خليل، الحضارة الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٩١.
(٢) جوزيف أ. كاميليري، أزمة الحضارة، ترجمة د. فيصل السامر، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، ١٩٨٤م، ص٢٦.

والاجتماعي، واختلال التوازن البنيوي واختلال التوازن البيئي وأزمة الطاقة وأزمة الأمن.

فاختلال التوازن النفسي والاجتماعي جعل شخصية الإنسان مغمورة بقيمته في التبادل في مجتمع معقد تحكمه قوى السوق، فأصبح الفرد لا يمتلك إحساساً بالذات ولا هوية خاصة ولا كرامة شخصية، وليس الفرد في نظم الاقتصاد الجماعي (الشيوعية والاشتراكية) بأحسن حال من نظيره في النظم الرأسمالية، إذ ليست له قيمة إلا بقدر ما يسهم به مادياً من أجل تحقيق أهداف الخطط الاقتصادية للدولة.

وكذلك الإختلالات البنيوية والبيئية وتشوش الاقتصاد العالمي وسباق التسلح الذي يتطلب إنفاقاً عسكرياً متزايداً، وأنه في المحصلة النهائية يفرز حدة الأزمة النفسية الناتجة عن عدم توفر الأمن القومي للقوى المتسابقة في هذا الميدان، لقد وجد كاميليري في كل ظاهرة وقع عليها نظرة في الغرب أزمة وفوضى اجتماعية يدركها الغربي ولكنه لا يستطيع معالجتها. فهناك استمرار في الإنتاج المفرط للبضائع على الصعيد الاقتصادي، وهناك ارتفاع في كلف الإنفاق العسكري والتسليح، وهناك إفراط في الاستهلاك المحلي، وهناك تشوش في خطط التعليم، ولهذا فقد اعتبر كاميليري التنظيم الاقتصادي والسياسي للدولة القومية سواء في المجتمعات المتطورة أو الناقصة النمو إنما هو في حالة تفسخ[1].

إن الأزمة التي يتحدث عنها كاميليري هي أزمة عالمية، وأن الغرب قطبها وهي أزمة تهدد مباشرة أرواح رجال ونساء لا حصر لهم، ومع ذلك فإن خطورتها تكمن في إنها تنفذ إلى بنية العلاقات الإنسانية كلها وتفسدها[2].

إن الإنسان يعاني من القهر الذي فرضته عليه القوة الساحقة للمجتمع التكنولوجي.. إن الطلب المستمر والمتزايد على النمو والتشريع في عمليات الإنتاج ومستوياته والذي بدوره يؤدي إلى ضرورة التوسع المستمر في معدل

(١) جوزيف أ. كاميليري، أزمة الحضارة، ص٢٩.
(٢) نفسه، ص٣١.

الاستهلاك؛ قد أصبح بفضل صناعة الإعلان المعقدة الهدف النهائي الذي ينظم حوله كل الكدح البشري، فلم يعد العمل وسيلة لتطوير الفرد أو إثرائه ثقافياً؛ بل غدا عاملاً ثانوياً في نظام تقني يقوم بمهمته مع اهتمام ضئيل بالغايات الإنسانية أو الخلاص الأخلاقي، إن التقدم العلمي الذي بلغته الحضارة الغربية وقدرتها على الوصول إلى القمر أقمارها الصناعية ومحطاتها الفضائية التي أقامتها في الفضاء الخارجي وثورة الاتصالات التي نجحت بتقريب العالم بعضه من بعض، ينبغي أن لا يعشي أبصارنا بريقها بل لا يجوز أن تلهينا عن الدرك الذي ينحدر إليه الإنسان ومقوماته الإنسانية[1].

إن خواء الحضارة الغربية الروحي بمختلف مذاهبها وأنظمتها هذا الخواء يخنق روح الإنسان، وتهدر فيه كرامة الإنسان وقيمته بينما تتكدس البضائع والسلع التي أنتجتها ماكينة التكنولوجيا المتطورة وتطغي على كل قيمة للإنسان[2]:

ولنا أن نتساءل: ما هي العوامل الكامنة وراء هذا الخواء الروحي؟ ولماذا غرقت هذه الحضارة بمستنقع الماديات التي أوصلتها إلى ما اوصلتها إليه من اختناقات وأزمات ؟

والجواب على ذلك يكمن في النزوع البشري إلى حب المال والنساء والذهب والفضة والزروع وكل مقومات الثراء الأخرى يقول تعالى: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾** [آل عمران: ١٤].

لقد تعلقت الحضارة الغربية في حرصها على جمع المال واحتكاره وتنميته واستثماره بطرق بعضها لا تكون مشروعة كالربا والاحتكار فأدارت ظهرها للمنهج الإلهي الذي ينظم العلاقة تنظيماً دقيقاً بين المال وبين طرق امتلاكه، ويضع الضوابط الكفيلة بإعادة توزيعه توزيعاً يكاد يحقق الكفاية للمعوزين

---

(١) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، مكتبة وهبة، ص٦٤.

(٢) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص٦٤.

والفقراء، وينظم العلاقة الجنسية ويقتصرها على الزواج المشروع فيبعد الفاحشة والبغاء عن المجتمع ويجنبه الأمراض الاجتماعية والجنسية.

وعندما يتجه الناس بكل طاقاتهم وقدراتهم وإمكاناتهم إلى المال يجمعونه ويتزيدون منه دون أداء حق الفقراء عليهم، ودون مراعاة للوسيلة والطريقة التي يحصلون بها عليه، عندئذ يكون المال وجمعه غاية لا وسيلة وعندئذ تتراجع جميع المبادئ والمثل والقيم سماوية واجتماعية أمام آلة المال العاتي، الذي أصبح يحرك النزوات التى ليست لها حدود في الاستزادة من الأموال، وصارت الحروب تشن ويصرع فيها الأبرياء بين القوى المتسلطة في العالم من أجل ضمان استمرار إمتلاء جيوب الرأسماليين وخزائنهم بالأموال، وصار الأمن العالمي مهدداً بالأخطار التي تنذر بالدمار الشامل لكل منجزات الإنسان الحضارية، عندما يشعر أحد الأطراف أن مصالحه مهددة بالبلد الفلاني أو أن مراكز نفوذه في الدولة الفلانية مهددة من قبل قوة أخرى.

وهكذ فإن النهضة في أوروبا منذ عصر النهضة مروراً بالثورة الصناعية قد قامت على المال والمال وحده بعيداً عن أية اعتبارات دينية أو خلقية، ولهذا الحرص على المال قادت أوروبا أكبر حركة استعمارية منذ القرن التاسع عشر سيطرت بها على معظم الشعوب في أفريقيا وآسيا ونهبت ثرواتها، وحولت هذه البلدان إلى أسواق لبضائعها ومنتجاتها الأمر الذي زاد من ثرائها، فازدادت تسلطاً على غيرها.. ونظراً لتصادم المصالح فقد أغرقت الحضارة الغربية العالم في حربين عالميتين راح ضحيتها الملايين من البشر عدا المشوهين والمعاقين. وكل ذلك قدم على مذبح إله المال الذي عبدته أوروبا.

لقد بدأ التفكك والاضطراب والجريمة تنخر في جسد هذه الحضارة المادية التي غرقت في حب المال حتى أذنيها، وعارضت بذلك المنهج الإلهي وخالفته، ولم تر لها إلها غير إله المال والشهوة فأفسدت بذلك حياتها واضطربت أحوالها وشاعت الجريمة في مجتمعاتها.

ففي الولايات المتحدة وحدها تحدث جريمة قتل واحدة كل ٢٤ دقيقة، ويجري كل عشر ثوان اقتحام منزل وسرقته، ويوجد من السلاح المعروض

للبيع الحر مسدس لكل أربعة من الأمريكيين، وتباع قطعة سلاح فتاك كل ١٣ ثانية، أما الاختطاف والإجهاض والانتحار والإدمان والشذوذ الجنسي فذلك منه الكثير الكثير[١].

ومن المخاطر الجدية اليوم التي تواجه بنية هذه الحضارة انتقال ظاهرة الجريمة إلى صفوف الأطفال اليافعين، فقد تناقلت وكالات الأنباء والمحطات الفضائية أنباء ارتكاب جريمتين من قبل طفلين جلبا السلاح، كل إلى مدرسته وبأوقات متفاوته، وقتل منهم عدداً من زملائه في المدرسة، وذلك كله نتيجة الفراغ الروحي الذي تعيشه الأسرة الأمريكية.

أما موقع المرأة في الحضارة الغربية فإنه يعد الوجة الآخر لأزمة الحضارة الغربية في معظم الحضارات، نظرت المجتمعات المختلفة إلى الأخلاق ربطتها بالجنس أو القضية الجنسية[٢]، فعند شيوع حالة من الانضباط الذي ينظم العلاقة بين المرأة والرجل وفق قوانين ونظم وأعراف المجتمع، بعيداً عن الفحشاء والخنى فتكون عندئذ الأخلاق في مثل هذا المجتمع سليمة وقويمة وعالية أو هكذا توصف وعند حدوث العكس، وذلك بشيوع العلاقات غير الشرعية والسقوط في مهاوى الرذيلة والفحشاء فعندئذ يوصف المجتمع بأنه يفتقد إلى الأخلاق القويمة.

ويبدو أن الناس كانوا محقين في ذلك، فالعلاقة الجنسية تعتبر أساس الأخلاق؛ إذ لا أخلاق بمفهومها الواسع إذا انحرف الناس في شؤون الجنس، وأن الذين ينحرفون عن شئون الجنس لا يمكن على المدى البعيد أن تظل لهم أخلاق[٣].

لقد أصبحت المرأة في ظل الحضارة الغربية المستنقع الذي يفسد الحياة الغربية، ومن ثم ينسحب ذلك إلى إفساد الحياة الإنسانية وذلك بحكم هيمنة الحضارة الغربية وتأثيراتها على الأمم والشعوب الأخرى[٤].

(١) الأميري، الإسلام وأزمة الحضارة، ص٢٩.
(٢) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، ص٢٥١.
(٣) نفسه.
(٤) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، علم إسلامي، دار الصحوة، القاهرة، ص٢٦٨.

قد كانت قسوة الحضارة اللا دينية شديدة على المرأة، فأصبحت بحكم تكوينها الفطري لا تستطيع المقاومة والصمود، وبذلك فقد أصبحت دمية رخيصة بيد الرجل يتلذذ ويتاجر بها ويعطيها فتات موائده ويعاملها كأي سلعة رخيصة لا كرامة لها[1].

لقد سلخت الحضارة الغربية جانباً مهماً من جوانب إنسانية المرأة وبدأت تعاملها كسلعة وبضاعة تجني من ورائها ملايين الدولارات.

ففي الولايات المتحدة وحدها هناك ٢٠٠ شركة جنسية تتخذ من المرأة بضاعتها وبصور متعددة، وتجني من ورائها الكثير من الأرباح حتى إن الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون علق على ذلك قائلاً: إن أرباح التجارة بالمراة قد عادت على أصحابها بأكثر من مليار دولار عام ١٩٧٢م[2].

أما المكتبات التي تعني بشئون الجنس فقد اخذت على عاتقها عرض الكتب والمجلات التي تضم عروضاً وصوراً للعملية الجنسية بهدف تحقيق الأرباح الطائلة، ففي واشنطن العاصمة هناك ٢٣ مكتبة تعرض بضاعتها المسمومة بطريقة تعرق الجبين حياء، وما تعرضه مكتبات شيكاغو ولوس أنجلوس ونيويورك أكثر بكثير مما تعرضه مكتبات واشنطن، إضافة إلى وجود الكثير من دور العرض الخاصة والمشاهد الحية للعملية الجنسية وأفلام الشذوذ الجنسي تعرض جميعاً بأسعار رخيصة لكثرة دور العرض المنافسة[3].

وهكذا تتحول البنت والأخت والزوجة وربما الأم أيضاً إلى بضاعة مثلها مثل كل البضائع المطروحة، فلا يبدو منها إلا ظلالها ويضيع بذلك دورها الريادي في بناء الأسرة وتنشئة الأجيال.

لقد أصبحت الرذيلة الجنسية إحدى مظاهر الحياة الغربية، بل إنها سارت معها حيث سارت فنجد الكثير من الشعوب التي تأثرت بقشور الحضارة الغربية قد تفشت فيها ظاهرة التحلل الجنسي، فشاعت الرذيلة بمقدار تأثر ذلك البلد بحضارة أوروبا أو بعبارة أدق بحضارة الغرب.

---

(١) عبد الحليم عويس، تفسيرالتاريخ، ص٢٦٨.
(٢) نفسه
(٣) نفسه

جاءت في إحصائية لشرطة نيويورك أن عدد البغايا فيها هو ٢٥ ألف تستهلك الواحدة منهن من المخدرات يومياً بحوالي ٥٠ دولاراً[١]، وهذا ناهيك عن الخليلات والعشيقات فهؤلاء لا يدخلن ضمن الإحصائية لأنهن لا يتقاضين أجوراً على سقوطهن.

وفي نيويورك أيضاً يوجد أغرب مجمع في العالم يضم أعضاء من مختلف الولايات المتحدة يقدر عددهم بـ ١٥ مليوناً هم المنحرفون جنسياً[٢]، وهذا مما يدل على حالة التحلل والتفسخ والإنهيار الأخلاقي الذي أصبح سمة لهذه الحضارة.

وتقف المرأة في أوضاع مزرية أخرى في كنف هذه الحضارة اللا دينية، فلم تعد بضاعة للمتاجرة بجسدها على صفحات الكتب والمجلات أو بعروض الأفلام الجنسية أو بالمشاهد الحية في اللقاءات المحرمة، وإنما أصبحت وسيلة قانونية ودولية للمزايدات السياسية والتجارية فظهرت أجهزة خاصة تنتمي إلى قوى دولية كبرى صارت تستخدم النساء عبر أخطر جهاز عالمي وهو هيئة الأمم المتحدة في عرض أجسادهن بطريقة دبلوماسية تتخذ أشكالاً مختلفة من أجل اصطياد الرجال (المهمين) في العالم وسرقة الأسرار الدولية المطلوبة عن طريق الجسد الجميل[٣].

لقد أصبحت المرأة في ظل الحضارة الغربية وسيلة للتجارة وتحقيق الأرباح فهي في المحلات التجارية والشركات وصناعة الإعلان والدعاية وسيلة لجلب الزبائن، وهي مطلوبة كسكرتيرة خاصة يشترطون فيها قدراً كبيراً من الجمال والأناقة، وهي في السينما والتلفزيون والراديو والمجلة والصحيفة والقصة تعتمد على جمال جسدها وأناقتها الذين يتفننون في إبرازه وتجسيمه والذي يعد أهم وسيلة للإتجار والكسب والحصول على الملايين[٤].

(١) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص٢٦٨.
(٢) نفسه، ص٢٦٩
(٣) نفسه
(٤) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص٢٦٩.

عطاء الإسلام لأزمة الحضارة:

والآن وبعد أن عرضنا جانباً من أزمة الحضارة الغربية في المال والجنس؛ هل بإمكان حضارتنا أن تمد يد العون لهذه الحضارة البائسة ؟ أو بعبارة أخرى ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لهذه الحضارة في محنتها وتوالي أزماتها ؟

١. على الصعيد المالي:

نحن نعلم بأن الربا والاحتكار كانا وراء تمكن الرأسمالية من تجميع الثروات والاستزادة منها، وحرمان سائر الناس من تلك المردودات الضخمة التي تجنى من تلك الاستثمارت[١].

ومن هنا فإن النظام الرأسمالي القائم على الربا والاحتكار يتقاطع مع المنهج الاسلامي الذي يحرم الربا والاحتكار لكونهما وسائل غير مشروعة لاستثمار المال، وهكذا فإن الإسلام سيحرم الرأسمالي الجشع من ربح كثير مصدره الربا والاحتكار، وهذا ليس لأن الإسلام يرفض استثمار المال أبداً، ولكن لأن الربا والاحتكار لا يمثلان جهداً حقيقياً للمالك ولا دور اجتماعياً إيجابيا للمال في المجتمع، في حين أن المذهب الاقتصادي الإسلامي يعمل على تنمية الإنتاج وتثميره واستثمار موارده الطبيعية، واستغلالها بما ينفع الفرد والجماعة، غير أن ذلك لا يعني أن يكون هدف الإنتاج هو تجميع الأموال وتكديسها، فالمذهب الاقتصادي الإسلامي لا يرى في الإنتاج ومايقوم به من إنتاج سلع وخدمات إلا كونه وسيلة لخدمة الإنسان وترقيته مادياً وروحياً، ليستطيع القيام بما كلفه به اللّه تعالى من مهام الاستخلاف في الأرض[٢].

والمال على هذا الأساس وسيلة لا غاية... وسيلة تمكن الإنسان من عبادة اللّه سبحانه وتعالى على أفضل الوجوه، يقول ابن تيمية رحمة اللّه: إن اللّه خلق الخلق لعبادته، وخلق لهم الأموال ليستعينوا بها على عبادته[٣].

---

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٣١.

(٢) أحمد عواد محمد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية في المذهب الإقتصادي الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٨٧م، ص١٩٧.

(٣) ابن تيمية، الفتاوي الكبرى، نقلا عن الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص١٩٧.

والغرض من المال في المذهب الاقتصادي الإسلامي كما نرى غير الغرض منه في قوانين الإنتاج الاقتصادية في الغرب.. فبينما يكون الهدف منه في النظام الأخير إحداث الرفاهية لمالكه وامتلاك السطوة والاستكثار منه، استجابة الدوافع الأنانية فقط وابتعاداً عن النظرية الأخلاقية، نجد أن هدف الإنتاج في المذهب الاقتصادي الإسلامي قائم على الجانب الأخلاقي واعتبار المال الناتج وسيلة تعبدية يتعبد بها المسلم إلى الله[1].

كذلك فإن الإسلام أي نظام الإسلام الاقتصادي لا يقوم فقط على زيادة الإنتاج وهو هدف الإنتاج في الأنظمة الرأسمالية، وإنما يستلزم في نفس الوقت عدالة التوزيع وهو الشئ المفقود في الحضارة الغربية، ومن ثم فإن الإسلام يرفض أية تنمية رأسمالية تستهدف تنمية الثروة القومية دون النظر إلى توزيع عادل لهذه الثروة[2].

كذلك فإن المسلم الغني وصاحب العمل ومن يمتلك وسائل الإنتاج والمصانع والمزارع قد فرض الله عليه مقداراً محدداً من المال كزكاة لأمواله، يدفعها إلى الفقراء والمعوزين وقد اعتبرها الإسلام حقاً لهؤلاء الفقراء في أموال إخوانهم الأغنياء وهي ليست منة من الآخرين، بل هي واجب وحق يقول تعالى: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَعَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** [التوبة: ٦٠].

وبذلك يتفوق المذهب الاقتصادي الإسلامي على المذهب الرأسمالي، كما أن الإنتاج في المذهب الرأسمالي يهدف إلى الاستفادة من الطلب في السوق؛ كي يحقق أكبر قدر من الربح دون أن يكون هدفه إشباع الحاجات، فهو إنتاج طلب لا إنتاج حاجات، أما في المذهب الماركسي فهو وإن كان إشباع الحاجات، فهو وإن كان يتجه بالإنتاج لغرض إشباع الحاجات غير أنه يتخلى عن شخصية الإنسان الروحية ومتطلباتها لمقتضيات الحاجات المادية[3].

---

(١) أحمد عواد محمد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص١٩٨.
(٢) نفسه.
(٣) أحمد عواد محمد الكبيسي، الحاجات الإقتصادية، ص٢٠٠.

وهكذا يتفوق المذهب الاقتصادي الإسلامي على المذاهب الاقتصادية الوضعية وخصوصاً الرأسمالية في:

١. تحريمه للربا والاحتكار كمصدرين من مصادر الاستغلال للآخرين.
٢. إن الإسلام رغم أنه يسعى إلى زيادة الإنتاج، لكنه يحرص على عدالة التوزيع، وهو أمر مفقود في النظام الرأسمالي.
٣. إن الإسلام بتشريعه للزكاة ساعد على انتقال الأموال والبضائع وغيرها من مالكيها الأغنياء إلى المحتاجين من الفقراء والمعوزين، وبذلك فإن الإسلام خفف من وقع الحاجة على الفقراء والمعوذين، وهذا ما يفقده النظام الرأسمالي.
٤. إن طبيعة الإنتاج في مذهب الاقتصاد الإسلامي هو لإشباع الحاجات الإنسانية، في حين أن الإنتاج في النظام الرأسمالي هو إنتاج طلب متزايد في السوق مما يجعله حريصاً على تحقيق أعلى نسب للأرباح.

وبهذا فإن الإسلام يستطيع أن يساعد في حل أزمة الحضارة الغربية عندما يصبح أبناء هذه الحضارة متحررين من عقدهم في معاداة الإسلام، وعندما ينظروا بموضوعية إلى منهج الإسلام في الحياة، والذي هو منهج إلهي أراده الله تعالى واختاره للبشرية جميعاً، وهو منهج صالح في كل زمان ومكان يقول تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧]، وكونه ﷺ قد بُعث رحمة للعالمين فذلك يعني أن دينه كان بعثته رحمة لمن بعث فيهم ومن عاصرهم، وهذه الرحمة مستمرة إلى يوم القيامة؛ لأن دينه دين خير ولا يمكن للخير أن يكون صالحاً في زمن وغير صالح في زمن آخر.

كما أن الإحباطات والمآزق والأزمات التي تحيط بالنظم الوضعية وتمثلها الحضارة الغربية يعد أكبر دليل على قصور هذه الأنظمة أمام المنهج الإلهي الذي اختاره الله سبحانه وتعالى للعالمين.

٢. مشكلة الجنس وأزمة الحضارة المعاصرة:

فيما مضي من السطور وقفنا على بعض الشواهد التى دللت على مهانة المرأة في خضم حضارة مادية طاغية ونظرة الرجل إليها ونظرة المؤسسات التي تهدف إلى الربح على أنها سلعة يمكن أن يتحقق عن طريقها الربح الوفير.

أما نظرة الإسلام للمرأة فقد رفع مكانتها وانتشلها من المهانة التي تلفها في معظم الحضارات السابقة للإسلام والمعاصرة له، وجعلها على قدم المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات، كما اعتبرها مكملة للرجل وهو مكمل لها يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** [الحجرات: ١٣]، كذلك فقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في العمل، والمسؤولية أمام الله والثواب والعقاب يقول الله تعالى: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾** [آل عمران: ١٩٥]، وهكذا فإن المساواة متحققة جنائياً وعقائدياً وفعلياً على صعيد العمل والمسؤولية التي تترتب عليه، فالرجل والمرأة متكافئان في الحقوق والواجبات في الإسلام، ولكنهما ليسا متشابهين في التكوين النفسي والجسمي[(١)].

وبهذا فإن الإسلام يتقاطع في نظرته للمرأة مع اليهودية استناداً إلى ثوراتها المتداولة فقد جاء في معجم الفلسفة الفرنسي: إن القرآن يختلف عن التورات في أنه لا يجعل ضعف المرأة عقابا إلهياً كما ورد في سفر التكوين (١٦/٣)، ومن الخلط أن ينسب إلى شارع عظيم كمحمد ﷺ مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء، والحقيقة هي أن القرآن يقول: **﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** [النساء: ١٩][(٢)].

أما الحضارة الغربية فقد نظرت للمرأة نظرة متاع يورث، بينما نفى عنها الإسلام صفة المتاع وضمن لها حقها في الإرث الذي يتركه الأبوان والإخوة أو الأقرباء، يقول الله عز وجل: **﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾** [النساء: ٧].

وعندما حرم الإسلام الفاحشة والبغاء فإنه حفظ للمرأة مكانة أسمى؛ فأبعدها عن أن تكون متعة رخيصة بيد الرجل يلهو بها ثم يتركها إلى غيرها وغيرها..

---

(١) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ٢٦٧/١

(٢) نفسه، ص٢٦٤.

والإسلام أيضاً بتحريمه للفاحشة ومقاومته لها وصيانة المجتمع وحمايته منها؛ فإنه يفعل ذلك لأنها تهبط بكيان الإنسان عن المستوى اللائق به كإنسان، ومن ثم فهي تخالف الأخلاق بالمفهوم الواسع للأخلاق[1].

ولما كان الإنسان هو خليفة الله في الأرض؛ فإن اندفاع الإنسان وراء شهواته المسعورة وغرائزه؛ يتناقض مع هذه المهمة المقدسة، كما أن هذا الاندفاع دون ضبط وتحديد وتنظيم يجعل الإنسان لا يتميز كثيراً عن الحيوان[2].

والله سبحانه وتعالى عندما حرم الفاحشة على عباده لم يحرمها كي يضيق عليهم في حياتهم، ولكن ليطهرهم وليرفعهم إلى مصاف الإنسان الذي كرمه على كثير ممن خلق: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠][3].

والإسلام لا يقر الرهبانية ولا يتنكر لرغبات الإنسان وميوله الفطرية، ولكنه يعمل على تهذيب وتنظيم وتحديد مشروعية الوصول لها وإشباعها وفق المنهج الذي جاء به من الله المصطفى ﷺ.

وهكذا فإن الإسلام يعالج المشكلة الجنسية بواسطة:

الزواج المشروع الذى جعله السبيل إلى التحصن من الوقوع بالفاحشة، وتجنب مخاطرها الاجتماعية والصحية، ولهذا فإنه عمل ما في وسعه على تيسيره والتشجيع عليه اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وروحياً، وجعله عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله، يقول الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠]، وهذا أمر من الله للعباد بالزواج الذي يحفظ للرجل والمرأة كرامتهما ويصونهما من السقوط.

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٥٤.
(٢) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٥٤– ٢٥٥.
(٣) نفسه، ص٢٥٥.

وفي قصة الثلاثة الذين جاءوا بيوت أزواج النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فاستقالوها فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلى الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول اللهﷺ إليهم فقال: **(أنتم الذين قلتم كذا كذا ؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)**[1].

إن الإسلام بتشجيعه للزواج فإنه يضمن للإنسان أشياء كثيرة:

فهو يضمن للإنسان راحة الأعصاب وراحة الضمير ويضمن له الاستقرار، كما يضمن نمو الأسرة واستقرارها، ويضمن للأطفال التنشئة الصالحة في حضن الأسرة، وما في هذا الحضن من الحب والود والرعاية التي يسبغها عليهم الأبوان الأمر الذي يجنبهم الانحراف والشذوذ والخروج عن الآداب الاجتماعية في المستقبل[2].

ولقد عبرت مريم جميل بعد دخولها الإسلام عن صون الإسلام ورعايته للمرأة بقولها: إن النساء المسلمات يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذي جاءت أحكامه وآدابه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك وضياع الأسرة[3].

وهكذا فإن الضمانات التي يوفرها الإسلام للمرأة يجعلها بمنأى عن كل ما يحاول جرح كرامتها ويحولها إلى متعة رخيصة بيد الرجال، ولقد عانت وتعاني الحضارة الغربية من جراء هذا الانفلات للعلاقات المحرمة بين أبنائها، فقد أخذت تدفع أثماناً باهظة فأصبح الإيدز الهاجس المرعب لأبناء هذه الحضارة، كما أن شيوع الأمراض الجنسية الأخرى يبدد أي شعور بالمتعة التي لا يمكن أن تتحقق إلا في عش الزوجية النقي الدافئ الطاهر.. وهكذا فإن الحضارة الغربية بل البشرية هو أحوج ما تكون اليوم للإسلام؛

(١) صحيح البخاري، دار القلم، بيروت، ١٩٧٨م، ٥/٧/٤.

(٢) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٦٠–٢٦١.

(٣) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ٢٧٥/١.

لأن المنهج الوحيد القادر على انتشالها من وهدتها، والتشريع الذي جاء لإسعاد البشرية في الدنيا والآخرة.

ولقد تنبه إلى أهمية الإسلام وقدرته على حل ومعالجة أدق التعقيدات التي تتخلل بنيان الحضارة الغربية المعاصرة عدد من المفكرين الغربيين، مظهرين حاجة حضارتهم لهذا الدين وقدرته على العطاء والمساعدة في إيجاد الحلول لأزماتهم الحضارية، يقول الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة (فيينا) في مؤتمر الحقوقيين عام ١٩٢٧م: إن البشرية تفخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنه رغم أميته فقد استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد الناس لو توصلنا إلى قمته بعد ألفي عام[١]. وما نريد أن نقوله هو أننا نصحح للدكتور شيرل خطأه التاريخي، فالتشريع الإسلامي لم يأت به الرسول ﷺ من نفسه، وإنما نزل عليه من السماء، وهذا هو سر ديمومته وصلاحيته للحياة في كل زمان ومكان، وأما العالم سانتلانا فإنه يقول عن الفقه الاسلامي: إن الفقه الإسلامي يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل إن في ذلك كفاء للإنسانية[٢].

ويقول هوكنج أستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد: إني أشعر بأني على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي على جميع المبادئ اللازمة للنهوض، وأن نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار أحكام منسقة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية[٣].

أما الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديجول فقد أجاب على سؤال لإحدى الصحف الباريسية الكبرى عن سر تقديره للعالم الإسلامي فقال: أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والإسلامية التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها سينقذنا من مغبات حضارتنا وسيكون مفيداً لنا جدا[٤]،

---

(١) أنورالجندي، معلمةالإسلام، ص٥٨١.

(٢) نفسه.

(٣) الملاح، د. هاشم وآخرون، دراسات سابقة في فلسفة التاريخ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨م، ص٢٢٣.

(٤) الأميري، ص٢١.

وهكذا فالسياسي العجوز ديغول يرى بثاقب فكرة إمكانية مجئ الإنقاذ لأبناء الحضارة الغربية من الإسلام ومن المجتمعات الإسلامية التي يسود فيها الإسلام فهل ينتبه المسلمون إلى خطورة هذه الشهادة ؟.

أما العالم الإسباني فيلا سبازا فإنه يرى: أن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست أجدر من أمم الشرق المحتفظة بالثقافة العربية – الإسلامية القائمة على إذاعتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الذي يجر الإنسانية إلى هوة التوحش والتسلط المادي.

أما روجيه غارودي الذي درس الإسلام ثم دخل فيه وألف كتاباً اسمه (وعود الإسلام) فقد نقد الحضارة الغربية نقداً لاذاعاً مؤكداً أن حضارة الإسلام هي التي تصلح لإرث الأرض، ولهذا سماها بـ (الإرث الثالث) باعتبارها تتوسط بين حضارة الأقوياء (الغربية) وحضارة الضعفاء (العالم المتخلف)، وحضارة الإسلام مطلوبة للعب هذا الدور في رأيه لأنها: (توطد عقيدة التوحيد وتوفق بين الإيمان والعلم ولا تقيم حاجزاً ولا وسيطاً بين العبد وربه وتحفظ كرامة الإنسان ومايحققها من العدل والحرية والشورى[(١)].

أما محمد أسد (ليوبولد فايس) وهو من مفكري أوروبا الذين اعتنقوا الإسلام فيقول: بأن الإسلام استطاع أن يحصن نظامه الاجتماعي الذي ظل منيعاً ومتيناً؛ لأن تعاليم القرآن الكريم الدينية قد خلقت هذا الأساس المتين، وسنة الرسول ﷺ أصبحت إطاراً من الفولاذ حول البناء الاجتماعي العظيم[(٢)].

وعليه فإن الإسلام هو المنهج الذي يمتلك كل عناصر القوة التي تمكنه من حل اختناقات الحضارة الغربية وبربريتها، وبالتالي فإن المسلمين أصحاب المنهج الإسلامي هم الذين يمتلكون القدرة التي يستطيعون بها أن يثبوا الوثبة الكبرى لإنقاذ البشرية وإعادتها إلى منهج الله سبحانه وتعالى[(٣)].

والإسلام في وثبته المترقبة بعون الله تعالى الكبرى لا يهدف إلى تحطيم مظاهر الحضارة الصناعية أبداً، بالعكس فإنه يحافظ عليها وينميها ولكنه

---

(١) نفسه، ص٢٤.
(٢) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٣٧.
(٣) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص١٠٦

يعمد فقط إلى تغيير النظرة إلى هذه الحضارة يجعل الروح الإنسانية هي المسيطرة عليها، لا هي المسيطرة على الروح وتصورات الإنسان ومشاعره وأخلاقه[1].

وعندما يصبح الروح الإنساني المؤمن هو المهيمن وهو المسيطر على كل جانب من جوانب الحياة بمختلف ميادينها واتجاهاتها فعندئذ يصبح الإنسان متمتعاً بحريته في إطار عقيدته قادراً على الاختيار، والاختيار هو العنصر المفقود في الحضارة الصناعية[2].

ونحن الآن نعيش حالة ترقب لإحداث تلك الوثبة الكبرى في حياة البشرية فتعيدها إلى المنهج الإلهي فتستعيد البشرية بذلك إنسانيتها وحريتها وطهرها ونقاءها: **﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾** [البقرة: ١٣٨]، **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [الأنعام: ١٥٣].

والله ولينا في الحياة والآخرة، وهو نعم المولى ونعم النصير.

(١) نفسه، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) نفسه، ص١٠٧.

فهرس المحتويات